امرأة من القاهــرة

نويل باربر

اسم الكتاب: امرأة من القاهرة

المـــــؤلف : نويـــل بـــاربـــر

تـــرجمـة : شــــرقاوي حافظ

الناشــــــر: بورصة الكتب للنشر والتوزيع

تصميم الغـلاف: عماد عبد المقصود

التجهيزات الفنية: حسام أنيس

٢٥ شارع شريف–القاهرة

Email: adel.metwaly69@yahoo.com

٠٢/٢٣٩٢٠٣٦٩ - ٠١٠٠١٨٨٩٣٦٣

رقم الإيداع : ٢٠٦٣٥ /٢٠١٤

الترقيم الدولي: ٨-٧٦-٥٠١٦-٩٧٧-٩٧٨

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية– دار الكتب المصرية

باربر، نويل.

امرأة من القاهرة: رواية / نويل باربر؛ ترجمة شرقاوي حافظ.- ط١.- القاهرة: بورصة الكتب للنشر والتوزيع، ٢٠١٤ .

٣٣٦ص؛ ٢٠سم.

تدمك: ٨- ٧٦-٥٠١٦-٩٧٧-٩٧٨

١- القصص العربية.

أ- حافظ، شرقاوي (مترجم).

٨١٣

نويل باربر

امْرَأةٌ مِن القَاهِرَةِ

ترجمة

شَرْقَاوِي حَافِظ

بورصة الكتب

الطبعة الأولى

٢٠١٥

هَذه الرّوايَة
بِقَلَمِ المتَرْجِم

تدور رواية "امْرَأة مِن القَاهِرَةِ" حول علاقة حميمة بين أسرتين إحداهما مصريَّة هي أسرة سرِّي باشا مستشار القصر في عهد الملك فؤاد والملك فاروق وأسرة مستر هولت البريطانيّ الجنسيَّة والمقيم في القاهرة، والتي أسفرتْ عن زواج سيرين بنت سرِّي باشا وجريج ابن مستر هولت رغم علاقة الحبِّ التي كانت تربط بين سيرين ومارك الابن الأكبر لمستر هولت، وترصد لنا الرّواية أهمَّ الأحداث التي جرت في مصر وخاصَّة في القاهرة في الفترة من ١٩١٩ حتَّى عام ١٩٥٣ والتي تتناول تفاصيل مثيرة في حياة القصر في فترتي فؤاد وفاروق، بالإضافة إلى تفاصيل العلاقة العاطفيَّة بين مارك وسيرين وما نتجَ عنها من أحداث شائقة، وكذلك ما رصدته الرّواية من أحداث الحرب العالميَّة الثَّانية وما دار في العلمين وموقف مصر الدَّقيق في هذه المرحلة، وكذلك الصّور الواقعيَّة التي كانت سائدة في مصر في ذلك الوقت من حياة قاسية وظروف صعبة مرَّ بها الشَّعب المصريّ، وتربط القصَّة بخيط مثير بين شعور الشّعب المصريّ تجاه الانجليز والدّور الوطنيّ الذي قام به سعد زغلول ورفاقه وعبد النَّاصر ورفاقه وكذلك موقف الإخوان المسلمين حتَّى عام ١٩٥٣.

ولما تحويه الرّواية من أحداث ممتعة وحقائق مذهلة وتفاصيل شَائقة عن مصر والمصريين في المقام الأوَّل وعن العلاقات المتشابكة بين أبطالها في

المقام الثَّاني، ولما تعرضه الرّواية من وجهة نظر شاهد عِيان، حيثُ إنَّ المؤلف عاش في القَاهرة في تلك الفترة، بل وعاش في قلب الأحداث من خلال وظيفته الرَّسْميَّة، ولما تجسّده الرّواية من صور تهمّ كلَّ مصـريٍّ عن تلك الفترة التي دار حولها جدلٌ كثيرٌ رأيتُ ضرورةَ ترجمة هذه الرّواية إلى اللغة العربيَّة لتكون في متناول كلِّ قارئ بلغة الضَّاد لإسقاط الضّوء على هذه الفترة الحسَّاسة من تاريخ مصر.

المترجم

شكر وتقدير
(المؤلِّف)

رغم أنَّ هذه الرِّواية هي من نسج الخيال إلَّا إنّ بعض الشَّخصيَّات التي تحتويها وما تقوم به من أفعال تمَّ سردها في الرّواية هي شخصيَّات حقيقيَّة وأحداث حقيقيَّة وإنْ كانتْ ممزوجة بنوعٍ من الخيال القصصيّ.

فمثلًا التَّعليم الذي تلقَّاه الملك فاروقٌ في الحقيقة هو الذي تمّ وصفه في الرّواية وكذلك مشاويره اليوميّة للتّسوّق في كنجستون بعد أنْ تمَّ رفضه للالتحاق في إيتون.

لقدْ كانَ فاروق أميرًا أسطوريًّا معقودة عليه الآمال، تحوَّلَ في نهاية الأمر إلى أكول شَرِه وزئر نساء ومقامر.

إنَّه فاروق الذي جلدَ رجلًا مائة جلدة لمجرَّد إهانته، ثمَّ أعطاه بعد ذلك مكافأة ألف جنيه.

لكم اختفى من الرِّجال والنِّساء بشكل غامض في عصر فاروق.

وبالمنهج نفسه، جمال عبد النَّاصر، نجل ساعي البريد، هو كما تمّ وصفه في الرِّواية سواء في الشَّجِّ الذي أصابه في رأسه جرَّاء أعمال شغب أو حياته وهو طالب في المدرسة.

والسَّادات الذي نجا بأعجوبة من السِّجن أثناء الحرب حين اشترك في مخطّط لمساعدة روميل ضدّ الانجليز وإنْ كان قد دخل السّجن فيما بعد.

حتَّى تلك التَّفاصيل التي وصفها مارك في الرّواية عن الصّور العارية في حمام الملك فاروق هي من خلال زيارة فعليَّة لوفد كان يضمّ المؤلِّف لقصر القبَّة بعد تنازل الملك عن العرش.

وفي الجانب الآخر وعلى عكس ما ذكرته من وجود بعض الحقائق فإنَّ الأسر التي تدور حولها الرّواية لا تمتّ بأيّ صلة لأسر حقيقيَّة.

لقد عشتُ في القاهرة وخارجها لعدَّة سنوات كمراسل صحفيّ في الشَّرق الأوسط، قابلتُ خلالها عبد النَّاصر والسَّادات عدَّة مرَّات وقابلتُ الملك فاروق مرَّة واحدة.

ولقد كنتُ عضوًا في نادي الجزيرة الذي يجسِّد الأيَّام الجميلة في القاهرة عندما كان المصريُّون يكرهون بريطانيا، ولكنَّهم يحبُّون الانجليز أنفسهم مثلما فعل أحد المصريين عندما احتفى بي ذات مرَّة كمواطن قاهريّ.

في النِّهاية أتوجَّه بالشُّكر لاثنين من زملائي هما أنطوني دافيد والان ويكي اللذين أمدَّاني بكثير من المعلومات القيِّمة أثناء إعداد هذه الرّواية.

وأشكر أيضًا بيبا أسديل التي لم تدّخر جهدًا في كتابة هذه الرّواية ولاسيَّما بعد التَّعديلات التي تمَّت بها.

1

الفصل الأوَّل

١٩١٩ - ١٩٣٧

١

ما أروع تلك الأيَّام التي قضيناها في القاهرة.

لقد كنَّا نعيش في رفاهية في منزلنا الأبيض الذي تمتدّ مساحة فنائه إلى شط النِّيل، حيث تصطفّ شوارع المدينة الواسعة بالمحلَّات والفنادق التي تكتظّ بالفرق الموسيقيَّة ونادي الجزيرة بملاعب البولو والجولف الواسعة وبحمَّامات السِّباحة.

لقد كنَّا سعداء بحقّ، السَّعادة هي الكلمة التي دائمًا تقفز إلى ذهني كلَّما مرَّتْ بي الأيَّام، كنَّا جميعًا سعداء، وخاصَّة سيرين، أجمل ما فينا، وهي ابنة رجل قبطيّ مصريّ وكذلك جريج، أخي، الذي تزوّجها فيما بعد، وتيدي بولك ذلك الفتى المستهتر، كنَّا دائمًا نقضي الليالي السَّعيدة في الرَّقص بعد رحلتنا إلى سقَّارة أو في فندق مينا هاوس.

وفي الجانب الآخر كان هناك عليّ، أخو سيرين، مع أصدقائه - جمال عبد النَّاصر - وهو طالبٌ جادّ في تصرُّفاته رغم صغر سنِّه، وأنور السَّادات الذي يميل دائمًا للمناقشة في الأمور.

لقد كنَّا غالبًا ما نجهل الوجه الآخر للحياة في تلك المدينة، فهناك آلاف الشَّحَّاذين وأكوام مهولة من النِّفايات والقمامة وصور الجهل التي لا يمكن وصفها والتي لا يعلم آباؤنا عنها شيئًا.

ورغم أنَّ أبي، وهو مستشارٌ مصريّ، يحبّ كلَّ شيءٍ يتعلَّق بهذا البلد وكذلك سرِّي باشا، أبو سيرين، إلَّا أنَّهما لا يدركان مدى الخلاعة التي

يعيش فيها الملك فاروق ولا مدى الدَّوافع الدَّنيئة لمساعده العسكري عثمان صادق.

لقد غطَّت روعة مصر أعيننا عن الحياة الحقيقيَّة فيها مثل الابتسامة الخنوعة التي تغطِّي وجه العربي عندما يريد أنْ يبيع جعلانًا لجنديّ بريطانيّ ليغطِّي بها كراهيته له.

ولكنَّ القاهرة رغم هذا كانت تسبينا بسحرها، والنِّيل كان يهدهدنا بنسيمه العليل لنعيش في حالة من الأمان الزَّائف.

أتذكَّر مرَّة، وكنتُ صغيرًا وكان أبي ممسكًا بي حيث مرَّ أمامنا ترام مكتظّ بالرّكَّاب وكنتُ أتأمَّل أسلاك التِّرام وهي تلمع تحت أشعة الشَّمس فسألتُ أبي: "أين يذهب هذا التِّرام؟ فأجابني: "مثل أي شيء في مصر يدور ويدور لكل مكان، ولا يذهب لأيّ مكان في الوقت نفسه".

عندما أسترجع الماضي لتظهر أوَّل صورة انطبعت في ذاكرتي في يوم من أيَّام القاهرة الحارَّة في أحد أيَّام سنة ١٩١٩ حين كانت سيرين في عامها الأوَّل وكنتُ أنا حينئذٍ لم أتجاوز العاشرة.

لم أدرك حينئذٍ في ذلك الصّباح الباكر لماذا تغيّر الجوّ الهادئ في منزلنا فتحوَّل إلى بعض الامتعاضات على وجه أبي وأمِّي، فهذا الصِّياح الذي يعلو وجه أمِّي وذاك التَّبرُّم الذي يبديه أبي وتلك النَّظرات الحائرة فوق وجوه الخدم.

اعتقدتُ أنَّه في سنّ العاشرة يجب على أبي أنْ يشرح لي سبب هذا التَّغيُّر وسرّ هذه الضّوضاء التي تأتي من الخارج وكأنَّها خبطات في بعض السَّيَّارات، فدفعني هذا الاعتقاد لأسأل أبي: "بابا... ألم تقلْ لي من قبل إنَّ مصر تتبعنا: يعني تحت حمايتنا... لماذا إذًا المصريُّون غاضبون لأنَّنا

نحميهم"، فأجابني: "ربَّما لا يريدون منَّا أن نحميهم"، ثمَّ أردف قائلًا "فار التَّنُّور" وإنْ كنتُ لم أفهم تلك الجملة الأخيرة.

وتدخلتْ أمِّي محذِّرة: "إيَّاك أنْ تخطو لخارج الفيلّا مهما كان السَّبب" وأخذتْ منِّي وعدًا على ذلك.

فقال أبي معقِّبًا: "على أيَّة حال لا يستطيع أنْ يخرج" وأردف: "تمَّ إعلان الأحكام العرفيَّة... يعني سيطلقون النَّار في أيّ لحظة" فتساءلتُ: "ولا أقدر حتَّى أروح جاردن سيتي".

وجاردن سيتي هذه منطقة معروفة بهذا الاسم تقع في الجانب الآخر من الطَّريق وهي منطقة جميلة بها مبانٍ جميلة وتقع بها معظم سفارات الدّول، وإنْ لم تكن جميلة بقدر المكان الذي نعيش فيه ولكنَّها تمتاز بأنَّنا نستطيع اللعب فيها مع غيرنا من الأطفال ونحن في أمان.

ولكن لما كنت غير ملزم برعاية أخي الأصغر جريج، حيث إنَّه في مستشفى الأنجلو أمريكان لاستئصال اللوز ولأنَّه سيعود في خلال يومين؛ فأبى وعد بأنَّنا لما يخرج جريج سوف نذهب للعب في ملاعب جاردن سيتي.

(هولت هاوس) كان هذا هو الاسم الذي يُطلق على منزلنا وكان المنزل عبارة عن فيلَّا ضخمة تليق بالمستشار المصريّ وهي عبارة عن مبنى كبير، تقع غرف الاستقبال في بهو طويل يمتدّ من أوَّل القصر الذي يطلّ على شارع قصير ناحية المدخل في جاردن سيتي.

إلى آخر القصر الذي ينتهي بفناء واسع يطلّ على النِّيل.

القصر تمَّ بناؤه على الطِّراز التُّركيّ عندما كانت العمارة التُّركيَّة سائدة في مصـر في ذلك الوقت، فكانت الفناءات الواسعة والغرف الرَّاقية ولاسيَّما غرفتنا المفضَّلة غرفة الأطفال.

وكذلك غرفة الموسيقى، وهي ملحقة لمبنى مستطيل بناه مهندس تركيّ وهي لم تكن مبطّنة بعازل صوت فحسب ولكنَّها تحتوي على خشبة مسرح وبها في الخلف صالة علويَّة بدون سلَّم مرئيّ مزوَّدة بشبكة معدنيَّة حيث يمكن للسَّيِّدات الجلوس بها ورؤية المسرح وسماع الموسيقى.

كان هذا الملحق هو المكان المناسب للعبة الاستغمَّاية، ولكن الآن لم يعد الحال كذلك، فجأة بدا مزيد من الضَّوضاء فاندفعت نحو الحديقة، حيث مدام سرِّي، والتي تسكن في الفيلَّا المجاورة التي تفصلها عن فيلّتنا بوَّابة صغيرة، تهرول نحونا ومعها طفلتها سيرين ذات العام الواحد والمربّية.

"ممكن ننتظر لغاية أنْ تنتهي هذه الهوجة؟" هكذا سمعتها تخبر أبويَّ، وأضافتْ "لأنَّ زوجي في قصر عابدين و معه عليّ، فهو يحبّ أن يلعب مع العساكر في غرفة الحرس حتَّى ينتهي أبوه من مقابلة السُّلطان".

كان عليٌّ ابن خمسة أعوام هو الابن الوحيد لمدام سرِّي الفرنسيَّة المولد زوجة سرِّي باشا وهو قبطيٌّ ثريٌّ وصديقٌ مقرَّب للسُّلطان فؤاد، تعوَّد أبي أنْ يطلق عليه "عضو شلّة القصـر" وكنتُ أعلمُ أنَّ أبي ناقش معه مشكلة المصريين الإنجيليين.

"طبعًا... طبعًا" هكذا أجابها أبي حين وصول أمِّي لحديقة القصـر "لكنِّي مضطر أمشي... ولكن أنت ستظلّين معنا للغداء".

كانت سيرين طفلة سرِّي في عربة الأطفال، والمربّية فتحيَّة، وهي من قرية سرِّي باشا في الدِّلتا، تنظر حواليها بخوف، لدرجة أنَّ مدام سرِّي

هدَّأتها وطلبتْ منها أنْ تُراعي سيرين وهي تهمس لأمِّي: "أنا جئتُ هنا لأنَّ الخدم خائفون ولا يريدون أنْ يتورَّطوا لو أنَّ المصريين هاجموا الانجليز، أغبياء" وكانتْ أمِّي تهدِّأ من روعها وتعيد لها: "أنتِ لازم تظلين معنا لغاية الغداء" في الوقت الذي كان أبي يستعد فيه للذّهاب إلى مكتب المفوّض السَّامي وكانت مدام سرِّي وأمِّي ذهبتا خلفه لمكتبه وأمِّي تسأله بطريقتها المعتادة: "إنَّهم دائمًا يحبُّون أنْ يعملوا إزعاجًا، ولكن لماذا هذه المرَّة؟".

كان أبي يحبّ أنْ يسهب في شرح الأمور وكان عنده صبر لمثل هذه الأشياء وخصوصًا مع أمِّي فبدأ شرحه: "زغلول زعيم الحزب الوطنيّ في مصر وأنا أحبّ سلوكه المضبوط، لكن هو متحمِّس جدًّا، وكلّ هذه الأشياء التَّافهة حصلت بعد الحرب لما الرَّئيس ولسن عمل إعلان حقّ تقرير المصير المكوَّن من ١٤ بندًا، وزغلول قال إنَّ هذا يطبق على مصر مثلها مثل أيّ بلد آخر، من ناحية المبدأ أنا معه، لكن لما تحين الفرصة، لكن هيئة مكتب وزارة الخارجيَّة قبضوا عليه ونفوه لمالطا، وممكن أنْ يؤدِّي هذا لمشاكل".

وكان أبي على حقّ فالطَّلبة بدأوا يتدفَّقون للشَّوارع ويدمِّرون كلَّ شيءٍ حتَّى إنَّهم أصابوا المدينة بالشَّلل التَّام، ثمانية رجال من الجنود البريطانيين قد قُتِلوا.

بعدما غادر أبي المنزل أخذتْ أمِّي مدام سرِّي لتناول القهوة في غرفة الجلوس وطلبتْ منِّي أنْ أعتني بسيرين فقلت: "فتحيَّة معها" فأجابتني مدام سرِّي: "هي خائفة أكثر منك... أنتَ يا مارك حامي سيرين" وابتسمتْ في وجهي، بينما حذَّرتني أمِّي من العبث بالحديقة فهي ترتبط بها

بعاطفة جيَّاشة، فهي التي حوَّلت أكثر من ثلاثة فدادين من تراب إلى حديقة تزدهر بالأزهار فعلى مدى اثنتي عشرة سنة قضتها أسرة "هولت" في القاهرة أقامت خلالها أمِّي طلمبة لضخِّ الماء من النِّيل حتَّى أصبح لدينا حديقة مليئة بالزّهور النَّادرة والنَّباتات المتسلّقة التي تكسو الجدران، لقد أخبرتني أمِّي يومًا بطريقتها الخاصَّة بأنَّ هذه الحديقة تعتبر من المقدّسات بالنِّسبة لها وأنَّ أسعد أيَّامها يوم أنْ يأتي الجنايني بباقة من الزُّهور ويضعها فوق التَّرابيزة الرُّخام لكي تنظِّمها بنفسها.

وبعد أنْ طلبتْ منِّي العناية بالحديقة قالت لي: "خذ سيرين والعبا معًا عند شجرة الكاتدرائيَّة... بعيدًا عن الشَّمس".

وعلى أيّ حال كنتُ سأذهب إلى الشَّجرة؛ لأنَّها هي أفضل مكان لنا للعب بعد غرفة الموسيقى؛ فهي شجرة ضخمة تقع في آخر الجنينة قرب النِّيل لا أحد يعلم عمرها، ولكنَّها قديمة جدًّا فسيقانها ملتفَّة وكأنَّها رُءُوس الشَّياطين، فالفروع تدلَّتْ على مدى الزَّمن حتَّى وصلت للأرض وكأنَّها تحوَّلت إلى جذور وأصبحت أعمدة من السِّيقان تتخلّلها مظلَّات من ورق الشَّجر الكثيف، كنَّا أنا وأخي جريج نلعب بين أعمدتها وكأنَّها كنيسة كبيرة الأعمدة، فأطلق عليها شجرة الكاتدرائيَّة.

أحيانًا تتحوَّل تخيّلاتي الجميلة عن شجرة الكاتدرائيَّة إلى وخزات من الخوف وتصبح الشَّجرة كسجن وأغصانها هي قضبان أقبع خلفها لتعزلني عن العالم وكأنَّني أرسف في قيودي كهؤلاء المجرمين الذين في السُّجون.

على أَيَّة حال أشرت لفتحيَّة لتحضر سيرين بعربتها عند الشَّجرة ذلك المخبأ بين جذورها السَّميكة والكثيفة، رغم أنَّ سيرين لم تزلْ طفلة إلَّا أنَّها جميلة وإنْ كان أيضًا من الغباء أنْ أكون مساعدًا لفتحيَّة.

عندما زادت الصَّيحات وحركات الشَّغب في منطقة جاردن سيتي سحبت سيرين تجاه الشَّجرة بينما الصَّرخات تعلو بشعارات منها "تسقط بريطانيا" "مصر للمصريين" و"الموت للانجليز"، فأصابني الفزع ولم أستطع ابتلاع ريقي، وفجاة آلمتني عضلات حنجرتي وشعرتُ بتيبُّس ذراعي لدرجة أنِّي لم أستطع أنْ أفكَّ أصابعي من يد عربة الأطفال التي بها سيرين، ولمحتُ الذُّعر في عيني فتحيَّة التي تركتنا واندفعت مسرعة نحو البوَّابة التي تفصل بيننا وبين فيلَّا سرِّي باشا لتختفي هناك.

أصبحتُ وحيدًا مهدّدًا من هؤلاء المتجمهرين، حيثُ أمِّي بداخل المنزل وأنا وسيرين لا يرانا أحد، وارتفعت الصَّيحات بصرخة "خائنة" متَّجهة نحو فتحيَّة وهي تجري دون أنْ يعرف أحدٌ منهم من أين جاءتْ، كانتْ سيرين في ذلك الوقت نائمة في عربتها ممسكة بزجاجتها الصَّغيرة بيديها النَّاعمتين.

لكم أتذكَّر رغم سنِّي الصَّغيرة في ذلك الوقت مدى التَّناقض في حياة القاهرة اليوميَّة، فمرَّة كنتُ أسير مع أمِّي ورأيتُ رجلًا سفَّاحًا وفي يده سكِّينة لامعة وفجأة طعن بها جنديًّا انجليزيًّا ببدلته الكاكي بينما كان يفاصل مع تاجر على بوَّابة حارة تتفرع من الشَّارع الكبير وقبل أنْ أصرخ أو أتشبَّث بثوب أمِّي كان الشَّارع فارغًا تمامًا وهرعتْ أمِّي وسحبتني خلفها بسرعة.

هكذا كانت القاهرة، فقراء وأغنياء، شمس صافية وظلال قلقة، كلٌّ بجانب الآخر مثلها مثل الأرصفة النَّظيفة أمام المحلَّات وأكوام القمامة العفنة.

ومع ذلك كان الأمر مختلفًا بالنِّسبة لهؤلاء الغوغائيين الذين اقتحموا حديقة أمِّي وحطَّموها.

امتلأتُ رعبًا وبالكاد استطعتُ أنْ أمسكَ بعربة سيرين خائفًا أن تستيقظ فجأة وتصرخ فتكشف مكاننا الذي نختبأ فيه، وإنْ كان المتجمهرون مشغولين بتحطيم الحديقة واقتلاع الزَّرع والأزهار فلم يلمحنا أحد إلَّا إنَّني كنتُ أتساءل أين أمِّي ومدام سرِّي.

لم يكن هناك شيءٌ في مقدوري، وأدركتُ تمامًا، عندما رأيت المتجمهرين يشهرون المدى والسَّكاكين، بأنَّنا مقتولون لا محالة، غير أنَّ هذه الصَّيحات وأعمال الشَّغب جلبتْ طاقم الخدم من الفيلَّا ومن كلِّ ناحية ليقفوا مذهولين أمام ما يرون، واستطعتُ أنْ ألمح من بين الجذور الكثيفة النَّظرات الحائرة في عيونهم تتحوَّل إلى خوف وذعر وانسحبوا جميعًا لأماكن مختلفة ليهربوا من المشاغبين في الوقت الذي ظهرتْ فيه أمِّي ومدام سرِّي من النَّافذة الفرنسيَّة وهما تتمتمان بأصوات عالية غير متراجعتين من النَّافذة حتَّى قذف أحد المشاغبين بحجر في النَّافذة وتبعه الباقون بأيّ شيءٍ يصادفونه يمكن قذفه تجاه النَّافذة.

أدركتُ أنَّ المشاغبين لا يريدون إيذاء أمِّي أو مدام سرِّي بقدر ما يريدون إخافتهما لأنَّهم كانوا يرمون باستهزاء الحشائش وجذور النَّباتات تجاه النَّافذة فحسب حتَّى تراجعتْ أخيرًا أمِّي ومدام سرِّي لداخل المنزل، فتراجع المشاغبون في الوقت الذي استيقظتْ فيه سيرين فجأة وبدأتْ في

الصِّياح، فوقع قلبي ناسيًا أنَّه لا أحد يسمعها بسبب الضَّوضاء والشَّغب، وكما رأيتُ المربّيات يفعلنَ حملتُ سيرين على كتفي، مرَّ في خاطري أنَّ أمِّي تركتنا، غير أنِّي من خلال الأغصان لمحتها تقف في شبّاك علويّ ولأنَّها تعلم أين نحن أخذتْ في إرسال إشارات لي لا يعرف معناها هؤلاء المشاغبون الذين ما زالوا في الحديقة في حالة ما رأوها، أولى هذه الإشارات قُبْلة في الهواء، وثانيها علامة النَّصر، والثَّالثة والتي أفهمها بوضوح وضعتْ إحدى يديها على فمها والأخرى على أذنها وهي تعني أنَّها اتصلتْ بالشّرطة.

في هذه اللحظة سمعتُ ضوضاء شديدة لرجل يتسلَّل من خلف الحديقة فارتعشتُ رغم حرارة الجوِّ شاعرًا ببرودة الخوف، لم أتبيَّن وجه الرَّجل حيث إنَّه يتحرَّك بين أشجار الليمون بقرب النَّهر فاستعددتُ لاستقبال ما سيرميني به من أسلحة، شيئًا فشيئًا برزَ الوجه أمامي وإنْ كنتُ لم أره بوضوح بسبب الدُّموع التي ملأت عينيّ ولكنْ تبيَّنتُ وجهًا شديد السّمرة مدوَّرًا كالقمر فتحوَّلت دموعي لصرخة ارتياح.

زولا! ووجدتني ألقي بذراعيَّ في حضنه لشعوري بالاطمئنان، فزولا كبير الخدم عندنا وهو أحسن أصدقائي، هذا الوجه النُّوبيّ الذي يشعّ طيبة، كان اسمه النُّوبيّ صعبًا حين استخدمه أبي منذ اثني عشر عامًا، فغيَّرَ اسمه ولقبه بزولا على اسم كاتبه المفضَّل.

فهمس لي: "انتظر هنا لحظة يا سيِّدي مارك إلى أنْ أقول للسِّتِّ الكبيرة أنِّي سآخذكَ ونهرب بسرعة قبل أنْ يقتلونا هنا"، فقلتُ له: "لا لن أتركَ ماما" لم أقلْ هذه العبارة من منطلق الشَّجاعة ولكنْ حبًّا في البقاء بجنبها من شدَّة الخوف، فردَّ عليّ: "ستِّي بخير... وهي معها بندقيَّة"

فرددتُ مستغربًا: "ماما معها بندقيَّة؟"، فقال: "هيَّا بسـرعة... ستِّي أمرتني أنْ آخذكَ للفلُّوكة لكي نهرب عن طريق النَّهر".

كانت الفلُّوكة الخاصَّة بنا أكبر قليلًا من قارب التَّجديف، ولكنْ في القاهرة كلّ قارب يسمَّى فلّوكة، كنَّا نحتفظ بالفلُّوكة مربوطة في النِّيل تحت الحديقة.

قلتُ: "لماذا هم يريدون أنْ يقتلونا... هل هم سكارى؟".

فأجابني زولا: "الحشيش... ملأهم بالشَّرِّ" وهو يستحثّني: "هيَّا يا سيِّدي لازم نهرب، هذه أوامر السِّت هانم".

لم أتردَّد في طاعته لما ينتابني من خوف ومعرفتي بخطورة المصـريين لما يحشّشون ولا سيَّما الذين هم ضدّ الانجليز.

وبسرعة اتَّجهنا للنَّهر حتَّى توقَّفتُ عند قمَّة الدَّرابزين الحديدي حيث شاهدتُ من بعد عيدان قصب السُّكَّر ومزارع الخضروات التي تمتدّ حتَّى هرم خوفو الذي يبعد بحوالي ١٢ ميلًا، ولما كانت سيرين على كتفي لم أدرِ ماذا أفعل أو كيف أنزل درجات السّلّم الحديديّ حتَّى صفحة النَّهر، وقطع زولا حيرتي قائلًا: "هات سيرين أحملها... السِّت هانم أعطتني فلوسًا وطلبت منِّي أنْ أخلِّي مع كلّ واحد فينا نصفًا في حالة ما نتوه من بعض"... وبعد أنْ أعطاني ورقة نقديَّة بمبلغ ١٠٠ قرش طلب منِّي أنْ أعطيه سيرين لكي أتمكَّن من النّزول أوَّلًا في الفلّوكة وكان زولا خائفًا جدًّا وهو يقول: "انزل أنتَ ولما تصل في الفلّوكة سأناولك البابي"، فقلتُ: "إيَّاك أنْ تتركنا يا زولا"، فقال: "لا تخفْ يا سيّدي".

وبمجرَّد أنْ وصلتُ لأرضيَّة الفلّوكة وبدأتُ أعدل حبال الفلّوكة وزولا واقف أعلى الدّرابزين بجلبابه الملموم في وسطه كاشفًا عن ساقيه،

ولأوَّل مرَّة أرى ساق زولا، أمسكَ زولا الدّرابزين بيد وأعطاني سيرين بالأخرى وفي أثناء ذلك لا أدرى كيف انزلق الحبل وأصبحت الفلّوكة في المياه وأنا أصرخ من الخوف طالبًا من زولا المساعدة ولكن دون جدوى، فها أنا وطفلة وحيدين في فلّوكة وسط النِّيل، ومرَّ في خيالي أنَّ الفلّوكة انكفأت وذهبتْ سيرين لعمق المياه غارقة، وحاولتُ العودة بالفلّوكة لزولا ولكنْ لا فائدة وكأنَّ الطِّفلة استشعرت الخطر فعلا صوتها بالصُّراخ أكثر فأكثر.

ورأيتُ زولا من بعيد وهو يخبط في رأسه لما حدث، وبدأت سيرين في أنينها وهي تقلِّب عينيها في عين الشَّمس السَّاخنة وغير مبالٍ بضربة الشَّمس خلعتُ قميصي وفردته فوق سيرين لأحمي وجهها من أشعة الشَّمس الحارقة.

وكلَّما لاح لي مركب وجدتني أقف مستصرخًا بأعلى صوتي ولكن لا حياة لمن تنادي، ولم أفلح في التَّعامل مع الشِّراع نظرًا لثقله الكبير وإن استطعت أنْ أتعامل مع الدَّفَّة موقنًا أنَّني لو تركت الفلّوكة فسوف أصل إمَّا للجزيرة أو الرّوضة، حيثُ إنَّ الرّوضة لا يفصلها عن جاردن سيتي إلَّا قناة صغيرة جدًّا فإذا وصلت لها فيمكن لأيّ أحد أن يقود الفلّوكة بمبلغ أقلّ بكثير من الـ ١٠٠ قرش التي تركها لي زولا، وبالفعل وصلت الفلّوكة لقناة بين الرّوضة ومصر القديمة، ذلك الجزء من المدينة الذي لم نزره أبدًا والذي كان يصفه أبي بأنَّه "مرتع الفقر" ما أفظعها من منطقة وكأنَّ منطقتنا المطلَّة على النَّهر بقصورها الجميلة تلاشت لتفسح المكان لتلك المنطقة التي تملأها القمامة وتسبح في المياه الضَّحلة حتَّى إنَّ البيوت تغيَّرَ شكلها لتتناسب مع هذا الفقر المعشّش فيها، فهي بيوت على وشك

الانهيار بواجهات تتساقط ألوانها، بها نوافذ ضيّقة يطلّ منها النَّاس من طرف خفيّ.

وفجأة وبلا أيّ إنذار اصطدمت الفلّوكة بالشَّطِّ قرب جذع شجرة ربطت فيه الفلّوكة.

خرجتُ من الفلّوكة وسيرين بين ذراعيَّ وعلى بُعْد عشرين مترًا تقريبًا على باب حارة قديمة اقتربتُ من رجلين قادمين فسألتهما بلغة عربيَّة إن كان يمكنهما أنْ يساعداني، فشتمني أحدهما وبصق الثَّاني في الأرض وهو يشير ناحية الفلّوكة حيث جريا نحوها، فجريت خلفهما: "هذه فلّوكة بابا... إيَّاكما أنْ يلمسها أحد" فنهرني أحدهما قائلًا: "سنأخذ كلَّ مراكب الانجليز " وقفزا في الفلّوكة.

لم تسعفني دموع الغضب وهذه الطفلة معي وليس لديَّ أدنى فكرة عن المكان الذي نحن فيه، ففي مصر القديمة على ما تقول أمِّي تجد الحارات مليئة بالشَّحَّاذين والأتربة والمحلَّات الرَّخيصة والبازارات، وفعلًا شممتُ من حافَّة النَّهر روائح مميّزة للأسماك والبصل والفلفل والكباب والبهارات.

اشتدَّ بي العطش وخطر في بالي أنَّ سيرين أيضًا تبكي من العطش فاتَّجهت نحو ميدان واسع ممسكًا بورقة النُّقود، في قلب الميدان نصب لمجموعة تماثيل لرجال على أحصنة ضخمة، وكان في الجهة الأخرى من وجهتي رواق بشرفات مصفوفة، ذكرني المبنى، رغم أنِّي لم أعرف مصر القديمة من قبل، بالمستشفى الأنجلو الأمريكيّ الذي قضيتُ فيه يومين حين استأصلتُ اللوز.

كان هناك بعض الرِّجال والنِّساء يجلسون وهم يقزقزون اللبَّ والسُّوداني، سمعتُ صوت الصَّاجات التي يستعملها بائع العرقسوس للإعلان عن مشروبه فجريت نحوه:"ممكن نشرب حاجة وأيضًا للطّفلة التي معي؟" كان بائع المشروبات السَّاقعة يحمل كلَّ شيءٍ على ظهره باستعمال حزام من الجلد وإبريق ببزبوز طويل مملوء بالمشروب السَّاقع معلَّق على كتفيه، وكان يحتفظ ببرودة المشروب بقطعة كبيرة من الثَّلج، وفي الجانب الآخر من الحزام كان يعلِّق علبة كبيرة تحتوي على عديد من الكاسات التي يبيع فيها المشروب، فنظرَ في مظهري غير المهندم نظرة شكٍّ متسائلًا عمَّن سيدفع ثمن المشروب.

فأظهرتُ له ورقة النّقود: "معكَ فكَّة؟"، فازداد شكُّه: "من أين جئتَ بهذه؟"... "سرقتها؟"، فأجبته وعينيَّ مليئة بالدّموع "ماما أعطتها لي" فقال: "وهو كذلك!"... قالها ومازال الشَّكّ يراوده... ثمَّ أعطاني المشروب... لأنَّه في اعتقادي محتاج لأيّ واحد يشتري منه... شربت ثلاثة كاسات من المشروب وتذكَّرت أخي جريج لما كان صغيرًا مدركًا أنَّ كثيرًا من الحاجة السَّاقعة غير مفيد لسيرين...

على أيّ حالة هي لم تستطع الشّرب من الكاس فساعدني البائع بكوب من الورق المقوَّى وأخذتُ أضع إصبعي في المشروب وأجعلها تمصّ إصبعي، فأصبحتْ تتضاحك من الارتياح وتوقفتْ عن البكاء في الحال، ثمَّ أخذتُ أستأنف البحث عن طريق، فدخلتُ في حواري ضيِّقة مكتظَّة بالمحلَّات الصَّغيرة وبائعي الحلويَّات والعسليَّة والعرقسوس، وفي شارع جانبيّ غير بعيد رأيتُ محلًّا به عشرات من الطّيور في أقفاصها وهي تغرِّد

بسعادة متذكّرًا سؤالي لأبي: "هل الطّيور تغنّي بالحبّ؟" والآن أدركت أنَّ الطّيور تغنّي لنفسها، حيثُ كلّ قفص كان مبطّنًا بالمرايا.

كان الشَّارع مفعمًا بالحياة ومكتظًّا بالضَّوضاء والوجوه الغريبة والملابس المتنوِّعة والعمم البيضاء والطَّرابيش الحمراء والأحجبة السَّوداء، وهؤلاء الشّيوخ المتغطرسون الذين تبدو وجوههم كالهنود الحمر، الكلُّ يتدافع للسَّير إلى حيثُ يريد، ولم يكن الزِّحام الشَّديد بسبب ضيق الشَّوارع فحسب ولكنْ أيضًا بكثرة العربات الصَّغيرة المحمّلة بثمار المانجو، تلك الفاكهة الذَّهبيَّة التي يحفظها البائعون في ورق نظيف حماية من العطب.

لم يكن من الحكمة أنْ أتنفَّس بكلمة بريطانيّ في ذلك الموقف فأنا أجيد جيّدًا اللغة العربيَّة وعلى ملابسي بعض الاتِّساخ وفي وجهي بعض السّمرة فلن يكتشف أحدٌ أنِّي غير مصريّ.

استمرّيتُ في المشي متثاقلًا لعلَّني أصل لمنزلنا، وفي طريقي صادفتُ بائع بطّيخ فاشتريت ثلاث شرائح.

وكأيّ شارع في القاهرة فإنَّه يؤدِّي إلى حارات متواضعة تحجب مبانيها العالية المجرَّدة من الطّلاء أشعة الشَّمس.

عشرات من الأطفال في ملابسهم المتّسخة والمهلهلة كانوا يندفعون نحو أكوام القمامة، والذّباب ملتصق حول عيونهم وأفواههم كحبّات الزّبيب الأسود، في كلِّ مكان توجد هناك أبدان غير نظيفة، وفئران ترتع في بيوت آيلة للسّقوط تخرج مندفعة تجاه أكوام الزِّبالة حيث لمحت بجوارها صبيًّا في نفس عمري، بلا ساقين يجلس فوق لوح خشبيٍّ مثبَّت على عجلات لعربة أطفال، كان يلقي نظرة صامتة نحوي وكأنَّه يعتقد أنّه

لايصحّ أنْ يشحذ منِّي، ولكنِّي شعرتُ بدموعي تسيل بينما تمتدّ يدي له بعشرة ملّيمات – واحد قرش – أشرقَ وجهه بالفرحة وهو يدفع اللوح الخشبيَّ بكلتا يديه.

اندفع ثلاثة صبية من مقلب القمامة نحو الصّبي المعوَّق وخطفوا منه العملة فلم يستطع فعل شيءٍ، ولم أستطع فعل شيءٍ غير أنِّي أعطيتُ له شريحة من البطّيخ وانتظرتُ بجواره حتَّى انتهى من التهامها وانتهتْ سيرين من مصمصة باقي البطّيخة.

بعد عدّة لفَّات في الحارات وجدنا أنفسنا في الميدان مرَّة ثانية وصورة الصَّبيّ القعيد لم تفارق مخيّلتي، في نهاية الميدان تبرز مئذنة مسجد استطعتُ أنْ أسمع نداء المؤذِّن للصَّلاة، فزادت النَّغمة الحزينة تأثير صورة الصَّبيّ القعيد في ذهني، فوجدتني أجلس فجأة تاركًا دموعي تسيل: "مالكَ يا بُني" قالها رجل عجوز جالس على الأرض من خلال ابتسامته الحنونة: "تائه" وكأنَّ دموعي توقَّفت لقول ذلك مستمرًّا: "ممكن تدلّني على طريق جاردن سيتي؟".

"أنتَ تتكلَّم عربي حلو"، مبتسمًا مرَّة ثانية: "أنتَ انجليزي... أليسَ كذلك؟" فقلت: "بابا مستر جيفري... المستشار المصريّ"، فقال لي: "لازم تتخبى" قالها بإلحاح: "اسمع أنا سامع طلقات رصاص... هذه ثورة"، فقلت: "ثورة؟"... "أنا اعتقدتُ أنَّها هوجة شغب" وبدأ الهلع يصيبني مرَّة ثانية، فقال لي: "أين أهلك... أم أنَّهم قُتِلوا؟".

فقلت: "لا... ماما معها بندقيَّة"، وكأنَّ هذا يضبط الأمور، فقال لي: "إذا اذهب لها"... "بسرعة... ربّنا معك".

فرددت "ربّنا معك أيضًا" ثمَّ انهمرتْ دموعي: "لكنِّي لا أعرف السِّكَّة"، فرد: "لازم تكون عارف عنوانكم".

لم أجرؤ لأصف العنوان للرَّجل خوفًا من أنْ يتتبَّعني بعض المشاغبين أو يذهبوا لأمِّي ويقتلونها.

ولكم كنتُ قلقًا على زولا صديقي الودود فأنا أعلم أنَّ أيَّ مشكلة تحدث في أي أسرة يتحمَّل خطأها النّوبيُّون الذين يعملون بها، لكم وددتُ أنْ أعود وأخبر أمِّي أنَّ زولا بذلَ كلَّ ما في وسعه وأنَّه كان شجاعًا معنا للغاية، ولكن ساورني الشَّكّ في أنَّ أمِّي لن تصدِّقني، فكم سمعت عن إعطاء خمسين جلدة لأيّ خادم يتأخّر ولو خمس دقائق عن مهمّته.

وضعتُ سيرين بعد أنْ نامتْ على النِّجيلة خلف تمثال لرجل فوق حصان ضخم، واستعملتُ قميصي كمخدَّة لها، وما كدتُ أنْ أطلبَ المساعدة من الرَّجل العجوز حتَّى جاءت سيَّارة كبيرة محمّلة بالجنود الانجليز حول الميدان، فصرختُ لينقذوني غير أنَّهم كانوا متَّجهين لمكان آخر لأنَّ أسلحتهم كانت مُعدَّة.

بدأتُ في الصّراخ حين انطلقتْ صفَّارة وكأنَّها إشارة فاندفع جمع من الرِّجال والنِّساء من خلف الميدان وهم يهلِّلون ويشهرون أسلحة مختلفة من هرَّاوات وسكاكين وفئوس وغيرها، وانطلقوا مندفعين نحو سيَّارة الانجليز، فانحنيت مختبئًا خلف التِّمثال الذي تبلغ حافرة حصانه حجم رأس سيرين، أحاط الجمع بالسَّيَّارة وأخرجوا السَّائق من النَّافذة في الوقت الذي أطلق فيه الجنود رصاصهم فوق الرُّءُوس لتفريقهم وتحذيرهم، وشرع مئات من الرِّجال والنِّساء في هزِّ السَّيَّارة فخرج منها

بعض الجنود حيث هاجمهم النَّاس بلا رحمة بضربهم وركلهم في رُءُوسهم حتَّى أنَّ الحافلة انقلبت بمَن فيها.

في ذلك الوقت كنتُ صغيرًا لم أدرك مدى السُّخرية في ذلك، فالأذان الذي ينادي للسَّلام والفلَاح يغرق في هتافات المؤمنين للقتال.

من الأشياء التي رأيتها ذلك الرَّجل الذي شقَّ رأس جنديّ انجليزيّ ببلطة وأخذ في تقطيع ذراعيه وساقيه، بينما الآخرون يقطعون بعض زملائه بالسَّكاكين والبعض ملقى على الأرض بين فاقد للوعي وميّت لم أستطع التَّفريق بينهما.

الجنود الأكثر حظًّا هم الذين استطاعوا أنْ يعودوا للحافلة، وعدد قليل استطاع أن يستعيد سلاحه فانطلق في الميدان يطلق رصاصه على مَن يصادفه، تملّكني الخوف فلم أستطع الحراك.

ما زال الجنديّ الذي تمَّ تقطيعه ملقيًّا على أرض الميدان وكذلك غيره من الجنود الذين تقطَّعوا إربًا، وإنْ كانت سيرين صغيرة على فهم هذا المنظر إلَّا أنَّ الأطفال في جلابيبهم المتَّسخة أخذوا يسحبون الجثث ويقطعونها لقطع أصغر ويرفعونها صائحين: "لحم انجليزيّ للبيع!" وقذفوا بعض الأعضاء عند قدمي، فبدأتْ سيرين الحبوَ نحوها لولا أنِّي سحبتها بعيدًا فوقعت على حجر مسنون مما تسبَّب فى جرحها في الوجه بجانب الفم فمسحت الدّم بمنديلي.

شبّت النَّار في الحافلة وملأت رائحة الحريق المكان وارتفعت حرارة الجوّ من صهد اللهب، والتفّ بعض الشَّباب حول الحافلة يرقصون ويهلّلون من الفرحة والابتهاج، فجأة سمعت صوت بندقيَّة، فأحد الرِّجال قد رفع ذراعيه كحركة راقصة فاقترب من الحافلة حيث اندلعت النَّار في

ملابسه، وبعدها تواصلت طلقات الرَّصاص في كلِّ ناحية في الميدان حتَّى أصبح المشهد في الميدان أكثر من رهيب.

رغم أنَّ بعض الجثث من المصريين ملقاة على الأرض ملطَّخة بالمياه القذرة المنبثقة من البالوعات، بينما البعض الآخر مازال يطلق الرّصاص عشوائيًّا، في خضمِّ هذا زحفتْ طفلةٌ صغيرةٌ مبتورة السَّاق نحو الميدان وهي تصرخ فاندفعت امرأة نحوها وجذبتها لها لتنقذها من الطَّلقات العشوائيَّة، إلَّا أنَّ وابل الرّصاص الذي كان ينطلق من المصريين أصاب المرأة والطِّفلة معًا.

بالكاد أتذكَّر الرَّائحة النّتنة التي انبعثتْ من الموت والموتى، أتذكَّر محاولاتي للصّراخ أو أنْ أجري لولا سيرين التي تمثّل عبئًا عليَّ لا أستطيع حمله، شعرتُ بالإعياء، ربَّما من حرارة الجوّ، فجلستُ حزينًا، حارسًا لطفلة وسط موجة من الرِّجال المجانين، خائفًا أنْ أسألَ المساعدة، مقتنعًا بأنَّ المصريين المشاغبين إذا اكتشفوا حقيقتي سوف يمزِّقونني وسيرين، لربَّما الذي أرعبني أكثر هو تخيُّلي وهم يقطّعون سيرين إربًا، فوجدتني أمسح خيطًا من الدَّم على وجهها.

في هذه اللحظات طلقات الرّصاص استبدلتْ بشيءٍ أكثر وحشيَّة، لقد اختلست النَّظر من خلف التِّمثال لأرى حافلة أخرى تمطر النِّيران على كلِّ مَن تواجهه، فمعرفتي بالجيش الانجليزيّ تكفيني للتَّعرُّف على تلك الدَّبَّابة الصَّغيرة ذات الماسورة الطَّويلة لإطلاق النِّيران وهي تطارد المشاغبين لداخل الأروقة وكأنَّها لم تأتِ لإعادة النِّظام بل للانتقام فتحوَّلت صرخات الدِّفاع إلى صرخات موت.

شعرت في الحال أنَّ الوقت أزف لطلب النَّجدة فالتقطت سيرين وأعطيتها باقي شريحة البطّيخ لتمصّ فيها، فوقفتُ مرتعش الرُّكبتين وأنا ألوِّح للجنود الانجليز صارخًا: "أنا انجليزي... أنا انجليزي"، فجرى نحوي جنديّ انجليزيّ: "ما الذى جابك هنا؟"..."مَن أنتَ؟"... "أين أهلك؟".

لم أستطع الرَّدّ في البداية من شدّة الرُّعب ولكن بعد لحظة استطعت أنْ أعثر على لساني: "أنا لا أعرف أين نحن... كلّ ما أعرفه أنِّي هربت في مركب" فهدَّأ الضَّابط من روعي وأعطى الأوامر لجنديٍّ من الجنود أخذ منِّي سيرين، هنا رأى الضَّابط قطعة من اللحم التي ألقاها بعض الصِّبية علينا فركلها نحو النِّجيلة دون أنْ يعرف ماهيّتها فصحتُ في وجهه: "إيَّاك أن تركلها... هذه قطعة من عسكري انجليزي"، فأمر بوضعها في الحافلة.

وضعنا الجنديّ في الحافلة ليذهب بنا لمنزلنا... وكأنَّني حيوان رمى ما عليه من حمل وجدتني أسقط نائمًا تمامًا.

عندما وصلنا إلى فيلَّا هولت استقبلت كما استقبال الفاتحين، بلا شكّ أمِّي كانت غارقة في دموعها من شدّة ما كانت تتوقّع من شرور قد تحدث لي، أوَّل شيءٍ فعلته هو صياحي بصوت عالٍ أنَّ زولا فعل أقصى ما وسعه لإنقاذنا وأنَّها كانت غلطتي التي أبعدتني عن الشَّطِّ.

"طبعًا حبيبي" قالتها أمِّي بعاطفة جيَّاشة، أجمل ما في الموقف أنَّ اللوم لم يكن بيننا، أمَّا مدام سرِّي فقد كانت غارقة في دموعها وهي تحتضنني: "أنا فخورة بك يا مارك... أنت فعلًا الحامي"، ولما تململتْ سيرين وبدأتْ تئنّ من جرح مازال على خدّيها، قامتْ مدام سرِّي بمسحه وهي

تهمس في أذني: "هيا يا مارك... هي تثق فيك، حاول تهدِّئها وتخفِّف عنها الألم ببوسة"، وببعض من الخجل وجدتني أفعل ما طلبت منِّي مدركًا لأي مدى تستمرّ القبلة أو متى هذا الجرح الصّغير يختفي تاركًا ندبة صغيرة.

ها هي نهاية أحداث مارس كما يُسمِّيها أبي، مئات من المصـريين قتلوا وعشرات من البريطانيين ماتوا وبعضهم اغتيلوا بشراسة، وبقدر ما كانت الخسارة في الأرواح كانت الخسارة في الاقتصاد بسبب الأحداث.

"أنا أحبّ المصريين جدًّا... لكن لما يفكّرون في الاستقلال يصيرون شيئًا صعبًا يصيرون أعداء نفسهم... الاستقلال يحتاج وقتًا وصبرًا" هكذا قال أبي وهو غارق تقريبًا في دموعه مسترسلًا: "لا يمكن أنْ تستعجل الأمور، فها هو العنف يسبِّب دمار الاقتصاد، ليس قبل ستّة شهور لغاية ما السِّكَّة الحديد تسير كطبيعتها مرَّة ثانية، كثيرٌ من عربات السِّكَّة الحديد تحطّمت وهذا معناه ضياع محصول البصل، والقطن أيضًا بسبب الطّلمبات التي تعمل بالسُّولار ولا يوجد سولار...".

فردَّ سرِّي باشا الذي كان يتحدَّث مع والدي: "لو أنَّ الانجليز لم ينفوا سعد زغلول..."، فقال أبي: "متَّفق معك"، مضيفًا "لكنَّ ميل المصريين للعنف... ورغبتهم في قتل الدَّجاجة التي تبيض لهم الذَّهب... هذا موضوع آخر".

بعيدًا عن كراهية الانجليز كان هناك عامل آخر، فقد حدثتْ مجاعة كبيرة في عقب الحرب العالميَّة، فمحصول القطن عاد لمصدِّريه، وتمَّ إهمال المحاصيل الغذائيَّة وذلك بسبب ملَّاك الأراضي الجشعين الذين تجاهلوا

المحاصيل الرَّئيسيَّة طمعًا في الرِّبح السَّريع وراء القطن مما تسبَّب في مجاعة الفلَّاحين.

بحلول ١٩١٩ كان هناك أكثر من خمسة ملايين على حافَّة الهاوية من المجاعة، ففي القاهرة نفسها كان أكثر من مليون تقريبًا بلا طعام.

رغم عدم إدراكي للأمور في ذلك الوقت إلَّا أنَّها كانت لحظة تغيير تاريخيَّة في مصر، كانفجار سدٍّ عظيم، ولازلتُ أتذكَّر مدى صعوبة الأيَّام التي مررتُ بها وكيف أفرزت الأحداث التي قرأتُ عنها فيما بعد، ولا سيَّما تلك التي أسفرتْ عن السّخط العام الذي خرجت فيه الجموع من الرِّجال والنِّساء والأطفال للشَّوارع والميادين والحدائق العامَّة غير مبالين بوابل الرّصاص الذي يواجههم.

كان ذلك من زمن طويل، من ذلك اليوم شديد الحرارة حين ابتعدنا أنا وسيرين عن أهلنا وتهنا في تلك الجموع الثَّائرة، قد يكون هذا اليوم لا شيء بالنِّسبة لسيرين، أمَّا بالنِّسبة لي، ابن العاشرة، فالأمر مختلفٌ، لقد كنتُ صغيرًا لدرجة أنِّي لا أعي ما حدث بالفعل وكنتُ كبيرًا بالقدر الكافي لئلَّا أنسى ذلك اليوم.

٢

في اعتقادي أنَّ العلاقة بين سرِّي باشا ومستر هولت على مدى الخمسة عشر عامًا التَّالية وبالتَّالي بين أسرتينا ترجع قوّتها إلى عدّة عوامل، منها أنَّ سرِّي باشا والذي لم يدعه أحد باسمه الأوَّل (فيكتور) قضى سنوات تعليمه في (هارو) و(أكسفورد) بينما أبي أصرَّ على أن نلتحق أنا وأخي جريج بالمدرسة الانجليزيَّة بمصر الجديدة، أحد أحياء القاهرة، حيث يدرس فيها طلبة من كلِّ الجنسيَّات تقريبًا، فهو يقول دائمًا: "إنَّها أحسن طريق للعالميَّة!"، ثمَّ أتممتُ تعليمي بعد ذلك في أكسفورد حيث تخرَّجت في كلّيَّة الحقوق لأصبح محاميًا، تلك المهنة التي أحببتها.

لقد تأسّست العلاقة بين أسرتي سرِّي باشا وأسرتنا على روابط دبلوماسيَّة – حيث إنَّ حكومة كلٍّ من بلديهما كانت تتَّخذ منهما مجلسًا استشاريًّا للأخبار الجارية – ولكنَّ هذه الصَّداقة تعمَّقت بينهما رغم أنَّ كلًّا من سرِّي باشا ومستر هولت كانا مختلفين في صفاتهما، فسرِّي باشا بشعره الأبيض ومظهره الأنيق يبدو كدبلوماسيٍّ بحقٍّ وموضع ثقة للقصر، أمَّا مستر هولت بنشاطه وشعره الرّماديّ غير المشذّب كان يعرف عنه بأنَّه صعب لدرجة وصفه بغريب الأطوار، فأحيانًا كان يجوب شوارع القاهرة بالليل وهو يرتدي جلبابًا مصريًّا، وكثيرًا ما كان يتكلَّم بشغف عن النِّساء رغم أنَّ ذلك لا يتعدَّى الكلام، وما هو إلَّا من عالمه الخياليّ الخاصّ به، وكذلك كان يعرف عنه في الحكومة البريطانيَّة بأنَّه كثير السّكْر، وكان منبت تلك الإشاعة استيقاظه دائمًا السَّاعة ٧ صباحًا على زجاجة شمبانيا، فزولا يحضر له كلَّ صباح في مكتبه الصّينيّ إفطاره المعتاد

وهو عبارة عن زجاجة شمبانيا وفنجان قهوة وبيض مقليّ وبعض شرائح الخبز والمربَّى.

إنَّ المكتب الذي يمارس أبي فيه أعماله مليء بالدِّفء والحميميَّة، فالجدران الحريريَّة الحمراء تظهر روعة اللوحات الصِّينيَّة، وكذلك الأرفف والمناضد التي تحيط الغرفة والأركان المملوءة بكنوز أبي، لقد كان هذا المكتب بمثابة حجر الزَّاوية في القصر كما كان القصر ذاته يلعب دورًا بارزًا في مجال عمل أبي، لقد كان المصريُّون يأتون لزيارة القصر ليشاهدوا الذّوق البريطانيّ، ولا سيَّما عندما كان يصطفّ النُّوبيُّون في جلابيبهم المطرَّزة بحوافٍّ زرقاء داكنة وشرائط رفيعة من الذَّهَب هي عبارة عن زِيِّ القصر وذلك في أيَّام الأحد.

كان زولا مدير الخدم في القصر وهو الوحيد الذي يسمح له بتقديم الشَّامبانيا لوالدي في الصَّباح، لقد خدم العائلة منذ ١٢ عامًا حين أسند له أبي في رحلة للسُّودان عمليَّة تحميل وتخزين البضائع ومنذ ذلك الوقت أصبح زولا الأهمَّ بين الخدم يعيش بيننا يقظًا وسعيدًا، وفوق كلِّ ذلك أمينًا فلكم قاوم مغريات كثيرة من ملَّاك القصور والفيلَّات الذين عرضوا مرتّبات تفوق ما نعطيه نحن لكي يعمل لديهم.

مثل كلّ النُّوبيين تقريبًا كان زولا طويل القامة أسود الوجه ذا ملامح سامية وأصول زنجيَّة، لقد تحوَّل النُّوبيُّون للمسيحيَّة في القرن السَّادس الميلاديّ وإنْ كان معظمهم تحوَّل للإسلام في القرن الرَّابع عشر.

انحدر زولا من صحراء شمال السُّودان حيث الأمطار الشَّحيحة والتي لا تستمرّ إلَّا لدقائق طوال السَّنة، ولقد اشتهر النُّوبيون بعملهم كخدم

وسائقين في الأراضي المصريَّة وكعادة معظم النُّوبيين فإنَّ زولا متزوّج وترك زوجته في بلدهم حيث لا يزورها إلَّا مرَّة كلَّ سنة.

إذا كان أبي غريب الأطوار فإنَّ أمِّي ممكن أن يُقال عنها منفتحة أكثر من اللازم محبّة للحياة ترتدي أفخر الفساتين، لا يفوتها حفلة أو سهرة وكانت دائمًا مطلوبة في هذه الأمسيَّات لما تتمتَّع به من روح المداعبة والمرح، ونادرًا ما كان أبي يصاحبها في هذه الدّعوات؛ لذلك أصبح من المعتاد أنْ يقوم أصحاب السّهرات بتقديم الدَّعوة لأبي وهناك دعوة احتياط لآخر لما كان يُعرَف عن أبي عدم تلبية هذه الدّعوات إلَّا القليل منها والخاصّة بأقرب النَّاس له مثل عائلة سرِّي باشا.

ورغم انفتاحها على المجتمع فإنَّ أمِّي كانت لها شخصيَّة معقَّدة بعض الشَّيء وإنْ كانت تميل للمرح أكثر من النُّفور، فهي دائمة النِّسيان، ولأنَّها طويلة القامة بعكس أبي وأخي جريج، وإنْ كنتُ أطول منها بشيءٍ بسيط، إلَّا أنَّها كسرت القاعدة التي تقول أنَّ الأمَّ دائمًا أقصر من الابن، ولم يكن هذا الطّول يسبّب لها عقدة، وذلك بفضل التَّرزي الذي أخبرها بأنَّ الكشكشة في الفساتين تظهر المرأة أقلَّ طولًا، ومنذُ ذلك الحين وهي ترتدي كلَّ فساتينها بكشكشات من الشّيفون أو البفتة لدرجة أنَّها أصبحت تعرف بمدام شيفون حتَّى في المنزل أصبحت تنادَى بمدام شيفون.

كانت أمِّي دائمًا تعتني بنفسها فترتدي في السَّهرات الفساتين الطَّويلة المطرَّزة بالبفتة والتي كانت الموضة في القاهرة في ذلك الوقت، وكان مجيئها للسّهرات يعلن عن نفسه بالهمس الذي تثيره فساتينها أثناء دخولها.

وإن كانتْ عائلتنا من الأسر العريقة – حيثُ أبي كان من البارونات – فإنَّ عائلة سرِّي باشا أيضًا كانتْ كذلك، فالجدّ الأكبر لسرِّي باشا خدم الخديوي إسماعيل، وكان فطنًا ولقد انعكستْ نباهته على أعماله التي عكست ازدهار مصر في خلال القرن التَّاسع عشر، ولقد كان أقباط مصر – السُّلالة القديمة لمسيحيي مصر – أكثر فطنة وأسرع اقتناصًا للفرصة من كثير من إخوانهم المسلمين، فسرِّي الأكبر هو الذي ساند ابن روبرت ستيفانو في إنشاء السّكك الحديديّة من الاسكندريَّة للقاهرة في ١٨٥٢، وهو الذي كان وراء الشَّابّ الانجليزيّ الذي ترك بريطانيا فارًّا للقاهرة بحثًا عن عمل وكان يعمل في فندق بريطانيّ متواضع في القاهرة، فلمَّا رأى سرِّي حيويّته ونشاطه وقف وراءه حتَّى اشترى الفندق وأعطى الفندق اسمه الشَّخصيّ حتَّى أصبح اسمه من أشهر الفنادق في الشَّرق الأوسط وهو سام شبرد الذي يمتلك فيه سرِّي باشا ١٠٪، ولقد كان سرِّي الأكبر أيضًا ضمن وفد قام برحلة نيليَّة في باخرة الأمر الذي دفع منظّمها، مستر توماس كووك، لفتح مكتب لرحلات البواخر في شارع إبراهيم باشا، وفي الوقت نفسه تقريبًا قام سرِّي الأكبر بمغامرة وربَّما هي المقامرة الوحيدة التي قام بها على حدِّ قول سرِّي باشا عندما أخبرني بذلك قائلًا: "كلُّ إنسان له الحقّ أنْ يجعل من نفسه غبيًّا ولو مرَّة واحدة في حياته، ناظرًا لماله وهو يُلْقَى بعيدًا"، وتلك المقامرة كانت شراء بعض الأسهم في حفر قناة السّويس الذي سيستمرّ عشر سنوات تبدأ في ١٨٥٩ ورغم أنَّ الأرباح لم يظهر لها أيّ دليل، فهذا لم يؤثِّر على سرِّي الأكبر الذي زادتْ ثروته الضَّخمة ثلاثة أضعاف في مغامرة أخرى لم تكن في الحسبان، فلم يكن متخيّلًا أنَّ العالم الجديد الأمريكيّ يدخل في حرب أهليَّة أو أنَّ الحالة

الاقتصاديَّة تتأثَّر أثرًا بالغًا لمدَّة طويلة وتمتدّ للقاهرة، فالقطن الأمريكيّ لم يعد يُصَدَّر لأوروبا التي راح أصحاب الأعمال فيها يتَّجهون للقطن المصريّ حيث قفز حجم الصَّادرات من ١٦ مليون في عام ١٨٦٢ إلى ٥٦ مليون دولار في خلال عامين، وكان لعائلة سرِّي نصيب كبير من هذه الصَّادرات.

وكان للقطن دورٌ في إنعاش الاقتصاد المصريّ حيث اكتشف الأوربيُّون أنَّ القطن المصريَّ يفوق القطن الأمريكيّ في الجودة وفي الملمس.

ومنذ ذلك الحين أصبحت القاهرة كنز الشَّرق ومتعة الغرب، ولقد أغدقتْ بريطانيا وفرنسا على وجه الخصوص على القاهريّين من أصحاب بنوك، ومهندسين، ومكتشفين، وتجَّار وسائحين، وفي النِّصف الثَّاني من القرن التَّاسع عشر أصبحت القاهرة أسيل الذَّهب في الشَّرق، فمن بين ٣٠٠ ألف شخص يعيشون في العاصمة هناك ٧٥ ألف شخص أجنبيّ، أغلبيّتهم من الانجليز والفرنسيين، وكان الفرنسيُّون يعتبرون أنفسهم المهيمنين على الحياة الاجتماعيَّة فهم الذين يديرونها في المدينة من أوبرا وحفلات موسيقيَّة وأشهر بيوت الأزياء، بالاختصار الثَّقافة، بلْ وكانت لغتهم لغة الدّبلوماسيين وكانتْ تستخدم في القصور.

أمَّا بريطانيا فقد جلبت السّكك الحديديَّة والتّلغراف والسّياسة والتِّجارة، وأخيرًا ازدهار المباني.

حين استطاع البريطانيُّون توسيع القاهرة بعد أنْ كان توسيعها ضربًا من الخيال وذلك بسبب حدودها، حيث كان يحدّها في الشَّرق قاهرة العصور الوسطى بالقلعة والمآذن المرتفعة وهضبة المقطَّم ومقابر المماليك،

ومن الغرب كان نهر النِّيل عائقًا لأيّ توسُّع إلى أنْ شرح المهندسون البريطانيُّون للخديوي إسماعيل بأنَّ النِّيل يتَّجه منذُ آلاف السّنين نحو الغرب ببطء شديد تاركًا خلفه مناطق قبيحة ذات روائح كريهة، ومن الممكن استغلال هذه المساحات في البناء، ولقد نقل عن الخديوي أنَّه قال: "أبني باريس جديدة على نهر النِّيل"، فمنح أراضٍ مجانًا للذين يستطيعون إنشاء مبانٍ ذات أهميَّة خلال ١٨ شهرًا.

كان سرِّي الكبير واحدًا من هؤلاء حيثُ أخذ ثلاثين قطعة أرض بنى عليها أفخم القصور والفيلَّات والسّفارات بما فيها المنزل الذي أسكن فيه، ولكم كنتُ أتخيَّل عندما أفكِّر في ثروة سرِّي باشا الضَّخمة بأنَّ أجداده كانوا يتمتَّعون بذوق رفيع، الذي لازال يتعامل هو به معنا رغم أنَّه مالك العقار الذي نسكن فيه.

لقد خسر إسماعيل المستبدّ المبذّر كلّ أمواله في الأحد عشر عامًا الأخيرة من حكمه قبل أنْ تخلعه الحكومة التُّركيَّة من الحكم؛ مما جعله يقترض ٦٨ مليون جنيه استرليني من البنوك الأوروبيَّة، واضطر في النِّهاية أنْ يبيع أسهمه في قناة السّويس، التي اكتمل إنشاؤها حينئذٍ، في الوقت الذي احتفظ سرِّي باشا الكبير بنصيبه، فأصبحتْ معه ثروة فاحشة.

كان عمر سرِّي باشا الصّغير خمس سنوات، بعد أنْ ترك الخديوي إسماعيل الحكم، عام ١٨٨٢ حين هبَّت في مصر انتفاضة وطنيَّة تهدّد الأمن القوميّ في مصر والذى يعني تهديدًا لقناة السّويس التي تعتبر حينئذٍ شريان الحياة بينها وبين ثرواتها الفادحة في الهند؛ لذلك احتشدت السّفن الحربيَّة البريطانيَّة في الإسكندريَّة لتحمي مصر من نفسها.

ومن ذلك التَّاريخ، كما يقول أبي، بدأ الانجليز في احتلالهم المؤقّت لمصر، وكان لفؤاد، السُّلطان الذي تسانده بريطانيا، والذي أصبح ملكًا عام ١٩٢٢، أربع بنات يكبرهم ولد واحد، وهو فاروق المولود عام ١٩٢٠.

في الوقت الذي بلغ فيه فاروق حوالي ٨ سنوات، نظر فؤاد حوله باحثًا عن أطفال مناسبين ليلعبوا مع وريثه، وكان عليّ سرِّي، شقيق سيرين الأكبر، مَن وقع عليه الاختيار، لم يكن هذا الاختيار موفّقًا لأنَّ عليًّا كان أكبر من فاروق بحوالي ستِّ سنوات، وهو فرق كبير في هذا السِّنّ ولا سيَّما مع فتى ناضج قبل الأوان، متسلّطٍ لدرجة كافية بأن يهدّد الخدم بقوله الدَّائم: "انتظروني حتَّى أصير الملك".

كان عليّ يكره هذه المهمَّة، فلقد كان ثوريًّا وكارهًا للملكيَّة؛ لذلك استطاع أنْ يقنعَ الأمير الصَّغير بأن ينضمّ جريج لصحبة الأمير، فهو يملك صلاحية الانضمام للصّحبة الملكيَّة وكما لم ترق الفكرة لعليّ فهي لم ترقْ لجريج أيضًا وإنْ كان عليٌّ وجريج متقاربين في السِّنِّ.

وكان جريج هو الذي يخبرنا بحياة الملك فاروق المبكّرة حيث كانوا يلعبون في قصر عابدين في قلب العاصمة، والذي أقيم على حوالي ٢٥ فدَّان ولكنَّهم كانوا يفضِّلون القصر الذي في القبَّة، فقصر عابدين يشبه قصر باكينجهام، فكما وصفه لنا أبي كان القصر يتكوَّن من ٥٠٠ حجرة ويبدو كمكانٍ للمكاتب، كما أنه مكان للمعيشة، أمَّا قصر القبَّة فكان فخمًا وكان على أطراف المدينة، فالسّور الذي يحيطه يبلغ ٦ أميال بداخله حدائق خلَّابة تحيط القصر الحجريّ الذي يحوي ٥٠٠ غرفة، أمَّا بالنِّسبة للأطفال فكان هناك كلّ أنواع التَّرفيه لهم من حمَّام السِّباحة وملاعب الكرة وغيرها،

ورغم ذلك كان إذا رغب الأمير في حمَّام السِّباحة رافقه الخدم، وإذا لعب كرة القدم يجري الخدم لإحضار الكرة ووضعها تحت أقدام الأمير.

ولكم كان جريج يتذمَّر ويشكو: "كلّ اللعب مزوَّرة، وهذا الأمير عيّل، إذا لم يكسب يوقف اللعب، من أجل ذلك كان على الخدم لابد أنْ يجعلوه يكسب لدرجة أنَّه لما عمل مدرِّسُهُ لعبة الأرنب والكلب في حوش القصر راح الخدم يبلّون ورقة فاروق بعطره لكي يعرفها، هذا سخف، حتَّى السَّايس كان يمنعني من ركوب الحصان لو كان فاروق موجودًا بحجَّة أنِّي متهوِّر".

لم يلحظ أحدٌ أنَّ جريج أقصر بشيءٍ بسيط من أمِّي بسبب أنَّه يمتلك جسمًا رياضيًّا، ولم يكن تفرّق معه أي نوع من الرّياضة يلعب، من تنس أو بولو، فهو لا يتظاهر في لعبه لأنَّه كان فعلًا محبًّا للحياة.

"لا تتضايق، أنتَ عارف أنَّك فارس ممتاز، لم تتعب نفسك لكي ترضي أميرًا مدلّلًا" حاولت أمُّه أنْ ترضيه، ولكنَّ جريج استطرد: "الذي يغضبني أنِّي أحسن منه".

بالطَّبع لم يكن الأولاد يذهبون لقصر القبَّة كلَّ يوم، فهناك دروس، وفؤاد كان أبًا طاغية، كان نظامه أنْ يستيقظ فاروق السَّاعة السَّادسة صباحًا، ويقضي السَّاعة الأولى من الصّباح في التَّمارين الرّياضيَّة قبل الإفطار، كانت الدّروس أحيانًا تستمرّ حتَّى السَّاعة السَّابعة مساءً حسب الدّرس، فمعلِّم فرنسيّ للجيم، ومستر هايثواي من لندن للرّياضيَّات والانجليزي وآخر إيطالي للمبارزة وآخرون للعربي والقرآن.

معاناة فاروق كانت تصميم والده على الرّجيم الذي فرضه عليه حيث كان فاروق يحبّ الطّعام ويميل للسّمنة، لذلك حذَّر الملك فؤاد المدرّسين

ألَّا يتناول فاروق أيَّ طعام أو شراب أثناء الدّروس؛ مما دفع فاروق أنْ يجلب أيَّ طعامٍ دون أنْ يراه أحدٌ، وكان بين فترات الدّروس يدلف لجناح أمِّه "الحرملكٍ" ليلتهم ما أمكنه من طعام أو شراب.

بالنِّسبة لجريج وعليّ، كان فاروق يبدو مزدوجَ الشَّخصيَّة، خليطًا من الخير والشَّرِّ، فلحظة عاطفيّ وأخرى شرير، فمرَّة كان ينتحب من البكاء لأنَّ أرنبه مات ومرَّة أخرى حطَّم رأس قطَّة لمجرَّد أنَّها خدشته.

في عيد ميلاده الحادي عشر حصل فاروق على سيَّارته "أوستن سيفن" التي كان يقودها في نطاق القصر، وكان هناك صديق لفاروق وإن بدا أكبر قليلًا في السِّنِّ، هو "أنطونيو" الإيطاليّ ابن شقيق كهربائيّ القصر والذي أسماه فاروق "بولي"، وكانوا الأربعة يقضون وقتَ متعتهم في قصر القبَّة بعيدًا عن أعين الملك فؤاد، وأصبح بولي الصَّديق الأقرب لفاروق، بل وأصبح فيما بعد أكثر النَّاصحين له تأثيرًا.

كنَّا أحيانًا نُدْعَى للحفلات التي كانت تقيمها أخوات فاروق وكذلك كانت تُدْعَى سيرين، وكأنَّ حياتنا كانتْ مرتبطة بشكلٍ أو بآخر بحياة فاروق.

بلا شكّ هناك تغيُّرات تحدث في مسار الحياة ومن الصَّعب أنْ أتذكَّر لحظات التَّغيّر وخاصّة عندما أكون مسافرًا في الخارج أو أكون في دراسة المحاماة، بينما جريج وسيرين كانا يلعبان معًا التّنس، أو كان يعلِّمها الرّقص، أحيانًا في القصر الملكيّ، أو كانت هي تشاهده وهو يلعب البولو في نادي الجزيرة.

أتذكّر عندما كنتُ تلميذًا أنَّ سيرين عرفتْ قليلًا عن أحداث ١٩١٩ وأنَّها كانت تلجأ لي في أيّ موقفٍ صعب، وأكثر ما أتذكّره من تلك

المواقف عندما كانتْ تأتي لي بخدش في إصبعها وهي تقول لي: "ممكن تخفّف الجرح ببوسة يا عمُّو".

"عمُّو؟" بالطَّبع كانتْ هناك أسبابٌ لهذه الكلمة، منها الفارق في العمر، حيثُ كانتْ هي وجريج من عمر واحد وكنتُ أنا أكبر منهما مما دعاها أنْ تعاملني بشكلٍ مختلف عن أخي، وكذلك الملابس التي كانت تفرق الرَّجُل عن الشَّاب أو الفتى الصَّغير، حيثُ كان جريج لم يزلْ في الشّورت، بينما كنتُ في زِي الكبار، بلْ وبدأتُ أرتدي البذلة.

وإنْ كانتْ هناك مناسبة لهذه الكلمة عندما جاءتْ إحدى قريبات "شيفون" لتقضي بعض الليالي عندنا في طريقها للهند وكان معها ابنتها الصَّغيرة فقدّمتنا لها بلقب عمُّو مارك، ولقد شعرت بالفخر ساعتها من اللقب، ومنذ ذلك الوقت أصبحت الكلمة على لسان سيرين كلقب ثمَّ صارت بعد ذلك كلمة تحمل المداعبة العاطفيَّة.

نعم، كنت "عمُّو مارك" بحقّ، فعندما كنتُ في لندن في إحدى المرَّات وأصاب سيرين مرض التَّيفود جاءني تلّغراف من أبي يخبرني بذلك وطالبًا من الحضور؛ لأنَّ الطَّبيب المعالج قال إنَّ وجودي قد يساعد في الشّفاء.

لقد قرأتُ فعلًا في جريدة "التَّايمز عن انتشار التَّيفود في صعيد مصر، ولكن في طبقة من النَّاس مثل "سرِّي" أو "هولت" فلا للتَّيفود، فنحن نغلي المياه ونهتمّ باللبن، نعم... لقد قتل التّيفود آلافًا من النَّاس ولكن ليس منَّا أو أصدقائنا، لقد شعرتُ فعلًا بالبرودة التي عمَّتْ كلَّ جسمي بعد أنْ أعدتُ قراءة التّلّغراف فالتّيفود يعني الموت.

لم يخطر في بالي أبدًا أنَّ سيرين غير واحدة من أسرتنا ولم أسأل نفسي لماذا أنا متأثّر لهذا الحدّ، وكأنَّ هذا الشَّيء حدث لأخي جريج، كلّ ما خطر لي أنْ أكون بجوار سيرين بصفتي المنقذ.

من حسن الحظِّ كانتْ هناك طريقة سريعة للوصول للإسكندريَّة فالخطوط الجوّيَّة البريطانيَّة السَّريعة فتحتْ لها فرعًا للشَّرق الأوسط يمرّ بالإسكندريَّة، وبالفعل وصلتُ إسكندريَّة بعد ثلاثة أيَّام، قلقًا على سيرين فأرسلتُ تلّغرافًا لأبي الذي كان قد أرسل أنَّ سيرين في عنبر العزل في المستشفى الأنجلو الأمريكي، اتَّجهتُ بالسَّيَّارة مباشرةً للمستشفى وعرفتُ رقم الغرفة التي بها سيرين، ورغم أنَّ موظّفة الاستقبال منعتني من دخول الغرفة وطلبت منِّي النَّظر من خلال الشّبّاك وأن أتحدّث لها عن طريقه إلَّا أنِّي انفجرت فيها غضبًا "هلْ جئت هذه المسافة كلّها لأشوفها من شبّاك، لازم أخش ولو اضطررت أن أكسر الباب" وصعدتُ على السّلَّم الرُّخاميّ بسرعة شديدة متّجهًا للغرفة متجاهلًا صيحات الممرّضة التي في زيّها الأزرق وقلنسوّتها البيضاء كانت تجري نحوي لتمنعني من الدّخول ولكنْ دخلت حيث كان هناك سرير واحد في الغرفة وبجواره ممرِّضة أخرى وتجاهلتها أيضًا، في البداية لم أستطع التَّعرُّف على هذا الجسد النَّحيل الرَّاقد في السّرير الغارق في العرق كأنَّه دمية سابحة في الملاءة، إنَّها كانتْ تبدو وكأنَّها على حافَّة الخطر، ولكنَّ العقل حدَّثني بأنَّها لو كانتْ كذلك لكان أبواها معها، وإنَّما هو الشّعور الذي انتابني لأوَّل وهلة عند رؤيتها، فعيونها كانتْ غارقة في هالات سوداء، وجلدها مليء بالبقع الحمراء، وكانتْ تتنفَّس وكأنَّها تحاول مغالبة النّوم، وسمعت همسًا محتدًّا من الممرِّضة المصاحبة "المفروض ألَّا تكون هنا، لكن طالما دخلت لا تظل

أكثر من دقيقتين" ولكنَّني وقفت بجوار سرير سيرين متفحِّصًا أنفاسها وأنينها التي باغتتني بتوقّف حركتها لدرجة أنّي توهّمتُ للحظة أنَّها فارقت الحياة ولكنّها حدث عكس ما توهمتُ، فهذه العيون الواسعة الخضراء الغائرة في محاجرها بدأتْ تتفتَّح ببطء، وعندما لمحتني تدفَّقتْ دموع الارتياح في عيونها بينها قاومت دموعي، فابتسمت ابتسامة الألم: "كنتُ واثقة أنكَ ستحضر يا عمُّو"، فأجبتها بكلمات مختنقة "طبعًا جئت ألست أنا حارسك الخاصّ".

ابتسمتْ بطريقتها المعتادة في ضمِّ شفتيها فتظهر هذه الغمّازة بجانب فمها وذلك الجرح البسيط الأثر الوحيد من مظاهرات ١٩١٩، والذي أصبح الآن علامةً مميّزة في وجه سيرين مثله مثل عيونها الخضراء وشعرها الأصفر، تلك التَّركيبة الفريدة التي فسّرها سرِّي باشا يومًا ما بأنَّ التَّركيبة كانت مزيجًا من اللون الأشقر والذي هو من سلالة العبيد الشّركس الذين كان يفضّلهم.

العثمانيُّون والطَّبيعة المصريَّة التي كانتْ تحتَ الاحتلال العثمانيّ، وبذلك كانتْ سيرين من تلك التَّركيبة.

"ممكن أشرب؟" همستْها سيرين في أذني، "طبعًا" مادًّا لها كوبًا من الماء فارتشفت منه قليلًا وهي ممسكة بالكوب بذراعيها النَّحيلتين، مسحت من جبينها حبيبات العرق، ثمَّ أخذتْ رشفةً أخرى ولعقتْ شفتيها وهي تشكرني، ثمَّ سألتني أنْ أقبّلها لكي أخفِّف الألم وبلا تفكير فعلتُ ما طلبته منِّي حتَّى أنَّ الممرِّضة نظرتْ باستغرابٍ ورعب ولكنِّي لم أهتمّ، وفي لحظات قليلة سقطت تلك الحزمة من اللحم والعظام في نوم عميق.

بعد أسبوع تقريبًا اجتازتْ سيرين الأزمة وبعدتْ عن خطِّ الخطر، مما جعل الدّكتور فليب يتعجَّب:"إنَّها معجزة، أنا كنت شاكك أنَّها ممكن تعدِّي هذه الأزمة بأمان، أعتقد أنَّ وجودك لعب دورًا كبيرًا!".

بعد حوالي اثنى عشر يومًا شعرتُ بارتفاع درجة الحرارة، وبعدها بيومين ظهرتْ بعض البقع الحمراء على وجهي وتحوّلتْ إلى طفح جلديّ مصحوب بإسهال، ولأنَّني تعرَّفت على الأعراض ذهبتُ للدّكتور فليب الذي أسرع وأخذني للمستشفى، وأجرى بعض الإجراءات لإسعافي، ثمَّ بادرني بقوله "من حُسْن الحظِّ أنَّا لحقنا العدوى في الوقت المناسب، لكنْ لا أعرف كيف جاءتك"، وإن كانت الممرِّضات عملنَ هرجًا ومرجًا إلَّا إنَّ الأمر في الحقيقة غير معدّ ما لم تكن شربت من ماء ملوَّث أو... فقاطعته ضاحكًا "هذه معجزة" فقال لي "ماذا تقصد؟" فقلتُ له: "طلبتْ منِّي أنْ أبوسها".

- وطبعًا أعطيتها بوسة!
- نعم.

ــ طبعًا بعدما شربت ولاتزال شفايفها مبلولة، أنتَ فعلًا غريب، لكن أنا فخور بك على أيّ حال لأنَّ بوستك أعطت لها الإرادة للحياة، على العموم الحمدُ لله لحقناك في الوقت المناسب.

بعد ثلاثة أسابيع خرجتْ سيرين من المستشفى وبعدها بأسبوعين رجعت لمنزل هولت.

فى فترات النُّموِّ لا يبدو الكثير في التَّغيير بسبب التَّواجد معًا فقد لا تشعر بأيِّ تغيير في الإنسان ما لم تكنْ بعيدًا عنه.

في سنة ١٩٣٤، وكان عمري ٢٥ عامًا، حصلتُ على شهادة الحقوق من لندن، وكان عليَّ أنْ أفتتح المحل، كما كان يحلو لأبي أنْ يُسمِّي مكتب المحاماة.

كان النِّظام القانونيّ في القاهرة، ذات الجنسيَّات المتعدِّدة واللغات المختلفة، أكثر تساهلًا منه في لندن، فتحت مسمَّى المحاماة الشَّامل لم يكن عملي قاصرًا على المحاكم ولكن تحت دستور الممارسة المصريّ يمكن التَّعامل مع المشاكل دون اللجوء لمحامٍ، لذلك كنتُ أقبل أيَّ عمل يُسنَد إليَّ وإن استقرَّ الأمر على التَّخصّص في الضَّرائب والعقارات اللتين لا تنتهي مشاكلهما في مصر، وفي بادئ الأمر لم يكن عندي كثيرٌ من العملاء إلَّا إنَّ أبي كان يشجّعني دائمًا ولا يرى خجلًا في توجيه أيِّ فرد يريد استشارة قانونيَّة لمكتبي، ولكم أحببتُ هذا العمل لدرجة الانغماس فيه حتَّى إنِّي كنتُ أنسى أحيانًا الذّهاب للمنزل.

كان أخي جريج مختلفًا تمامًا عنِّي، ففي العشرين من عمره كان بين أحسن خمسة لاعبين بولو في مصر، كان شجاعًا ووسيمًا ومتأنّقًا في ملابسه كما يجب على أيِّ شاب في سنِّه، كان يعرف تمامًا ما يريد وإنْ كان طموحه مختلفًا عن طموحي.

في صباح أحد الأيَّام طرقَ باب المكتب الخاصّ بأبي طالبًا مساعدته فبادره قائلًا:

ــ"أنا أريد أنْ أحترف البولو".

وكان أبي يتناول الإفطار المكوَّن من البيض المقليّ والذي يضعه دائمًا في طبقه المجوَّف الخاصّ به، فنظر لجريج مبتسمًا: "تأخذ كاس شامبنيا؟" "ويا ترى كم سيكلّف؟".

وكان جريج دارسًا للوضع فنادي الجزيرة الذي يضمّ ثلاثة ملاعب للبولو لا يكلّفه أكثر من ٦٠ جنيهًا شهريًّا ليمتلك ٦ أحصنة بساحاتها التي بناها الانجليز.

كان جريج يلعب البولو يوميًّا تقريبًا، وكان يذهب للملاكمة ثلاث مرَّات أسبوعيًّا، وكان يعار أيضًا للمباريات الخاصَّة بالكتائب العسكريَّة حينما يكون لاعبوهم الكبار في الخدمة، كانتْ هناك ثلاث كتائب ـ الفرقة الحادية عشرة والثَّامنة للهوصار والفرقة الملكيَّة للمدفعيَّة ـ تتنافس دائمًا على كاس الملك أو الكاس العسكريَّة أو أيّ بطولة أخرى.

فوافق أبي قائلًا: "سأقف بجنبك، على أمل أنَّك تصبح أفضل لاعب بولو في القاهرة، اتَّفقنا؟ فصاح جريج: "مدهش! ولكن لن تهتمّ إذا لم أذهب للمكتب؟"

فقال أبي: "الدُّنيا مليئة بالرِّجال النَّوابغ الذين نجحوا في الحياة دون اكتساب نقود"، فمثلًا دوجلاس جاردن، تعلَّم في وينشستر، وحصل على اعتماد من جامعة أكسفورد، لم يكن يستطيع أنْ يلعب كهاوٍ لو أنَّه لا يمتلك وسائله الخاصّة، أعتقد أنَّها فكرة رائعة منك".

ولكن، كما أخبرني جريج فيما بعد، أضافَ أبي "هناك شيء، ماذا عن مارك؟ لا أستطيع أنْ أجعله يشعر بالغيرة حين يعلم أنَّه بينما كان يعمل كنتُ أدفع لكَ نقودًا مقابل لا شيء".

فغمغم جريج "لا شيء!" "لعب البولو لا شيء؟" فأردف أبي بسرعة "تعلم ما أقصد، إنَّها تبدو كمتعة، انطباع الرَّجل الثَّريّ الغنيّ عن العمل، كلاكما يأخذ مصروفه من دخل الأسرة، ولكن بالإضافة لذلك، أعلم كم تحتاج للعب، فسوف أدفع المثل لمارك".

وكان أبي يفعل ذلك دائمًا، يعدل في تصرُّفاته، وهذا أحد الأسباب التي جعلت أسرتنا دائمًا ملمومة الشَّمل.

لذلك كان يدفع أجرة المكتب الذي كان يطلّ على حديقة الأزبكيَّة، وأجرة سالم الموظّف في المكتب، وكذلك السّكرتارية، كما تعوَّد أبي أنْ يقول دائمًا: "لن تكون هناك محاباة في بيتنا".

وبرغم أنَّ أسرتينا كانتا على علاقة وثيقة، كان عليٌّ في كثير من الأوجه غريب الأطوار، فهو يكره الاجتماعيَّات، وكونه ابن أحد أثرياء القاهرة يكفي بأنْ تصبّ عيه اللعنات، حيث القاهرة، بشكل غير معقول، كانت تكتظّ بالحفلات، ولم يكن كذلك يحبّ البريطانيين، وكان هذا يحرج أثرياء القاهرة الذين كانوا يتناولون الغداء بصفة مستمرَّة مع البريطانيين.

وكان سرِّي باشا، الذي علَّق على عليٍّ آمالًا كثيرة، يشعر بالحرج لأنَّ ابنه الوسيم يبدو متجهّمًا ويحبّ العزلة، لكم كان مختلفًا عن جريج والذي كان في مثل عمره، كان جريج يتعامل مع أصناف كثيرة من النَّاس ولكنْ لا يتورّط أبدًا في السِّياسة، ربَّما كان ضئيل التَّفكير، ربَّما كان عليٌّ أعمق تفكيرًا، هناك إشاعة أنَّه يفكِّر في الالتحاق بحزب الوفد؛ لأنَّ الوفد يشتمل على ألوان مختلفة اجتمعت على هدف واحد هو التَّخلّص من الاستعمار الانجليزيّ، ورغم أسفي على سرِّي باشا إلَّا إنَّني لم أشعر بأيّ موقف تجاه عليٍّ.

لم يحظَ أحدٌ مثلنا نحن الذين نعيش في القاهرة في تلك الأيَّام، فكنَّا نعيش في الثَّلاثينيَّات بزعم أنَّ حياتنا في القاهرة لن تنتهي رغم أنَّ عليًّا كان يصيح دائمًا "هذه أرض مصريَّة وأنتم أيُّها الانجليز سترحلون في يومٍ ما"، فكان كلّ واحد يضحك من كلامه.

لم يكن البريطانيُّون وحدهم الذين كانوا يشعرون بالسَّعادة، فالأغنياء من المصريين المسلمين والأقباط، واليهود، والإغريق والإيطاليُّون، كلّ الأجناس كانتْ تنصهر في القاهرة، وكلّ واحد إذا أصبح غنيًّا كان يتمتَّع بالقاهرة.

كانتْ وسائل المتعة رخيصة، فبمصروفٍ بسيطٍ يمكن أنْ تذهب لجروبي أو أيّ محل آخر تشتهر به القاهرة، ودور السّينما كانت تعرض أحدث الأفلام الأمريكيَّة، ولم يكن الأمر مكلّفًا للذّهاب لسينما مترو أو ميامي حيث تعرض الأفلام الفرنسيَّة.

لقد جعلت المخترعات الحديثة الحياة في القاهرة سهلة، فلقد دخل عصر التَّاكسي القاهرة في العشرينيَّات وما أنْ حلَّ عام ١٩٣٥ حتَّى كان في القاهرة أكثر من أربعة آلاف تاكسي، مكتظَّة بالأغنياء الذين يرتدون الأزياء الغربيَّة، لقد كان التَّفصيل مازال مطلوبًا وفي الوقت نفسه كانت تباع أفضل الملابس في المحلَّات الكبرى التي بدأتْ في الانتشار، هانو وصيدناوي وشيكوريل، التي كانت تدار معظمها بالفرنسيين، والتي كانت تقدّم الملابس الحريمي المستحدثة مثل الملابس الدَّاخليَّة، كانت النِّساء الثّريَّة مثل مدام سرِّي ترتدي أحدث الموديلات الفرنسيَّة، وكانت الملابس الجاهزة تلقَى رواجًا كبيرًا رغم أنَّ المصريين كانوا يفضّلون الأقمشة الشّرقيَّة اللامعة، كان الأغنياء يستخدمون صابونًا من نوع خاصّ، يصنع خصيصًا في نابلس وله رائحة مميّزة، والذي كان يضعه أصحاب المحلّات في غرف وضع الملابس، أو المطاعم.

كانت القاهرة بالنِّسبة لنا كما غرب لندن بالنِّسبة لبريطانيا، قرية تحتضن النِّيل والجزيرة، وقصر النِّيل، كشارع بوند، متقاطع مع شارع سُلَيْمان باشا، شارع أكسفورد للعاصمة المصريَّة.

وعلاوة على ذلك كانت، مثلها مثل أيّ قرية، مليئة بالدَّسائس والأقاويل، لأيّ فرد عرف أسرارًا خاصّة عن أحدث فضيحة هزَّت الأصدقاء أو الأعداء.

كانت سيرين تعتبر نفسها واحدة منَّا، لقد كانت مرحة، خالية البال ومبتهجة تتمنَّى أي أسرة ثريَّة أنْ تنتمي لها.

كانت سعادتها الدَّاخليَّة تشرق على وجهها، لقد كان جمالها يتميّز عن هذا الجمال الرّوتينيّ الذي في السّينما، كانت تمتلك كلّ المقوّمات، ملامح متكاملة، شعر أشقر يتدلّى على ظهرها وعلى رقبتها الرَّشيقة، فم واسع ببسمة جذَّابة تحمل أكثر من معنى الشَّقاوة، وفوق كلّ ذلك عيونها الخضراء الجريئة، والتي تنظر للمرء في وجهه مباشرةً، كانت سيرين طويلة القامة كما كنَّا جميعًا نلاحظ ساقيها وكعبيها الرَّشيقين.

ولما لم يكن هناك مدارس جيّدة للبنات في القاهرة آثرت مدام سرِّي أنْ تعلّمها تعليمًا خاصًّا بدلًا من إرسالها لباريس، كانت سيرين تذاكر دروسها بجدّيَّة، وإنْ كان هناك شيئان تحبّهما أكثر، الأوَّل هو الكتب، فكانت دائمًا تحمل في يدها كتاب لتقرأه، ولم يكن الكتاب من تلك القصص الرّخيصة التي تشتريها من بائع الكتب، ولكنْ من تلك الكتب الكلاسيكيَّة القيّمة التي تستعيرها من مكتبة أبيها، عندما أمسكت منها ذات مرَّة رواية "الكيك والأيل" التي كانت تقرؤها ضحكت وقالت:

"أيضًا أقرأ الرّوايات الحديثة"، وأردفت "إنِّي ألتهمها، لا يمكن أن أتركها حتَّى أنتهي منها تمامًا".

أم الشّيء الثَّاني الذي أسرَّها فكان الرَّسم، لقد كان مدرِّسها في الرَّسم فرنسيًّا يُدْعَى بابتيس، الذي كان في أيَّامه واحدًا من جماعة "الفوفيَّة" والتي كانت تضمّ براك ومارسي وفلامينك وغيرهم، وفي عام ١٩٠٥ أزعجت رسوماتهم أحد النُّقَّاد بألوانها العنيفة فأطلق عليهم "الوحشيُّون"، ولكنَّ باتيس كان عبقريًّا في تعليم الرَّسم، فسيرين كانت متقدِّمة جدًّا في الرَّسم.

ولازالت، رغم عمرها الصَّغير، كان معروفًا أنَّها وجريج سيتزوّجان، ولعلَّ هذا أضاف لنضجها شيئًا ما، ولم أدرِ كيف نما هذا الأمر حتَّى سألتُ يومًا ما أبي متعمِّدًا وسيرين بمحض الصُّدفة.

في أحد الأيَّام بعد الظُّهر كان جريج يلعب التِّنس فاندفعتُ إلى سيرين وسألتها إذا كانت تريد أنْ تجرِّب شيئًا جديدًا على حياة القاهرة، كان شبرد يقيم حفلًا راقصًا كلّ يوم بعد الظّهر من الرَّابعة حتَّى السَّادسة، كان اكتشافًا رائعًا، فكلٌّ منَّا كان يريد الخروج، ورغم ذلك نادرًا ما كنتُ أرقص مع سيرين، حتَّى في ذاك المساء بينما كنَّا نرقص الفوكس تروت، همستُ لها بأنَّ السَّيّدات اللاتي يتناولنَ الشَّاي في الصَّالة ينظرنَ لي مستنكرات، لربَّما اعتقدنَ أنِّي خاطف أطفال، فقالت لي: "لماذا دائمًا تظنّ نفسكَ كبيرًا؟" لم هذه المرَّة الأولى التي تسألني هذا السّؤال، فأجبتها ضاحكًا "هموم العمل".

لقد كان الأمر سخيفًا، الأمر الذي أسرعت فيه نبضات قلبي عندما احتويتها بين ذراعيَّ، سخيفًا؛ لأنَّها لم تتجاوز الخامسة عشرة أو السَّادسة

عشرة في ذلك اليوم، بينما كنتُ أشعر بأنّي خاطف أطفال كانت هي تقفز العشر السّنين الفارق بيني وبينها كلّما أخذت خطوة في الرَّقص.

خرجنا من النَّادي وهي تلهث من فرط السَّعادة، وبينما كنتُ أوصلها عابرًا الحديقة من جهة منزل سرِّي باشا حيث كنتُ راكنًا سيَّارتي، قالت بشيء من عدم الاتزان "كانتْ جولة مدهشة، دعنا نكرّرها، ومن الأفضل ألّا يعرف أهلنا، فأبي متزمّت بعضَ الشَّيء"، ثمَّ استدارتْ بوجهها وقبَّلتني، في هذه المرَّة لم تكن القبلة خاطفة لمن يدَّعي أنَّه عمّها، وأردفتْ هامسة: "أنتَ رائع" وأسرعت لبيتها.

انتابتني الشّكوك فجأة على وجه لم يحدث لي من قبل، ليس من قبيل قبلة واحدة، ولكنَّ الطَّريقة التي قادتنا به لا شعوريًّا مشاعرنا الدَّاخليَّة إلى هذا الحدّ، هل سيرين وقعت فعلًا في حبّ عمّها؟ وهل أنا أحبّها فعلًا؟ لقد اعتراني شعور بأنَّنا نحبّ بعضنا البعض، ومع ذلك لا نمتلك شيئًا مقابل قرارات الآخرين، لقد حذَّرتني القُبْلَة من التَّورُّط فيما اتَّفق عليه الآخرون، ألم يجب عليّ أنْ أمتلك الشَّجاعة فيما قبل لأواجه الأسرة؟ إنِّي أعرف أنَّ كلَّ شيء تمَّت الموافقة عليه بين الأسرتين، ووافق الابن والابنة بكلِّ سعادة على هذا، ولكنَّ الغريزة حذَّرتني بأنَّ مثل هذه الاتفاقيَّات ما هي إلَّا لتنتهي نهاية تراجيديَّة، ولو أنَّ ذلك حدث فمَن سيكون الغلطان؟ هل أنا؟ فهي ما زالت مراهقة.

وفي ذلك المساء على العشاء سألتُ أبي قائلًا: "من المفترض أنَّ جريج وسيرين سيتزوَّجان عندما يكبران، فكيف رتَّبت لذلك؟"، فقال: "لا أتذكَّر، هل تتذكَّرينَ يا شيفون؟ إنَّه من مدَّة طويلة".

فقالت شيفون: "لم نرتِّب لشيء، إنَّك تصعّب الأمر، إنَّ هذا يتناسب مع المصريين، أقصد الفلَّاحين".

فقلت: "أعرف ذلك، ولكن هو حبّ الفضول".

وقال أبي: "أعتقدُ أنَّنا شجَّعنا على ذلك، فربَّما أنا وسرِّي باشا كنَّا نحلم بجمع أسرتينا بالزَّواج، لقد كنَّا نتكلَّم في هذا من قبل أنْ تولد أنت، وأرى أنَّ جريج وسيرين يناسبان بعضهما".

وأضفتُ قائلًا: "ولكن يجب أنْ يخبرهما شخص ما عمَّا سيحدث في المستقبل".

فاحتجَّت شيفون قائلة: "ماذا تعني يا مارك ألستَ موافقًا؟".

وقبل أنْ أردّ بأنِّي لا أعني شيئًا، قاطع أبي قائلًا: "شيفون على حقّ من ناحية المصريين، بالطَّبع لم يضغط أحد على سيرين لتتزوَّج من جريج، ولكنَّ المصريين ينظِّمون الزَّواج في المستويات العالية، وبرغم أنَّ سرِّي باشا رجلٌ متنوِّرٌ إلَّا أنَّه يرتبط بالعادات القديمة، إنَّه قال لي إنَّه مبسوط لأنَّ سيرين وجريج استلطف كلٌّ منهما الآخر، وإنَّه سيسأل سيرين عن رأيها في جريج عندما تكبر، فلم يكنْ الموضوع أمرًا، فاهم، ليس الموضوع كما يدير الفلَّاحين في الدّلتا، ولكنَّ المصريين يحبُّون أنْ يرتِّبوا كلَّ شيء، ولا سيَّما مع أطفالهم، إنَّهم يحسّون، ومَن يعرف؟ ربَّما يكونون على حقّ، فالزَّواج إذا تُرك للأطفال أصبح مقامرة".

فقلت: "أنا أتساءل عمَّا قالت سيرين"، فأجابني: "أعلم ما فكَّرت فيه، إنَّها مرحِّبة بالموضوع تمامًا"، وكان عليَّ أنْ أندهش قائلًا: "وهل عرفت ذلك؟"، فقال: "بالطَّبع، فقد جاء لي جريج، ولن أنسى الكلمات التي استخدمها، لقد جعلتني أضحك، فقد قال لي: "بابا، سيرين طلبت

منّي أنْ أتزوَّجها" فمن الواضح أنَّها أخبرت جريج برأي أبيها، وجريج رأى ذلك رائعًا فأخبرني"، سيكون الأمر عظيمًا إذا لم نندفع، فهي حقًّا رائعة، والأروع أنْ نحتفظ بذلك في نطاق الأسرة.

وأردف أبي، كان ذلك ليلة ما اتَّفق سرِّي باشا وأبي، وقال لي سرِّي باشا إنَّها أسعد ليلة بالنِّسبة له، واحتفلنا ليلتها باحتساء الشَّامبانيا، وبدا لنا أنَّ الجميع موافق على ذلك.

فقلت بشيء من الجفاء: "كان هناك أكثر من طريقة لجمع الأسرتين".

فقال أبي: "ماذا؟" فقلتُ، وقد شعرتُ بالضِّيق: "نعم، ماذا عنِّي؟ لقد كان باستطاعتي أنْ أجمعَ الأسرتين، أليس كذلك؟ لو أنِّي رتَّبت لزواج سيرين".

فقال أبي فاغرًا فاه من الدَّهشة: "أنتَ؟ ولكن بينك وبينها عشرة أعوام، إنَّك تقريبًا يمكن أنْ تكون عمَّها".

وصاحت شيفون: "إنَّها تناديك بذلك أحيانًا"، وأردف أبي: "إنَّك من النّوع الجادّ، ولكن جريج من النُّوع المنبسط، رجلٌ رياضيٌّ"، فقلت: "وهل هذا يجعله زوجًا أفضل؟".

فردَّ أبي: "لا، لا بالطَّبع لا، ولكن عملك، فأنتَ متزوِّج القانون".

فقلت: "إنِّي أنوي أنْ أتزوَّج في يوم ما"، فقالتْ شيفون: "بالطَّبع".

وأردف أبي: "حسنًا، لقد ربَّى سرِّي باشا ابنته لتكون مصريَّة ممتازة، فهي لن تفعل أيَّ شيءٍ لا يوافق عليه أبوها".

فقلت متَّفقًا: "بالطَّبع لا، لقد كنت فقط أتساءل كيف حدث هذا".

لقد كنتُ بالفعل أعرف دون أنْ يخبرني أحد.

لأسباب كثيرة كان جريج تحت الأضواء أكثر منِّي؛ لأنَّه كان رياضيًّا، نادرًا ما كنَّا نختلف، لم أكن أبدًا غيورًا منه، لم يكن لدى أبي ابنة يدلِّعها ويفخر بها؛ فلذلك ربَّما رأى أنَّه يدلِّل جريج ويفخر بإنجازاته الرِّياضيَّة، لقد كان يعامله ملبِّيًا له كلَّ طلباته، مثل مضارب الكريكيت، وراكيت التِّنس، وأخيرًا أحصنة البولو، كان طويل القامة، عريض المنكبين، ورشيق الجسم، ومتناسق الهيئة، وتواضع يتماشى مع أيّ نجاح، كان محبوبًا من الجميع، وكان الجميع يحبّه.

لم يخطر على بالي أبدًا أنَّ أبي مارس أيَّ تفضيل لجريج عليَّ، بالعكس، كان يعاملني ربَّما أفضل، فأنا مَن كنتُ ألعب معه الشَّطرنج، وكنَّا نتناقش في قراءة الكتب، ولكم فرح عندما تخرَّجت في أكسفورد، ولكنْ إنْ كان هناك فخر بتفوّقي العلميّ، فهناك أيضًا فخر بإنجاز جريج الرّياضي تقريبًا يوميًّا في نادي الجزيرة تتحدَّث عنه النَّاس، لذلك كان من السَّهل أنْ أتفهّم أنْ يتمّ اتفاق الزَّواج بين الآباء العطوفين.

لقد شرحتْ سيرين ذلك بطريقتها المصريَّة، بشيء من المنطق، والشّعور القويّ بواجب الأبناء ـ كلّنا تقريبًا ننسى أنَّ سيرين ليست بريطانيَّة أو فرنسيَّة، بلْ خلف هذه العيون الخضراء الهادئة كانت هناك عقليَّة تقولبت من قرون بالتَّفكير المصري ـ فقالت: "هناك سببان؛ الأوَّل إنَّه واجب عليَّ كابنة كما تعلَّمت أنْ أطيع والدي واختياراته، والتي تعتمد على موافقتي، والذي اختار لي زوجًا مناسبًا، أبي رجل حكيم ويحبّني، ولما كان من المفروض أنْ أتزوَّج، أدَّى هذا للسَّبب الثَّاني وهو لماذا لا أتزوَّج فتى مثل جريج؟ فأنا أعرفه، ولقد تربَّينا معًا، وهو من النّوع الذي تُسمُّونه

أنتم أيُّها البريطانيُّون بالجنتل مان، على الأقلِّ أعرف أنَّه منبسط المزاج، وممكن أنْ يكون زوجًا ممتازًا، وهذا مما يجعل أبي سعيدًا.

فقلتُ لها: "ولكن ألم تنسي شيئًا، الحبّ؟" فأجابت: "ولكن أنا بالفعل أحبّ جريج".

فقلت: "بالطَّبع أنتِ تحبِّينه، ولكن الحبّ التَّقليديّ، حبّ ينقص".

فقاطعتني: "العاطفة؟" قالتها وكأنَّها تتهكَّم "لم تكن هذه الكلمة التي أبحث عنها".

فأردفت: "كما ترى يا مارك، لم يفترض في المرأة المصريَّة أنْ تكون عاطفيَّة، ربَّما سعيدة، ولكن من قرون والرّجل يعتبر المرأة كشيء لمتعته، حتَّى المرأة الفكتوريَّة كانت تعتبر الجنس شيئًا مقزِّزًا، الرَّجُل المصريّ لا يريد أنْ تشعر زوجته بلذّة الجنس، وذلك سبب كثرة الختان بين النِّساء المصريَّات"، فقلت: "بأمانة يا سيرين، أنتِ تتحدَّثينَ كامرأة من العصور الوسطى...".

فقاطعتني: "ولكنَّ التَّاريخ المصريّ لا يزال جزءًا من حياتنا اليوميَّة".

فرددت: "ربَّما، ولكن لن تستطيعي أنْ تخبريني بأنَّ بعيونك المحترقة تلك لا تشعرين بالحياة".

"أنا سعيدة هكذا، لقد عشتُ طفولة جميلة، بين والدين حبوبين، وجريج حلم أيّ فتاة، ماذا ترغب الفتاة أكثر من ذلك؟"، فقلتُ: "أنا" قلتها وأنا أضحك.

فضحكت: "آه، لم يكن ذلك ضمن الاتِّفاق".

٣

كان منزل هولت فخمًا، وكذلك كان قصر سرِّي، والحدائق الجميلة، ولكن في وقت الصِّيف كانت نفثة الهواء وهمسة النَّسيم أكثر قيمة من المشروب المثلّج، وعندما كانت تهبّ رياح الخماسين تصبح الحياة في القاهرة لا تطاق، فالرِّياح تدور وتغلق العيون، وتحوّلها للون الأحمر، كان الرِّجال في الشَّوارع يغطُّون وجوههم، وكأنَّهم أشباح، بينما الخماسين تصفِّر في كلِّ شرخ، وفي مرَّة من المرَّات، كانت الرِّيح تهبّ فتدخل من فتحة الباب.

من حسن الحظِّ، كنَّا من وقتٍ لآخر نهرب من الحرارة، ويرجع الفضل لسرِّي باشا، حيث امتلك آباؤه عزبة تربو على ألفي فدَّان... كانتْ تُسمَّى جزيرة النَّصراني، على بعد أميال من القاهرة، حيث ينقسم النِّيل مكوّنًا منطقة الدِّلتا، تمتدّ من النِّيل حتَّى البحر.

يمكن الذّهاب لجزيرة النّصراني عن طريق القطار، أو البر، أو عن طريق النِّيل وهو أكثر متعة لحدٍّ بعيد، وهذا ما كنَّا نفعله بانتظام، بمتعة لا نظير لها؛ وذلك لأنَّ سرِّي باشا كان لديه طموحٌ بأنْ يمتلك قاربًا نيليًّا عظيمًا منذُ أنْ كان طالبًا في أكسفورد، منذُ أنْ رأى مثل هذا القارب في أكسفورد، وعقد العزم على اقتناء مثله، وبالفعل امتلكه وسمَّاه "قسمت".

كثيرٌ من الذِّكريات التي تعلق في أذهاننا من أيَّام الطّفولة تلك الرّحلات على قسمت والذّهاب لجزيرة النَّصرانيّ، لقد كان القارب عبارة

عن بيت للمتعة، فأتذكَّر حينما كنت صغيرًا ووصلنا لجزيرة النَّصراني بعد الغروب، استقبلنا الخدم بالفوانيس وساروا معنا في طريق محفوف بالأشجار حوالي ٢٠٠ متر، وكانت الأضواء تنبعث وكأنَّها الخنافس المضيئة، حتَّى وصلنا لمبنى كبير بحدائق فاكهة.

في آخر الأسبوع، بعد أنْ ألقت سيرين ملاحظتها الغامضة "لم يكن هذا في الاتِّفاق"، ذهبت الأسرتان لجزيرة النَّصراني، على "قسمت" على الصَّالون القطيفة بلونه البنيّ والأصفر، وكانت في المقدِّمة تقدّم المشروبات.

كان المنزل والقارب أجزاءً رئيسيَّة من حياة سرِّي باشا، وأعلم تمامًا أنَّه يكره في قلبه أنْ يكون عضوًا في زمرة القصر، لقد كان ذلك عمله الذي فرض عليه، ولو أنَّه أراد أنْ يستقيل فهذا يعتبر إساءة لا تُغتفَر، ومع ذلك فهو بالثَّراء الذي يجعله يشعر بالسَّعادة وهو منهمك في كتبه التَّاريخيَّة.

بينما كان سرِّي باشا يحتسي الليمون، وكان أبي يشرب الشّامبانيا، وكنتُ أرتشف الويسكي، قال سرِّي باشا: "طوال الأسبوع أنتظر لهذه الثَّلاث ساعات التي أقضيها على "قسمت"، السُّرور المتأنِّي، هل قرأت أفكار روبيرت بروك الحالمة في جرانتشيستر؟ لعلَّه كتبها على أحد القوارب في نهر التَّايمز.

بلا شكٍّ، لم تكن الدِّلتا في هدوء التَّايمز، فالمرور في النَّهر لا ينقطع؛ لأنَّ الدّلتا متقاطعة مع قنوات وروافد كثيرة، وهي تعكس الظّلال الخافتة للرّيف، فالألوان الزَّاهية الوحيدة تأتي من الطّيور، البشروش، البجع، الرّفراف، أو من الأشرعة التي على بعض الفلُّوكة الصَّغيرة أو حتَّى من المساجد التي على الضّفاف.

في أحد الأيَّام، وكنَّا على بعد نصف ساعة من جزيرة النَّصرانيّ، سمعنا ضوضاء صاخبة عند أحد الفروع الخارجة من النِّيل، حيث كانت بعض الفلوكة تصطاد الأسماك من النِّيل، وكنَّا سيرين وأنا نستند على درابزين "قسمت" نتفرَّج، قالتْ لي سيرين وفي صوتها بعض الحزن: "مساكين، تهرب الأسماك من المجاديف لتقع في الشّباك، ثمَّ تنتهي في سوق السَّمك، يا له من قدر محتوم".

وصلنا النّصرانيّ قبل الغروب بالضَّبط، لقد كان منزلًا جميلًا، محاطًا بالفاكهة، والبرتقال، الليمون، الخوخ، البطّيخ، وتحفّه أشجار النَّخيل، والمنزل مبنيّ بالطّوب البمبى، ومكوَّن من دورين، بنوافذه المربَّعة بشراعاتها التي تحميه من الخماسين، وهناك سور كبير يحيط بالمنزل والحدائق، ببوَّابة كبيرة تؤدِّي لفناء واسع وبئر في الوسط، كان سرِّي باشا يقول لي عندما كنت صغيرًا أنَّ جنيّة الماء تغضب إذا ألقى أحدٌ حجرًا على رأسها.

كان المدخل الرَّئيسيّ عبارة عن بوَّابة كبيرة تؤدِّي لغرفة كبيرة تُسمَّى غرفة الضّيوف، حيث يكون الخدم جاهزين دائمًا بالقهوة والسَّجائر وما إلى ذلك، كانت الغرفة مليئة بالكنب المنخفض والملوّن بألوان زاهية، وكان عندما لا يعمل المولِّد الكهربيّ يقوم الخدم بإضاءة الفوانيس الملوَّنة، وكانت الغرفة منسَّقة فيها الكراسي والمناضد النّحاسيَّة بأرجلها الحديد، ودائمًا كانت مدام سرِّي تعتذر عن الأشياء الرَّخيصة التي تملأ المنزل، وكأنَّها من سوق الكانتو، بينما سرِّي باشا كان يؤمن بأنَّ المنزل يجب أنْ يبدو مصريًّا لا نسخة سيّئة من البيوت الغربيَّة.

كان اليوم التَّالي أكثر هدوءًا، فانغمس أبي وسرِّي باشا في لعب الشّطرنج، بينما جريج وعليّ ذهبا كالعادة للصّيد خارج العزبة، وكانت سيرين ترسم في الفضاء خارج المنزل، وكنتُ أنا في إحدى الغرف أدرس بعض الأوراق قبل عودتي للقاهرة، وكنتُ أرى سيرين من خلال النَّافذة، وفجأة رأيتها تجمع أدوات الرَّسم وتتَّجه عائدة لداخل المنزل، فتركتُ ما أنا فيه وذهبتُ لاستقبالها.

فسألتها: "ما الخبر؟" فهزَّت رأسها بغضب: "شيء مفزع، لقد مسحت الرَّسم".

في طريق عودتنا للمنزل، أثناء سيرنا في العزبة، شاهدنا الفلَّاحين في عملهم، والخفر يلاحظون عليهم، وأثناء ذلك أشارتْ سيرين لإحدى النِّساء في جلبابها الأبيض وهي تتَّجه نحو المنزل، وصاحتْ بها: "فتحيَّة".

فألقت فتحيَّة السَّلام، وعانقتها سيرين، وأنا صافحتها، ففتحيَّة لها ذكريات، فهي مرضعة سيرين وعليّ، ومنذُ ذلك الحين استقرَّ طفلاها في العزبة، وقالت لنا وهي فخورة: "لقد بلغت بنتي ١٩ سنة"، لقد مرَّت مدَّة طويلة منذُ أن اندلعت المظاهرات، فجرتْ هي في الحديقة، واختبأنا نحن في شجرة الكاتدرائيَّة.

قلتُ لسيرين، ونحن نسير بين أشجار الفاكهة: "دائمًا ما نخلط بين الماضي والحاضر، منذُ ذلك اليوم الرَّهيب، حتَّى من قبله" فقالتْ: "من قبل المظاهرات؟".

قلتُ: "نعم، ففتحيَّة ذكَّرتني يوم أنْ أرضعتكِ، وكأنَّه اليوم، حين أخرجتْ ثديها من تحت البلوزة وأرضعتكِ، وكنتِ أنتِ متلهِّفة للرِّضاعة".

فقالتْ: "عليكَ أنْ تخجل من نفسك"، وأخذتْ تضحك، وأردفت: "من حسن الحظِّ أنَّ أمَّك لم ترَك، ولا أمِّي"، فقلتُ: "كنتُ حريصًا ألَّا يراني أحد".

فقالتْ: "إذا كنتَ مرتبطًا بحياتي من زمن بعيد، منذُ أنْ كنتُ أرضع، أي أنَّك حارسي، كما تقول أمِّي، منذُ إصابتي بالتَّيفود، أعني حين كان عمري ١٣ عامًا، وكنتُ خائفة جدًّا".

فقلتُ: "نعم، وكان عمري حينها ٢٢ سنة".

وهذه الأحداث جعلتنا نقترب من بعض كما حدث في أيَّام المظاهرات، ففي إحدى المرَّات، حينما كنتُ جالسًا وحيدًا في غرفة الجلوس في جزيرة النَّصرانيّ، جاءتْ سيرين مسرعة وهي شبه منهارة، وكانتْ تبكي، فقالتْ لي هامسة: "أرجوك ساعدني يا مارك، تعالى ورائي في الصّوان لكي نكون وحدنا".

لم يكن عندي أدنى فكرة عمَّا تريد، ولكنْ دون مقدِّمة رمتْ بنفسها على كتفي وراحتْ تشهق شهقات عالية وهي تقول: "آه يا مارك، سأموت، وأنتَ الوحيد الذي أستطيع أنْ أتحدَّث معه".

ففزعت: "ماذا حدث؟ هلْ أمّك اتّصلت بالدّكتور؟".

ردّتْ: "لا، أنا خجلانة، أنا خائفة أنْ يكون مرضًا تناسليًّا، هناك نزيف حادّ".

فسألتها: "ماذا هناك؟ ما هي الأعراض؟".

فأجابتْ: اعتقدتُ أنِّي تحسَّنت، فقد حدث ذلك منذ شهر، ثمَّ عاد الأمر مرَّة أخرى، هذا الصّباح، لقد استخدمتُ أكثر من قماشة ورميتها".

فطمأنتها: "لا تقلقي، هذا يحدث لكلِّ فتاة، ويعني أنَّكِ كبرتِ، لستُ أدري كيف أقولها لكِ، إنَّها الدَّورة الشَّهريَّة، تأتي للمرأة كلّ شهر، ألم يخبركِ أحد بهذا من قبل؟ ألم تخبركِ أمُّكِ بها؟" فأومأتْ بالنَّفي، يا له من عار، أين مدام سرِّي من بنتها؟ أهي مشغولة بالعلاقات الاجتماعيَّة عن بنتها؟ ولكن لماذا؟ لماذا كلّ هذا؟

حاولتُ أنْ أطمئنها، حيثُ إنَّها دائمًا تثق في كلامي، فشرحتُ لها كيف تأتي الدَّورة وتنقطع عند الحمل، ونصحتها أنْ تذهب للصَّيدليّ وتشتري أقمشة خاصَّة بالدَّورة.

في الوقت الذي كنتُ أتقن فيه دور العمّ لسيرين، كان جريج، الزّوج المرتقب، يؤدِّي دوره على أكمل وجه، فهو الموهوب، والأنيق، والذي يتميّز بجاذبيَّة خاصَّة، لدرجة أنَّ سيرين قالت ذات مرَّة لإحدى صديقاتها: "إنَّ زوجي المرتقب رشيق جدًّا" فقالتْ صديقتها: "سآخذه منك إذا شعرت بالملل" نعم، هو رشيق، مفعم بالصّحَّة والابتسامة الدَّائمة، وشعره الذي يهزّه كلَّما خرج من السِّباحة.

لقد كان يعامل سيرين بمنتهى الشّياكة، ولم يكن غيورًا، فكم من مرَّة يتركها في القاهرة ترقص مع الآخرين بينما هو يتناول الغداء مع أصدقائه، ولم يظهر عليه أيّ شكٍّ عندما تخرج مع أيِّ شخص، فمرَّة شاب أمريكيّ، لا أكاد أعرفه، يُدْعى ستيفنسون، اصطحبها للخارج فسألت جريج عمَّا إذا كان قلقًا فقال لي: "ستيفنسون؟ إذا لم أكن أثق فيها قبل زواجنا، فلا مستقبل بيننا".

كلُّ واحدٍ كان يعرف أنَّ سيرين هي لجريج، مما جعل الأمر صعبًا على أيّ أحد من أصدقائنا أنْ يفرِّق بينهما، أو بلغة اليوم يخطفها منه.

وفي الجانب الآخر كانتْ سيرين تتعامل مع الجميع باهتمام كبير، فكان الجميع يعجب بها، لقد كان بداخلها الطَّابع المصريّ: أنَّ المرأة عليها أنْ تُرضي الرَّجل.

ومن ذلك الاهتمام، كان جريج في إحدى المرَّات يلعب تنس، وكانت المباراة صعبة، ولكنَّه في النِّهاية فاز، فصاحت سيرين: "لا عجب أنَّ كلَّ البنات يعجبن به" فقلتُ لها: "وأنتِ؟" فقالتْ: "طبعًا، إنَّه بطلنا، علاوة على أنَّه رشيق ووسيم، أنا فخورة به جدًّا".

كان أحد أصدقائنا، تيدي، يشاهد معنا المباراة، فبعد أنْ ذهبت سيرين مع جريج، عرض أن نتمشَّى لنشرب شيئًا، وكان تيدي مثل ستيفنسون، خرج عدّة مرَّات مع سيرين.

أثناء تواجدنا في شارع إبراهيم باشا تنهَّد وقال: "لماذا جريج وسيرين لا يسرعان في الزّواج؟".

لقد كان تيدي مستهترًا، لقد كتب ذلك في خانة الوظيفة في الباسبورت، وكان يعمل كلّ جهده ليثبت ذلك، فما كان يترك حفلًا إلَّا حضره، ولا مسابقة، ولا سباقًا.

جلسنا في شبرد، في بلكونة تطلُّ على شارع إبراهيم باشا، والشَّارع من تحتنا يكتظّ بالباعة، من سرج الجمال إلى الجعلان والخرز الأزرق للحماية من الحسد.

سألته: "أتحبّ أنْ تتزوَّج سيرين؟"، فأجاب بوضوح: "حالًا، ممتازة، عيونها الخضر!".

أنا أوافقه، فبالنِّسبة لي عيونها برموشها الطّويلة تحمل دائمًا ابتسامة مشربة بالرّقَّة.

كان تيدي شاعريًّا في كلامه فتنهّد وأردف: "تجعلك تمسك أنفاسك لكي تنظر لها، ومع ذلك أنا مسرور لأنِّي لا أستطيع الزَّواج منها، تفتكر سينفع يأيُّها الرَّجل؟".

أكيد اندهشت من قوله "تفتكر سينجح؟"، ولكنَّه ابتسم واستأنف: "خلف هذا الجمال الخارجيّ قلب ينبض بالدِّفء، وحول هذا القلب قطعة صغيرة من مصر القديمة، البنت عارفة ما المطلوب منها"، فسألت: "تقصد جريج؟"، فسألني: "هل تعتقد زواجهما سينجح؟".

فأجبت: "نعم، إنَّهما يحبَّان بعضهما البعض"، فقال: "هل أنتَ متأكِّد؟".

فقلت: "نعم، مثلما قلت توًّا إنَّهما متناسبان".

فقال: "أنتَ طيّب، ليس معنى ذلك أنَّ الزَّواج ناجح".

فقلتُ له: "أنتَ متشائم".

ــ ليس تمامًا، ولكن انظر أيُّهما جريج يحبّ أكثر، سيرين أم البولو؟

ــ لا معنى للمقارنة هنا، فأنتَ كمَن يسأل طفلًا أيُّهما يحبّ أكثر، أمّه أم الدّرَّاجة؟!

ــ أنتَ على حقٍّ، وأيضًا أنا على حقٍّ، سنرى... لا تفهمني خطأ فسيرين تحبّ بطريقتها، نعم، هي ستكون زوجة جيّدة، ولكنْ عندي شعور أنَّها ستحتفظ بقليل في قلبها المصري، قل ١٠٪، كاحتياط.

ــ وتلك ١٠٪، لمن؟

ــ حبّ في السِّرِّ، عليكَ أنْ تفكِّر في ذلك.

فقلت له وهو ينفث بالسّيجارة فوق رأسي: "لماذا تدخّن هذه السَّجائر السَّيِّئة؟ فتنهَّد وقال: "الحياة مليئة بالأشياء السَّيِّئة".

يا لها ملاحظة غريبة من تيدي، وكيف أكّدها بنظرة عينيه، وبإيقاع صوته، إنَّني لم أعتبر نفسي قبل زواج جريج وسيرين إلَّا صديقًا مخلصًا لسيرين، وحتَّى إنْ لم أكن أحبّ أيّ فتاة فعندي مجموعة كبيرة من الصّديقات.

هل كان تيدي يلمِّح إلى أنِّي أحبّ سيرين سرًّا، وظللتُ أشرب كاسًا أخرى بعد أنْ ذهب تيدي، مفكِّرًا في ملاحظته الأخيرة "عليك أنْ تفكِّر في ذلك".

لماذا؟ وأنا لم أشعر في أيّ لحظة بنوع من الغيرة أو الحقد، لقد كانتْ علاقتي مع سيرين هو أنَّنا مشتركون في كثير من الطِّباع، فنحن نحبّ القراءة، والرَّسم بينما جريج يهتمّ بالرِّياضة، وسيرين كانتْ تعتبر منزلنا أنَّه منزلها، فكانتْ تأتي ونتحدَّث إمَّا ونحن نشرب المشروبات في الدَّاخل إذا كان الجوّ باردًا، أو في الجنينة، بينما يكون جريج في النَّادي.

وكانتْ تتعمَّد أنْ تغيظني بالسُّؤال عن حياتي العاطفيَّة، فالقاهرة تترعرع على الأقاويل، فما من ملاءة على سرير إلَّا وهناك مَن يتحدَّث عنها، لذلك عندما كانتْ تقابلني في الجنينة تعطيني حضنًا أخويًّا وتقول: "هيًّا، قلْ".

ــ أقول ماذا؟

ــ أنتَ عارف، سالي، كلّ واحد يقول إنَّك نمت معها الليلة قبل الماضية، أليس صحيحًا؟ قل لي كيف شكلها؟

شقشق الفجر على شبرد، ومازلت أحتسي المشاريب، وأتساءل لماذا سيرين وأنا متقاربان؟ رغم أنَّها أصغر منِّي، وجريج أكثر حيويَّة منِّي؟ لربَّما لأنَّ لنا القدرة على قراءة أفكار بعضنا البعض.

لقد كنت الرَّجُل الوحيد، على حدّ علمي، الذي علم أنَّ بنت السَّابعة عشرة وجريج تضاجعا، في الليلة التي كنتُ أرقص فيها مع أمِّي وكانت سيرين وجريج يتراقصان مع آخرين ثمَّ تبادلا النّظرات، ونظرتْ لي سيرين نظرة عرفت منها أنَّهما ناما معًا، ولأوَّل مرَّة أشعر بالغيرة، حيثُ شعرتُ بألم وأنا أتصوّر أنَّهما عاريان معًا على السِّرير، وكانت تلك مثل ألم عضويّ ذهب بسرعة نظرة بيننا.

قد تتخيَّل أنَّ كلَّ ما كنَّا نفكِّر فيه في تلك الأيَّام هو المتعة، ولكن هناك جانب آخر من الحياة، وهو عملي الذي أطلعني على جوانب أخرى في مصر، غالبًا ما عرفت حياة الرّشوة، والفلَّاحين المضطهدين، والقتل، والفقر والاغتصاب والسّياسة.

أثناء تلك السّنين التي كنَّا نكبر فيها، كان المصريُّون يطالبون باستقلالهم، فكان هناك كثير من الاشتباكات، والاغتيالات، وصور الانتقام، كلّ ذلك كان يسير للأمام، كما يسير النِّيل، وأحيانًا يتحوَّل لفيضان، إنَّ المجازفات التي مررنا بها أنا وسيرين، أصبحت الآن مجرَّد ذكرى، ولكنْ أتذكَّر عليًّا، وكان شابًّا صغيرًا، وهو يرفع علم مصر عام ١٩٢٢، حين نالتْ مصر استقلالها، وإنْ كان هناك بعض الشّروط مثل إشراف بريطانيا على الجيش، ولكنَّه كان استقلالًا، فالخديوي الذي أصبح سلطانًا عام ١٩١٤ أصبح الآن ملكًا، الملك فؤاد ذلك الطَّاغية الذي يمنحه الدّستور الآن حقّ تعيين خمسين من أعضاء البرلمان، وحقّ حلّ

البرلمان، والأمر بانتخابات جديدة، والذي يسلب الفلّاحين الفقراء، بل والأغنياء أراضيهم ليصبح هو أغنى رجل في مصر، ثمَّ يفقد كلّ ذلك بعد ذلك.

لم يكن الملك فؤاد محظوظًا في ابنه، الأمير فاروق، فكان يسخر دائمًا من جلده النَّاعم كالأنثى، وكان يشكو دائمًا لسرِّي باشا من أنَّ ذلك عار عليه لدرجة أنَّ أحد الأطبّاء قال لسرِّي باشا سرًّا إنَّ تصرفات الملك تجاه فاروق قد يكون لها تأثيرٌ سلبيٌّ على رجولته.

بعد عامين، تمَّ اغتيال القائد البريطانيّ للجيش المصريّ؛ مما أدَّى لإحكام القبضة على المصريين، وتهميش الاستقلال، فأصبح فقط على الورق، وبذلك أصبحت الوزارة دُمى في يد الحكومة البريطانيَّة.

وبمرور السِّنين عادت الهتافات المطالبة بالاستقلال التَّام، وذهبَ البعض لقولها عالية بالانجليزيَّة أمام مقار البريطانيين في مصر.

بحلول عام ١٩٣٥ كانتْ هناك سلسلة من المظاهرات، حتَّى شملت الطَّلبة، ولا سيَّما في نوفمبر، حيثُ شهر رمضان الذي أعطاهم الحماس للمزيد.

لم نكن خائفين من ذلك، ولكن كان هناك شيء شخصيّ، وهو أنَّ تيدي كان قد دعاني لنقضي ليلة عند هرم سقَّارة مع مجموعة من البنات، ولما كان الوقت فيضان النِّيل سألته هل المكان أمان، وكانت الإجابة السَّاخرة أنَّ هضبة سقَّارة أعلى من الفيضان، ولكن اضطررت أنْ أسأله عن الأمان السّياسي فقال لي ساخرًا إنَّه لم يدع أحدًا من الطّلَّاب الذين يتناولون الحشيش في تلك الليلة لكي يشاركوه متعته.

٤

في صباح يوم اثنين في شهر نوفمبر ١٩٣٥، دعاني سرِّي باشا بالتّليفون لأتناول معه قدحًا من الشَّاي في المساء، وأبلغني بأنَّه ليس هناك ضيوف غيري، وكان ذلك غريبًا أنْ يدعوني سرِّي باشا لوحدي.

تجمَّعت الأسرة كلُّها عندما وصلت، وكانت مدام سرِّي، هكذا كانوا ينادونها لكونها من مواليد فرنسا، ولذلك لم يكن غريبًا أنْ تكون سيرين صورة من أمِّها كالعادة في منتهى الشّياكة، كان علي موجودًا كعادته متجهِّمًا، فحينما قال سرِّي إنَّ تيدي أخبره بأنَّ مجموعة منَّا ستذهب لنزهة ليليَّة لهرم سقَّارة المدرّج قاطعه عليّ: "يجب أنْ يعودا للمنزل مبكِّرًا قبل المظاهرات، أكيد أنتَ قرأتَ ما قاله العجوز المهترأ الأحمق صامويل هوري وزير الخارجيَّة البريطانيَّة ليلة السّبت".

لقد كنتُ متعاطفًا مع عليٍّ في هذا الشَّأن، حيثُ إنَّ صامويل هوري كان أخرق عندما أعلن أنَّ بريطانيا لا ترى أنَّ الوقت مناسبًا لكي تنال مصر الاستقلال.

حتَّى أنَّ سرِّي باشا كان غاضبًا من هذا، وقال إنَّ لديه نسخة من خطاب صامويل، وراح يقرؤه علينا "إنَّ مزاعم أن نعترض على عودة حكومة الدّستور لمصالح لنا كلام غير صحيح، ولكن نصحنا بعدم جديَّة دستور ٢٣ ، ٣٠ ، طالما الأوَّل أثبت عدم صلاحيته، والثَّاني غير مرغوب فيه، فالتَّاريخ والجغرافية ربطا ثرواتنا معًا، وكأصدقاء يجب أنْ نتعامل بشفافية معًا.

فقلت: "هذا شيء مخزٍ" معتذرًا عن هذا الأسلوب المتملِّق الذي يخفي وراءه إيهان بريطانيا بأنَّ مصر غير قادرة على حكم نفسها.

وصاح عليٌّ: "هذه بلدنا!" فقال له سرِّي: "انتبه للغتك" وانصرف عليٌّ من الحجرة، كان سرِّي باشا ملتزمًا بالسّلوكيَّات فأردف: "أنا فاهم مشاعر عليٍّ، ولكنَّه حادٌّ"، فقلتُ له: "لا تقلق"، وأضافتْ مدام سرِّي: "إنَّه شاب صغير السِّنِّ"، فقلتُ في نفسي: "ليس معنى أنْ تكون شابًّا أن تكون تافهًا" فكلّ المصريين يشعرون بأنَّ الاستقلال مربوط بشروط، فبريطانيا تشترط وجود قوَّات لها لكي تحافظ على شريانها المؤدِّي للهند، وقناة السّويس أصبحت في غاية الأهميَّة بالنِّسبة للموقف الدّوليّ، فهتلر يرفض البند العسكريَّ من اتفاقية فيرسيل، مستوليًا على سار، بينما في تشيكوسلوفاكيا تمَّ انتخاب الحزب النَّازيّ على أنَّه القويّ رغم الكره له.

فقلتُ وكأنِّي أفكِّر بصوتٍ عالٍ: "إنَّ الاتفاقيَّة بين التّشيك وألمانيا هو كلمة مؤدّبة تعني الاستيلاء"، فقال سرِّي وهو يتنهّد: "آه، عارف، ولكن أين فرنسا؟".

فتساءلتْ مدام سرِّي: "مسيو هوراي سيقابل مسيو لافال، هل ممكن أنْ يعملا حاجة؟".

فقلتُ: "الاثنين أسوأ من بعض"، فقال سرِّي: "آه لو أنَّ بريطانيا تضع ثقة أكثر في المصريين، فأنا عارف أنَّ قناة السّويس مهمّة، وخصوصًا أنَّ موسيليني في حالة هياج في أفريقيا، ولكنْ هل نستطيع مساندة جيشنا؟".

لم أكن لأقول أنَّ بريطانيا لا تثق أصلًا في الجيش المصريّ، وليس ذلك بسبب عدم شجاعتهم، ولكن بسبب الفساد الذي جعلهم غير أهل ثقة،

فكلّ واحد يعرف الكتائب التي على الورق، والتي يصرف لها مرتّبات موظّفين، ومؤن للجنود.

فقلتُ ضاحكًا: "دعنا من السّياسة، خلِّيها لعليّ وأصحابه، وهوراي".

ــ موافق وخصوصًا أنَّني أريد أنْ أطلب منكَ خدمة، لو غير مناسبة لك ارفضها فورًا، فهي لا تستحق كثيرًا من الاهتمام"، فتمتمت بأدب: "تحت أمرك".

ــ تتذكَّر ثيودافيدسون الذي تغدَّى معنا من يومين؟ رجل الأعمال الأمريكيّ الذي قضى وقتًا طويلًا في باريس يدير أعمال استيراد وتصدير؟".

ــ طبعًا أتذكَّره.

ــ تعرف أنَّه أرمل ومعه بنت في العشرينيَّات؟ ولم تتفسّح سوى للمتحف، ولما سمعت أنَّك تنظِّم نزهة قلت يمكن أنْ تشاركوها معكم.

وقالتْ مدام سرِّي: "الذي يقصده زوجي يا عزيزي هو أنّك صغير ووسيم، وهذه الشَّابة الجميلة لوحدها في القاهرة".

ــ سأفعل ما بوسعي.

فقال سرِّي: المشكلة أنَّ سيرين كان نفسها تروّح، وطبعًا قلت إنَّها صغيرة.

فأضافتْ مدام سرِّي: "هي غيورة جدًّا لأنَّها عارفة أنَّ الفسحة في ضوء القمر، وأنَّ جريج رايح معكم، وأيضًا بنتان من صائدات السّمك"، وصائدات السّمك هو المصطلح الذي كان يطلق على الفتيات البريطانيَّات اللاتي يجئن القاهرة بحثًا عن أزواج، وابتسمتْ قائلة: "آه أنا

عارفة كلّ حاجة، وواثقة أنّ تيدي يعمل كلّ حاجة صح، سيرين تقول لي كلّ شيء".

إنّها سوف تكون حفلة رائعة، تبدأ بالغداء والرَّقص في نادي الجزيرة، ثمَّ الذّهاب للهرم بالسّيَّارات، حيثُ نأخذ الأحصنة لهرم سقَّارة، لقد أرسل تيدي من قبل الخدم بالطَّعام ولكي ينصبوا الخيمة، بعد العشاء نعود بالأحصنة لمينا هاوس حيث نغيّر الملابس بعد أخذ الحمَّام ثمَّ العودة للمنازل.

عندما وصلتُ لفندق شبرد وجدتُ دافيدسون ينتظرني في البهو، وطلب لي مشروبًا وجلسنا في ركن وأخذ يحدِّثني عن بارمي بنته وأنَّها رغم ثراء أبيها تعيش حياة بسيطة، وأنَّها كاثوليكيَّة ملتزمة ولا تشرب شيئًا من الكحول، أخبرته بأنَّ الحفل بها بعض الدّبلوماسيين، وبها خدم قائمون على الخدمة فقال: "أنتَ رفعتَ حملًا من دماغي، يا مارك، وأنا لا أحبّ أنْ أفسد متعتكَ، ولا أنكر أنَّ بارمي لم تزر إلَّا المتاحف فهي من هذه النّوعية، وحين اقترح سرِّي باشا هذه الرِّحلة رحّبت بها، وأشكرك على أنَّك ستتحمَّل فتاة لم تعرفها من قبل، أنا واثق أنَّها ستنبسط".

وبينما نحن جلوس، ظهرتْ بارمى في البهو وكدتُ أترنَّح من فوق الكرسيّ، ربَّما تكون متبلّدة الحسّ ولكنَّ الجمال والعقل نادرًا ما يلتقيان، فبارمي ذات جمال مدهش، بعيونها الزَّرقاء الواسعة، وشعرها الأصفر المرسل على كتفيها، وقوامها الرّشيق، ورغم أنَّه من الصّعب تكوين رأي أو انطباع إلَّا أنَّني أشعر أنَّها تخفي شقاوة مكبوتة خلف وجهها البريء.

فقالتْ لي بنوعٍ من الاحتشام: "إنَّه لطف منكَ أنْ تضمّني معكم في هذه الرّحلة يا سيّد هولت".

فقلت لها: "ناديني بمارك"، وقال أبوها مبتسمًا: "أتمنَّى لكم وقتًا سعيدًا"، وتوجَّه لي سائلًا: "متى ستعودون؟".

ــ سأحضرها لكَ في أمان السَّاعة الثَّامنة صباحًا.

فصاح مندهشًا: "صباحًا! إنَّها لم تبتْ خارج البيت أبدًا حتَّى في حفلات الكلّيَّة، ماذا ستفعلون كلَّ هذا الوقت؟".

فأخبرته بخطّ سير الحفلة وقلت لبارمي: "هل أحضرت أشياء ركوب الخيل؟" فأشارت لشنطة سفريَّة.

وكأنَّه يكتم بعض الهواجس قال: "أنا واثق فيك يا بارمي، وأنتَ أيضًا يا مارك".

فردّت: "طبعًا تثق فيَّ، أنتَ عارفني جيّدًا".

بدأنا طريقنا من شبرد بمحاذاة النِّيل ثمَّ كوبري بولاق، وفي هذه اللحظات، بينما كانتْ غارقة في المقعد بابتسامتها سألتني: "هلْ يقدّمون الشَّامبانيا في الحفلة؟".

ــ نبيذ أبيض.

ــ أكرهه، كلّ مرَّة أخرج من البيت أذهب لشرب الشّامبانيا.

ــ سندبِّر لكَ بعض الشَّامبانيا.

وبينما أقود السّيَّارة، وهي مازالت تجلس في براءتها وضعت يدها على يدي واعتصرتها وقالتْ لي: "لن أستطيع أنْ أشكرك على هذا، هل تعرف أنِّي لم آكل أبدًا خارج المنزل لأنَّ أبي يقول لي أنَّه ملوّث"، فصحتُ: "كلام فارغ".

ووصلنا نادي الجزيرة، وكان عليَّ أنْ أسجِّل اسم بارمي كضيفة، وأريتها المكان المخصّص لها وقمت بعمل جولة معها قبل أن نذهب لغرفة

الطَّعام حيثُ فهمتها أنَّ في البوفيه المفتوح يجب أنْ ينتهي جميع الطَّعام سواء من العملاء أو من الخدم النُّوبيين، على أنَّ النَّادي لا يقدِّم إلَّا الطَّعام الطَّازج، فقالتْ بارمي مبتسمة: "والطَّعام غير ملوّث؟".

ـــ طبعًا، ولكن كنوعٍ من الحيطة هيًّا لطاولتنا ونتناول بعض الدَّواء.

ـــ تقصد الشَّامبانيا؟

ـــ أنتَ عرفت لغتنا الخاصَّة.

ذهبنا لقضاء السَّهرة، وعند مدخل الصَّالة سألتني بارمي عن التّواليت فوجّهتها له، ودخلت الصَّالة حيثُ كان تيدي وجريج يشربان، وحين دخلت قال لي تيدي: "سمعتُ أنَّك تورطت مع موعد مفروض" وقال جريج: "حاول سرِّي أنْ يورّطني مع تلك الفتاة ولكن تخلّصت منه".

وبينما نتجاذب الحديث ظهرتْ بارمي في الصَّالة فشهق جريج وتيدي شهقة عالية وقالا: "هل هذا هو الميعاد المفروض؟" فقلت: "نعم، هذا هو الميعاد المفروض" وتقدَّمت نحو بارمي سألتها أنْ تقبّلني قبلة خفيفة لكي أثير غيرة تيدي وجريج، ولما كانت بارمي تحبّ أنْ تقوم بالعمل كاملًا طوَّقتني واحتضنتني وقبَّلتني قبلة طويلة.

وأخذنا نتناول المشروبات والطَّعام وأعجبت بارمي بالكفتة جدًّا، كان التّراس يطلّ على الملاعب الخضراء بعيدًا عن تُراب القاهرة، وحضر الباقون بما فيهم البنات الصَّائدات وقدّمت لهم بارمي.

جاء جريج يطلب من بارمي أنْ ترقص معه تانجو، وكذلك تيدي طلب أنْ ترقص معه فوكس تروت، فقلت لهما "لن ترقصا معها قبلي يا أوغاد".

وأثناء الرَّقص قلت لها: "أبوكِ شديد ومتديّن".

ـ نعم، هو كذلك، وكذلك أنا، أعتبر الدّين جزءًا من حياتي وطبيعتي.

في حاولي السَّاعة الواحدة تركنا نادي الجزيرة متَّجهين للهرم، سألتني بارمي عمَّا إذا كانت حياتي كلّها هكذا... رحلات وحفلات، فأخبرتها بأنِّي أعمل بجانب ذلك، ولكن هناك مَن هم كذلك فمثلًا تيدي كاتب في خانة الوظيفة "مستهتر"، وسألتني عن جريج وماذا يعمل فأخبرتها بحبّه للبولو، ورغبته في التحاقه بالجيش.

وتمشَّيْنا بالخيل في سقَّارة تحت ضوء القمر، ولم تكن بارمي أوَّل من يشهق عند رؤية جمال مصر، وكان بصحبتنا جريج وتيدي.

فقال تيدي: "لقد تمَّ بناء سقَّارة حوالي ٣٠٠٠ قبل الميلاد، أي قبل خوفو بثلاث أسر، وطبعًا أصغر، تعرفون لما نابليون، والذي له عقليَّة حسابيَّة، رأى الهرم لأوَّل مرَّة قال إنَّ مكعب حجم الهرم يبني سورًا ارتفاعه ١٠ قدم حول فرنسا".

كان الهرم المدرَّج محاطًا بمئات من المقابر الصَّغيرة، وبأشجار النَّخيل التي تبدو عناقيد البلح على جريدها في ضوء القمر كأسراب النَّحل.

لقد صمّم الهرم المدرّج امحوتب وزير الملك زوسر، الملك الثَّاني في الأسرة الثَّالثة وجعله على هيئة مصاطب بعضها فوق بعض بحيث يصغر الحجم من أسفل إلى أعلى، ولذلك سمِّي بالهرم المدرَّج.

فسألت بارمي: "ولكن لماذا في هذا المكان المهجور؟".

فقال تيدي: "هذا المكان كان ممفيس، عاصمة مصر في ذلك الوقت، وكانت من أعظم الأماكن في زمانها، ولقد أطلق المصريُّون القدماء كلمة الكيمي على أرض مصر وهي ترجمة حرفيَّة لكلمة أرض مصر، وهناك كما

ترينَ النِّيل، هناك مقولة مصريَّة، إنْ لم تعش بجوار النِّيل فأنتَ لم تعش في مصر". إنَّ الفيضان السَّنويَّ يغيِّر وجه الصَّحراء ويحوِّلها لفترة قصيرة لمنظر خلَّاب.

إنَّ المنطقة التي أقيم عليها الهرم مرتفعة، فلذلك حينما يفيض النِّيل لا يصلها الماء.

وصاحتْ بارمي عندما رأتْ أحد القوارب الصَّغيرة، فالقرويُّون يعملون تحت ضوء القمر، وكانتْ بارمي تصيح كلَّما رأت شيئًا جديدًا عليها مثل الجمال أو الثِّيران التي تدير السّواقي.

تمَّ نصب الخيمة والتي كانت بقرب الهرم بعدة مئات من الأمتار، وقام الخدم النوبيُّون بجلابيبهم البيضاء بتجهيز المشروبات والمأكولات.

وقالت بارمي عندما قدَّم لها الخادم طبقًا من كبدة الوزّ وشريحة من العيش البلدي: "هذا غريب! أنا أكيد رأيتُ هذا الخادم من قبل" فقلتُ لها: "هذا حسن، خادم مدام سرِّي ربَّما رأيته هناك"، فقالتْ: "ألديه وظيفتان؟"، فقلتُ لها: "لا، ولكنَّ النَّاس في مصر يستعيرون الخدم من بعضهم البعض، ومعنى أنَّ حسن هنا فأكيد سرِّي باشا والعائلة يتناولون الغداء في الخارج، وذلك لأنَّ تيدي ليس عنده خدم كثير لشقّته أو بالأحرى الشّقّتين نظرًا لأنَّه عازب.

ــ ولماذا يمتلك شقّتين؟

ــ سأقول لك فيما بعد.

٥

لم يحدث شيءٌ في نزهة منتصف الليل، فكلّنا كنَّا ننام على مرأى من بعض، ولم يحدث شيءٌ أيضًا في مينا هاوس.

أخذت بارمي في السَّيَّارة الكرسلر لكي نعود لشقَّة تيدي، فقالت لي وهي شبه نائمة: "أنا معجبة بكَ يا مارك، معجبة بك جدًّا رغم أنِّي لست فاسقة، إلَّا أنَّه، هذا الجوّ الصَّحراويّ...".

ـ تذكَّري أنِّي وعدتُ أبوكِ.

ـ وعدت!

وأخذت تتنهَّد "كنت أحبّ أبقى مدَّة أطول".

ـ أنا أيضًا، ها قد وصلنا لشقَّة تيدي، جوعانة؟

ـ جدًّا جدًّا.

وصلنا جوار جاردن سيتي حوالي السَّابعة صباحًا، وليس عندي فكرة عن المظاهرات التي حذَّرني منها عليٌّ، حيث هناك بعض من النَّاس بجوار وزارة الخارجيَّة والبرلمان، لذلك ركنت السَّيَّارة بعيدًا في شارع جانبيّ، وحذّرت بارمي بأنَّ المصريين عندما يهتاجون يحطِّمون السَّيَّارات الفاخرة، فلذلك يجب أنْ نمشي على أقدامنا، ووضحت لها سبب المظاهرة حينما سألتني لم كلّ هذه الضَّجَّة، وفهمتها أنَّ الوقت في رمضان حيثُ يصوم المسلمون مثل الصّوم الكبير ولكن أشدّ قسوة، من الشّروق للغروب، ولا يعفى منه أحد، وقلتُ لها مداعبًا: "إلَّا إذا كنتِ حاملًا".

وصلنا أخيرًا لشقَّة تيدي من شارع جانبيّ متفرِّع من شارع الفلكي، وكانت في الدّور العلويّ حيث كنَّا نستطيع منها أنْ نرى كلَّ الذي يدور في

الشَّارع، زادت أعداد المتظاهرين وانضمَّ لها آلاف من البشر، وجاءت سيَّارات الشُّرطة بالعصيّ التي راحتْ تضرب في المتظاهرين، وحينما جاء ضابط انجليزيّ في سيَّارة مكشوفة قابله المتظاهرون بوابل من الحجارة، ففتح البوليس النَّار على الطلبة والمتظاهرين وقتلوا منهم طالبًا مات في الحال وجرحوا الكثير.

كان الطلَّاب يتجمَّعون في شارع الفلكي، حيث أقيم سرادق كبير كان فيه النَّحَّاس باشا زعيم حزب الوفد يستعدّ لإلقاء خطابه.

صاحت بارمي بعد أنْ تناولت بعض القهوة: "مَن يشرح لي ماذا يعني حزب الوفد" فقلت: "هو حزب شامل كما كان أبي يسمِّيه، حيثُ يتساوى فيه الفلَّاحون والبشاوات، وحيث فيه كلّ الطَّبقات وصنَّاع المشاكل والمتظاهرون والمثقَّفون، كلّهم يجمعهم هدف واحد هو الاستقلال، خصوصًا الاستقلال من بريطانيا" فقالت: "ويقودهم النَّحَّاس باشا؟ هو شاب ممتاز؟".

ــ رجل عظيم، أمين وخطيب مدهش، وله لمسات عطوفة، فذات مرَّة رأى ولدًا يضرب حمارًا فقال له بحزم: "الحيوانات لا تتكلَّم ولكنَّها تفهم، والبشر يتكلَّمون ولكن غالبًا لا يفهمون".

وحاولت بقدر الإمكان شرح الدّور الذي يلعبه النَّحَّاس باشا في السّياسة المصريَّة، فكما قلت لها، حزب الوفد لا يريد متشدّدًا شيوعيًّا لزعامته ولا رأسماليًّا، ولكنَّ النَّحَّاس هو الوسطيّ، بسلوكه الودود والمتبختر، وكان يأكل الزَّبادي أو اللبن المختّر بشراهة، وكان يمشي لكلِّ الأماكن، ويستقل أحيانًا المترو من مصر الجديدة، حيثُ يقيم، وكانتْ إحدى عينيه بها حول بسيط، وكان غير مهندم، ولكنَّه كان خطيبًا مفوّهًا.

طلبتْ بارمي أنْ تتَّصل بأبيها لكي يطمئنَّ، وفعلًا أتيتُ لها بالتّليفون وكلّمته وطمأنته.

صعدنا للروف جاردن، حيث ترامت القاهرة أمام أعيننا بمآذنها التي تشبه الأصابع المطليَّة، والتي تأخذ القلعة خلفها كخلفيَّة.

وكان أسفلنا مباشرة تلك الجموع التي تجمهرت أمام وزارتي العدل والماليَّة والبرلمان في شارع الفلكيّ، والبوليس يطارد بالضّرب هذه الجموع، واختلطت أصوات الجرحى مع أصوات الغضب، وذهبنا لتناول الإفطار، وبعد أنْ تناولنا القهوة سألنا تيدي إذا كنَّا نريد أنْ نرتاح قليلًا.

فذهب البعض لحجرة إضافيَّة، وتيدي اختار غرفته مع صديقته، ورحت بالتَّالي أسأل بارمي إذا كانتْ تودّ أنْ تنام فنظرت نظرة لها مغزى مشيرة للخدم والغرف التي تتجاور، فنظرت بالتَّالي نظرة لها مغزى لتيدي وقلتُ له: "نريد أن نذهب أنا وبارمي، لازم نروح شبرد؛ لأنَّ أبوها..." ففهم تيدي ما أريد.

أخذت بارمي تجاه الممرّ الذي كان مغطّى بورق الحائط إلَّا في منطقة لا تكاد تُرى وهي عبارة عن شرخ طوليّ وبه مكان كمقبض لا تراه إلَّا بصعوبة.

وضع تيدي بهدوء مفتاحًا في مكان المقبض، فإذ بباب ينفتح لشقَّة أخرى، وهو ما أعرفه عن أنَّ تيدي يستأجر شقّتين تفتحان على شارعين مختلفين وجعل بينهما جدارًا خفيًّا لا يعرفه إلَّا قلَّة من أصدقائه المقرَّبين.

فتساءلت بارمي: "غرفة سرِّيَّة؟".

ــ لا، ولكنَّها شقَّة متّصلة تطلّ على شارع قصر النِّيل، للطّوارئ.

دخلت غرفة المعيشة والتي تقابلها غرفة النّوم، وكان في الصَّالة لمبة حمراء تضيء للتّنبيه في حالة الضّرورة.

قالتْ بارمي بعيون ضاحكة: "الآن نحن لوحدنا، يا ترى للشّقَّة مفتاح خاصّ بها؟".

فقلتُ ضاحكًا: "لا، لستُ أنا مَن يغري البنات البريئة للشّقق السِّرِّيَّة، تقدري أنْ تذهبي في أيّ وقت".

لم أصدِّق الفارق الذي وجدته في بارمي ونحن على السّرير، لم تكن تلك المتكاسلة، كانت لطيفة، فقد كانت متعطّشة للحبّ، أو بالأحرى للجنس، وبعد فترة، شهقت شهقة عالية وتنهّدت تنهيدة تنمّ عن الرِّضا: "آه، هكذا!".

مرَّت فترة من الصّمت، بدأتْ تمسح على وجهي وقالتْ هامسة: "أنتَ رجل يا مارك، رجل بجدّ، أخيرًا عملتها، عمري ما أحسست كاليوم، تعرف أنَّه من ثلاثة شهور ما لمسني أحد، وكنت حابسة هذا في داخلي، متضايقة لأنَّنا سنمشي بعد يومين، لمَ لمْ نتقابل قبل ذلك! افتح لنا زجاجة شامبانيا، مَن يعرف ماذا سيحدث".

وبينما كنَّا نجلس على السّرير نرتشف الشّامبانيا أضاء فجأة الضّوء الأحمر على الجدار المقابل، فقفزت من على السّرير فورًا، وأخذت الشّامبانيا تندلق على الفراش والأرضيَّة، واحترت ماذا أفعل، ورحتُ أبحث عن مكان أخبِّئ فيه بارمي، يا ترى الحمَّام أم المطبخ، وفتحت دولابًا وأخذت منه ثوبًا لبارمي لكي ترتديه، ودفعت معها زجاجة الشّامبانيا، وعلى الفور سمعت صوت المفتاح يدور في القفل، فأغلقت الباب على بارمي، ولففت فوطة على وسطي، وبادرتُ تيدي شاخطًا لولا أنَّه

أخرسني بصوته قائلًا: "أنت عارف أنّي لن أخذلك، ولكنَّ صديقًا لنا وقع في مشكلة عويصة، عليّ بن سرِّي باشا، وهو جريح".

فذهلت وأنا أتساءل ما الذي جاء به لهنا، وماذا يفعل هنا؟

ــ البوليس ضربه على رأسه، هو وزميل له، وجاء في شقَّة الفلكي كي أساعده، والبوليس كان وراءهم فأحضرتهم هنا.

ــ لكن لماذا؟

ــ كان في المظاهرات ضدّ الانجليز وزميله أحد قوّاد المظاهرات، وكلّ هذا جزء من قضيّتهم.

فقلتُ غاضبًا: "وما علاقة عليّ ابن الأثرياء بالمظاهرات؟".

ــ المهم لازم آخذه للحمَّام أنظّفه قبل أنْ تأتي الشّرطة في الشَّقَّة الثَّانية، أين صاحبتك؟".

ــ في المطبخ مع الشّامبانيا.

وفي هذه اللحظة دخل عليّ سرِّي غرفة النّوم، ومعه زميل له مشجوج في جبينه شجًّا كبيرًا، فأخذ عليٌّ يجفّف الدَّم الذي كان ينساب من الجرح على ملابسه.

وعندما رآني عليٌّ بالفوطة التي على وسطي قال: "يظهر أنَّك كنتَ تمتّع نفسك".

فقلتُ له: "وما المشكلة، وأنت أيضًا كنتَ تمتّع نفسك".

فغمغم: "حاجة بسيطة، نقطتان دم علينا ليس أكثر".

وقال تيدي: "سأروح الشَّقة التَّانية يمكن البوليس يحضر، ولكي أخلّيهم بعيدًا عن هذه الشَّقَّة".

ـ لا تقلق، لن نبقى طويلًا، ولم ألحظ بشكلٍ كافٍ الرَّجل الذي كان مع عليٍّ إلَّا عندما كان عائدًا من الحمَّام، لقد كان طويلًا، له أنف بارز، أسمر اللون، ويحمل نفس شعار عليّ المشاكس "أنا لي حقّ عندك أنْ أعيش على حسابك"، أيًّا كان فالشَّجّ الذي كان في جبينه كان عميقًا، ولم يخطر على بالي أنَّ الجوّ كان رمضان ولا أحد يستطيع أنْ يرتشف قطرة ماء حتَّى غروب الشَّمس.

أخيرًا أخذ عليّ يقدّم كلًّا منَّا للآخر قائلًا: "هذا صديق العائلة، مارك هولت، وهذا صديقي جمال مضرب عن المدرسة، وقد شقَّ جبينه البوليس الغبيّ".

وعندما ذهب جمال مرَّة أخرى للحمَّام لينظّف الجرح قلت لعليّ: "إنَّه صغير" فقال عليّ: "لكن عبقري، أعرفه منذ عام، إنَّه خطيب بالفطرة، يسحرك بمجرد أنْ يتكلَّم، لو سمعته حين يخطب لقلت إنَّ النَّحَّاس باشا مبتدئ في الخطابة، ربَّما هو صغير في السِّنّ، ولكنَّ عروقه ملتهبة بالحماس".

ـ ماذا قلت اسمه بالكامل؟

ـ لم أذكر اسمه بالكامل ولكنَّه جمال عبد النَّاصر.

٦

لم أكن أعطي لجرح عليٍّ أيَّ اهتمام لولا أنِّي قرأتُ عنه في اليوم التَّالي في جريدة الجهاد وبعض جرائد القاهرة الأخرى، لقد توقّعتُ أنَّ سرِّي باشا سينزعج ويشتاط غضبًا من هذا الخبر.

لقد ذكر الخبر باختصار "وكان من بين الجرحى طالب يُدْعى جمال عبد النَّاصر به شجّ عميق في جبهته كالهلال سيظلّ طوال حياته، ونجل رَجُل مهمٍّ في القصر هو ابن سرِّي باشا وبه جرح سطحي، وقد عرف أنَّ ابن سرِّي باشا وصديقه قد رآهما البوليس يدخلان شقَّة مستر تيدي بولوك صديق عائلة سرِّي".

عرفت فيما بعد من سيرين القصَّة التي تسرَّبت بأنَّ عليًّا وجمال عبد النَّاصر بعد أنْ خرجا من شقَّة تيدي استمرَّ جرح جمال في النَّزيف بغزارة فذهب به عليّ لإحدى المستشفيات واضطرا أنْ يسجّلا اسميهما لإمكانيَّة العلاج، ثمَّ تتبع صحفيٌّ القصَّة.

أتذكَّر أنَّ هذا الحدث لم يذكر في الجازيت المصريَّة النَّاطقة بالانجليزيَّة والتي يعوّل على قراءتها سرِّي باشا الكثير شأنه شأن أيّ دبلوماسيّ، وعرفت من أحد الأصدقاء أنَّ الخبر تمَّ حجبه عن الجازيت بأمر من رئيس التَّحرير، وذلك بناء على تدخُّل أمريكيّ بالتَّحديد من السَّيِّد ستيفنسون الذي تربطه علاقة بأسرة سرِّي باشا.

بعد يومين أرسل سرِّي باشا سيرين لي ولجريج لكي نتناول معه الشَّاي بعد الإفطار وأخبرتني بأنَّ الأمر يتعلَّق بعليّ حيث يوبّخه سرِّي باشا لاختلاطه بطبقة البروليتاريا.

كان الغضب قد تملَّك سرِّي باشا، الذي لا يغضب إلَّا نادرًا، وأخذ يتكلَّم بصوت غاضب وهو يشير للصَّفحة الأولى من جريدة الجهاد: "ماذا أقول لأصدقائي ولقصر عابدين؟"، وأضاف بمرارة موجِّهًا كلامه لنا وهو يشتاط غضبًا: "ابني أنا ضدّ الحكومة، ويتشابك مع البوليس مع هذا الولد التَّافه"، وكاد ينفجر له عِرْقٌ من الغضب، "ابن البوسطجي"، واحتقنت الدُّموع في عينيه وهو يقول: "الشَّيء الوحيد الذي يجعل الحياة تستحقّ العيش هو أنْ يكون لكَ أولاد تفتخر بهم، ولكنَّ عليًّا، الثَّورجيّ! كيف حدث، قل لي يا مارك ماذا حصل؟".

فأجبته بحرص: "ليس عندي أيّ فكرة".

فقال: "وأنت يا جريج، أنتم كنتم هناك لما البوليس راح لشقّة تيدي يبحث عنهم".

فقال جريج: "لا، أنا لم أكن هناك"، وكان مطمئنًّا لأنَّه يقول الحقيقة، وأضاف: "أنا لم أذهب هناك الصّبح، لما شفنا الزّحام هناك رحنا البيت مباشرة".

فاستدار سرِّي لي: "وأنتَ يا مارك؟".

ــ أنا لم أقابل أحدًا منهم هناك.

ــ تيد أخبرني أنَّكَ كنت هناك، وأنَّ البوليس راح يبحث عنهم هناك.

ــ ولكن لم أقابل عليًّا، اضطررتُ أمشي بسبب المظاهرات التي كانت هناك، ربَّما جاء عليٌّ بعد منِّي.

وبينما نتحدَّث دخل عليٌّ بروب مطرّز بالذّهب في حوَّافه يشبه الجلابيَّة وقرأتُ في عينيه تساؤل عمَّا قلنا فبادرته: "صباح الخير يا عليّ، أنا

انزعجت جدًّا من الذي قرأته عنكَ في الجريدة، نحن محظوظون لأنَّنا رحلنا قبل الذي حصل".

فلمستُ ارتياحًا على وجه عليٍّ عندما قلتُ هذه العبارة، وكان ذلك أيضًا تلميحًا لعليّ ألَّا يذكّرني أنا ولا بارمي في الموضوع.

وانفجر سرِّي باشا في علي: "أي مصيبة شيطانيَّة خلّتك تحطّ اسمنا النّضيف في الجرائد مع هؤلاء الغواغائيين؟".

فردَّ عليٌّ: "بابا لا تظلمني، أنا تصادفتْ أنْ أكون هناك مثلما جريج ومارك تصادفوا هناك".

"لكنَّهم لم يكونوا هناك، ثمَّ إنَّ الجرائد، أسمع ما كتبته الجرائد، هذا الذي اسمه ناصر كتب يقول: "وبعد ما هربت من البوليس بفضل صديقي المخلص الذي هو أيضًا أصيب" يا ترى أنت الصّديق المخلص الذي أخذه للمستشفى، ولا تصادفت هناك أيضًا؟".

فقال عليّ: "ناصر صديقي، وإذا كنت ساعدته في الهرب من البوليس فأنا فخور بذلك لأنَّه رجل عظيم".

ــ إنَّه ولد سابق سنّه، يعوزه الأدب، إنَّه مثير للشّغب، محرّض وأنتَ أيضًا.

ــ لا أحبّ كلمة محرّض، هذا ظلم.

فسأل سرِّي متعجِّبًا: "إذًا ماذا أنتم، حالمون؟".

ــ لا، لسنا حالمين، أنتم الحالمون، النَّاس الذين يعيشون في الحياة الرَّاغدة.

ــ وماذا أنتم؟

ـ نحن الذين سنبني مصر جديدة، مصر للمصريين، ونظر لي مردفًا "ليست للأجانب".

فنظر سرِّي باشا باستسلام: "عليّ، يا بني اسمع".

ـ لا يا بابا لن أسمع، نحن نتكلَّم لغة مختلفة، أنا معجب بناصر ليس بالرَّأسماليين الذين يعيشون على حساب الفلَّاحين.

ـ اخرج، ولا تنسَ أنَّكَ واحد من عائلة الرَّأسماليين، وأنَّك تلبس أرواب مطرّظة بالذّهب، يا ترى قلت لصاحبك عن هذا، ولا أفهمته أنَّك فقير ومناضل مثل أبيه البوسطجي؟

ـ أنتَ لا تعرف لماذا نتظاهر، لماذا لا يترك الانجليز بلادنا، كما يقول ناصر هل هذه بلدنا أم مفترض أنَّها تكون كذلك؟".

ـ ناصر يقول! إذًا قُلْ إنَّ ناصر يقول نقول للانجليز ارحلوا وأولاد المدارس سيديرون البلد.

ثم نظر لي ولجريج: "ارحلوا قبل أن يأخذ ناصر وزملاؤه منكم قناة السّويس".

خرج عليٌّ، وبعده خرج جريج، وما أن هممت بأن أخرج حتَّى طلب منِّي سرِّي باشا أن أظلَّ قليلًا: "خليك قليلًا يا مارك، أنا قلقان على عليّ، ساعدني نرجّعه لعقله مرَّة أخرى".

ـ وهو كذلك ولكنَّه عنيد وليس لديَّ وسيلة لإقناعه.

ـ المشكلة أنِّي مقتنع ببعض ما قاله، كثير من السّياسيّين المصريين مفسدون، لم أقل لكَ كيف سرقني فؤاد، سرقني بالقانون، في مرَّة أرسل لي وسألني كم أريد مقابل قطعة أرض نزرع فيها قطنًا وراء النّصرانيّ فقلت له ٥٠٠ جنيه استرليني للفدَّان، فقال لي غالية جدًّا، وبعد ذلك أرسل

المقنّن الخاصّ بالحكومة وقال إنَّ الفدَّان لا يستحقّ أكثر من ٥٠ جنيهًا، واضطررت أن أعطيه الأرض طبعًا، واحد من أصحابي رفض يبيع له أرضه بهذا الشّكل فأمر الرّيّ أن تغيّر مجرى القناة التي تروي أرضه!

تركت سرِّي باشا لكي لا أسمع مزيدًا من المأساة التي يعيشها، وقابلت جريج وحكيت له عمّا حدث وعن أحلام سرِّي باشا التي ضاعت مع عليّ ولكنّها بقيت مع سيرين على الأقلّ عندما تتزوّج جريج.

قلتُ لجريج: "ماذا لو أنَّ سرِّي باشا اعتقد أنَّ عليًّا على حقٍّ؟".

ــ ماذا تعني؟ هذه خيانة.

ــ بجدّ، حط نفسك مكان أيّ مصريّ، ولا تفهمني خطأ فأنا سأدافع عن حقّنا في القناة حتَّى تنتهي مدّة الامتياز عام ١٩٦٨، ولكن ماذا عن المصريين الذين يرون أنَّ حفنة من الأجانب يتحكَّمون في بلادهم؟

ــ لكنّهم لن يقدروا أنْ يديروها بنفسهم، هؤلاء لا يعرفنَ أنْ يبنوا حمَّامًا، وهذا سبب قويّ أنّنا نفضل هنا.

حتَّى سيرين التي لا تهتمّ بالسِّياسة سألتني: "مَن على حقّ؟ بابا ولا عليّ؟".

ــ هذا يعتمد على وجهة نظرك، الاثنان، لكن لماذا تسألين؟".

ــ لأنّه من أسبوعين واحد أعطاني كتابًا لكرومر "مصر الحديثة" وكيف تكلّم فيه عن كرم بريطانيا في مصر، لكن بعد ذلك قال لي شخص ما أنّه كان فظيعًا.

ــ نعم، هو كان كذلك، طاغية، لكن لا تنشغلي بالسّياسة، لعلمك كان يمكن أن تظلَّ مصر طول عمرها متحفًا حيًّا لولا أنَّ دليسبس عمل فيها القناة فغيرها، عامة، انسي.

ــ كان مجرَّد فضول، كيف هناك ناس سعداء، وهناك ناس أشقياء.

ــ العالم كلّه هكذا.

كنَّا نتمشَّى في الجنينة حين فاجأتني سيرين بسؤالها، كعادتها لما تغيّر المواضيع: "كيف حالها، صاحبتك؟ بخير؟".

ــ بخير؟

ــ نعم، في السّرير.

ويبدو أن تيدي، ذلك النَّمام، سرّب بعض التّفاصيل عمَّا حدث في الشَّقَّة فأجبتها: "معقولة".

كنَّا نسير في الممرّ المرصوف بالحصى المحيط بالخضرة، والذي نلجأ له عندما يغمر الجنايني المكان بالمياه، وعندما اقتربت منِّي سيرين أدركت لحظتها كم هي تكبر بسرعة وكم تزداد جمالًا مبهرًا بشعرها الأصفر، والوجه الصَّافي وبجسمها الذي يستدير بشكلٍ رائعٍ، إنَّ أيّام بنت المدارس ذات السِّيقان الرَّفيعة قد ولَّت، وإنْ كانت سيرين دائمًا تتعامل معي كبنت المدارس إلَّا أنَّها مثلها كأي إنسان في مراحل النّضج تحرّكها العواطف والانفعالات الملازمة للفترة.

في هذه اللحظة كان زولا يحاول أنْ يتجنَّب الماء الذي في الجنينة ويسير في الممر، وهو يخبرني: "سي جيوفري يبعت لك السَّلام ويدعوك إلى مكتبه لكي تشربوا الشّامبانيا معًا".

فصاحتْ سيرين: "ما هذا القرف، أنا كنت على وشك أنْ أسأل عن حاجة مهمَّة تخصّ الجنس"، فقلتُ لها معاتبًا: "ما هذه اللغة، من أين أتيت بها؟".

ــ من جريج.

٧

لم يتسبّب الشَّغب في تأجيل المدارس لمدّة شهر فحسب بل وصل للحكومة البريطانيَّة، والتي غالبًا أصبحت بعيدة عن التَّطلّعات الشّعبيَّة، فالذي حدث في شارع الفلكي لا يحتاج لتلك المقولات المهدّئة.

ولذلك وبالرّغم من التّخوّفات التي سادت بين السّياسيين المحافظين قرّرت بريطانيا اتّخاذ خطوة في غاية الأهميَّة، تلك التي ستحقّق حلمًا عظيمًا للمصريين، لقد وافقت على مناقشة معاهدة استقلال تامٍّ لمصر.

وعمَّت الفرحة في القاهرة يوم أنْ قيل هذا الخبر، فالنَّاس تدفّقوا من كلّ جهة بجميع أنواع المواصلات من قطارات والأتوبيسات والدّرَّاجات والحمير والجمال والمراكب، وصل عدد الوافدين لنحو ثلاثة ملايين، وأقيمت للأطفال مراجيح مؤقّتة، والمتنزّهات في الأماكن الخضراء للشّباب، وكانت الشّيشة تدور بين النَّاس الذين كانوا يتفرّجون على لاعبي السّيرك، وآكلي الزّجاج والثَّعابين والماشين على الحبال والغوازي الذين جاءوا من شارع كلوت بيك ونواحيه ومن شادر السَّمك والمومسات اللاتي ارتدين ملابس الغوازي.

كان عليّ سرِّي من أكثر المبتهجين والذي قال على لسان سيرين: "بابا يعتقد أنَّ ناصر غبيّ ومتهوّر، ولكن معظم النَّجاح الذي تمَّ كان بسبب جمال، وأنا عملت له حفلة لما انفتحت المدارس".

طبقًا لما قاله عليّ، عاد عبد النَّاصر للمدرسة كبطل قوميٍّ والكلُّ رحَّب به باستثناء النَّاظر الذي رفض دخوله المدرسة بسبب اشتباكه مع البوليس،

فقرَّر الطَّلبة الإضراب عن الدِّراسة وجاءوا بالتّخت كلّها في الحوش وهدّدوا بحرقها إنْ لم يسمح النَّاظر بدخول عبد النَّاصر.

أخبرني عليّ فيما بعد أنَّه فخور بناصر الذي ذاكر بجهد كبير في الشَّهر المتبقّى على الامتحان وكان من القلَّة الذين نجحوا هذا العام.

قلت لعليّ في حين وقعت فيه الاتّفاقيَّة: "لم يعد هناك شيءٌ لصاحبك، ولا أنت أيضًا، لا يوجد مكان للتَّحريض بعد الاتّفاقيَّة".

ــ جمال هيخش الجيش، ثمَّ إنّنا لم نوقع الاتّفاقيَّة للآن.

كان أبي مقتنعًا أنَّ التَّوقيع الفعلي للاتفاقيَّة سيكون في آخر العام، لقد قال لي وهو يرتشف الشَّامبانيا: "رغم أنَّ هناك كثير من العمل التحضيريّ، وبما أنَّه أسند لي عمل جمع المعلومات يمكن أروح باريس لحضور مؤتمر مع الخارجيَّة، لم يرغبوا في الحضور لمصر خوفًا من الثَّعابين، وربَّما حبًّا في الباريسيَّات، لم لا" وبغمزة في جنبي لها مغزى أضاف: "لا يوجد أحد كالباريسيَّات".

وعاد ليقول لي: "بنجاح الاتفاقيَّة سترى يومًا تاريخيًّا في مصر لم يحدث من يوم الغزو العربيّ، لن تجد أيَّ عسكريٍّ في الشَّوارع ما عدا القناة، لازم نحميها، عامَّة سأروح باريس تحبّ تذهب معي؟"، وتركته يعيش في تخيُّلاته مع الباريسيَّات ومغامراته مع النِّساء، رغم أنَّه زوج وفيّ ومخلص، وكانت شيفون تعرف ذلك تمامًا، فكثيرًا ما كانتْ تقول لي: "أبوك في فترة هيجان مرَّة تانية".

كثيرًا ما كنت أناقش مع جريج عواطف والدنا ومغامراته وأنَّ أفعاله لا تتعدَّى كلماته، وأنَّه أسهل عليه أنْ يمشي من القاهرة للإسكندرية دون توقُّف على أنْ يعاكس امرأة.

عند وفاة الملك فؤاد في ٢٨ أبريل عام ١٩٣٦، عن ٦٨ عامًا، وورثه الشَّاب فاروق، لم يرث فاروق من فؤاد مملكة وثراءً فاحشًا فحسب، ولكن ميراثًا من الكراهية، فالشّعب كلّه أخذ موت فؤاد بشرى خير لبداية عصر جديد تحت قيادة أمير حيويٍّ ووسيم، بداية حقيقيَّة لحكم بلد حرٍّ.

لقد كان فؤاد طاغية في منتهى القسوة، كوَّن ثروته عن طريق مصادرة أراضي الغير القابلة للزّراعة لدرجة أنَّ أراضيه منذ تولِّيه حتَّى موته بلغتْ سبع أراضي مصر، وكان فؤاد قد أمَّن تسويق بضائعه؛ فالبوليس كان يمنع أيَّ منتجات ذاهبة للمدن الكبيرة قبل أنْ يتمَّ توزيع المنتجات الملكيَّة من خضروات وفاكهة، لقد كان فؤاد أغنى فرد في مصر فبلغت ثروته ٣٠ مليون جنيه استرليني في مصر ونصفه في البنك السّويسريّ وأوروبا.

بعد وفاة فؤاد مباشرة قال سرِّي باشا: "أنا لستُ حزينًا أن يموت الطَّاغية، نعم الولد الجديد سيكون غنيًّا لكن ربَّما يوزّع جزءًا من ثروته".

كان فاروق في السّادسة عشرة وكان قد قضى سبعة أشهر في انجلترا حينما مات فؤاد، كان الملك الكبير يتمنَّى أنْ يرسل ابنه لإيطاليا ليكمل تعليمه، ولكنَّ بريطانيا أصرَّت أن يكتسب فاروق الخلفيَّة البريطانيَّة في "ايتون"، ولكن لسوء الحظِّ بمجرَّد أن نظر المدير في ورقة امتحانه رفض قبوله، فأرسل فاروق للكليَّة الملكيَّة العسكريَّة، ورسب في الكليَّة، فالممتحن كان يستغرب من هذا الذي لا يفعل شيئًا سوى اللعب بقلمه الرّصاص ولا يكتب حرفًا، ففي الحقيقة كان فاروق يتصرَّف مثلما كان في القبّة ينتظر أحد المعلّمين ليمليه الإجابة، تجنّب فاروق الامتحان عن طريق التحاقه كطالب في الكليَّة العسكريَّة من أسرة ثريَّة.

بلغت البعثة التي رافقته عشرين رجلًا بما فيهم المعلِّمون والخدم يقومون على خدمته، يقيمون في قصر كنري هاوس في كنجستون المكوّن من ١٨ غرفة وحديقة مليئة بالورد، لقد اختار فؤاد في البداية الجنرال عزيز المصري المتنمّق في أسلوبه كرئيس للبعثة، ولكنَّ مربيّة فاروق الانجليزيَّة واجهت غضب فؤاد كما أخبرت والدي: "سعادتك لا يمكن أن ترسل رجلًا كهذا كرئيس للبعثة"، فوافقها أبي: "عندك حقّ، وبعيد عن هذا هو يكره الانجليز ويميل للأمريكان"، وبالتّالي استبدله فؤاد بالياور.

استمتع فاروق بالشُّهور التي قضاها في وولويتش، فكان يحضر الدّراسة ثلاثة أيَّام في الأسبوع، ثمَّ يركب الدَّرَّاجات والخيل في كنجستون، ويتسوَّق بالسَّاعات في بنتال، محلَّاته المفضَّلة.

وصل نبأ موت فؤاد لفاروق حينما كان يمارس القفز بالخيل في حديقة ريتشموند وكثيرًا ما كان يقع في رياضة القفز، وانتظر السّير لويس الذي أخبره بالنَّبأ لحظات ليرى ردَّ فعله الحزين ولكن فاروق قال: "سأقوم بثلاث قفزات وبعدها آجي معك".

فقال السّير: "لن تفعل أيَّ شيءٍ، انزل من الحصان".

فنزل فاروق مطيعًا، ولم يسمع ما قاله السّير لمساعده همسًا: "لا نحتمل موت ملكين من مصر في يوم واحد".

لما نزل فاروق أرض مصر تجمّعت الجماهير مهلّلين بقدوم عصر جديد واصطفّ الفلَّاحون، تاركين حقولهم ومحاصيلهم، على الجانبين وهو يسير متَّجهًا لقصر عابدين.

وراحت البنات يرمينَ أزهار الكركديه والجاكاردا، وراح القرويُّون ينحنون بظهورهم المتعبة ويقبّلون الأرض أمام الولد الملك الذي لم يقعد

على العرش في مثل سنِّه منذ توت عنخ آمون منذ حوالي ثلاثة آلاف عام ونصف قرن، أمَّا بالنِّسبة لهؤلاء الذين لا يعيشون في القاهرة فكان الاختراع الجديد يسهل لهم التَّواصل حيث يسمعونه من خلال الرَّاديو، وباللغة العربيَّة.

لقد قال لهم: "إنَّني أبدأ حياتي بقلب طيّب وإرادة قويَّة، وأنتم شهود بأنِّي أوعدكم بتكريس حياتي لمصلحتكم وأبذل كلَّ جهدي لسعادتكم، وأعلن لكم أنَّنا سنعمل معًا من أجل حبيبتنا مصر؛ لأنِّي أؤمن أنَّ مجد الملك يأتي من مجد الشَّعب، لذلك بكلِّ ما أمتلك من إرادة سأسعى لإصلاح الوطن، والله هو عوني وقوَّتي".

وفيما بعد قال سرِّي شأنه شأن الكثير: "والله أنا أرى أنَّ الولد صادق في كلامه ولو استمرَّ على هذا المنوال سينقل مصر لعصر جديد".

فقالت سيرين معلِّقة: "هو بصراحة وسيم جدًّا".

ما كاد يستقرّ فؤاد في تربته حتَّى بدأ الخلاف بين السّياسيين على السُّلطة، فكان يرى النَّحّاس زعيم الوفد أنَّه من الأصحِّ أن يتفاهم البريطانيُّون مع الحكومة غير الشّيوعيَّة لنضمن توقيع المعاهدة، وفعلًا أقنع النَّحّاس مؤيديه وكون حكومة الوفد بعد أسبوعين من وفاة فؤاد.

وشرح لي أبي الموقف بأنَّ هذا الأمر سيغيّر بعض الشّيء فالنَّحّاس سيفعل ما يستطيع ليتمّم اتفاقيّة الاستقلال وسيأخذ وراءه فاروق وأنَّ فاروق شعر بالرَّاحة لكونه لم يتعامل مع الشّيوعيين فوافقته: "كان الأمر سيكون أسوأ".

فضحك أبي: "نحن نعيش في زمن التَّقلُّبات، وسنرى إذا كان سرِّي باشا سيحتفظ بمكانه في القصر أم لا، ومثلما سمعت أنَّ فاروق حسن

لكن مجنون قليلًا، ها نحن معزومون عند سرِّي الأسبوع القادم وسنعرف كلَّ شيء".

ــ أتمنَّى ألَّا تكون عزومة كبيرة.

ــ لا أعتقد؛ فنحن كلّنا ثمانية أشخاص، بما فيهم سيرين، وعليٌّ اعتذر.

ــ سيحضر جريج؟

ــ لا، لكن هناك واحد أمريكاني اسمه ستيفنسون، يا ترى نعرفه؟

ــ قابلته مرَّة، لكن لماذا دعوة؟

كان الغداء رسميًّا بعض الشَّيء وجادًّا إلى حدٍّ ما، فسرِّي باشا كان من القلائل الذين لم يعرف عنهم الفساد، لذلك كانت حفلاته دائمًا صارمة، وربَّما كان هذا بسبب زوجته الفرنسيَّة المولد، فالفرنسيُّون في مصر دائمًا يشعرون بالقيادة.

كان الجميع يسلكون سلوكًا مسئولًا، ودار الحديث حول فاروق وتكلَّم سرِّي باشا أكثر من نصف ساعة ولم يضف جديدًا حتَّى سأله ستيفونسون عن الجنرال صادق وإنْ كان تعامل معه أم لا؟ والحقيقة أنَّ فاروق لم يستلم الحكم إلَّا من ثلاثة أسابيع، ولكنَّه عيّن معاونًا جديدًا له، الأمر الذي لم يعلمه إلَّا ثلاثة أو أربعة أشخاص في السِّفارة البريطانيَّة.

فنظر له سرِّي باشا باستغراب: "كيف عرفت؟".

فقال ستيفونسون: "سمعت من بعض الأفراد، وكذلك إشاعة بأنَّ فاروق عيّن "صادق" ليكون قوَّادًا سرِّيًّا له؛ لكي يشبع رغباته بتنظيم الوقت والمكان وإن لزم الأمر والتكاليف مع النِّساء اللاتي يرغب فيهنَّ".

فقال أبي: "كيف عرفت كلَّ هذا عن صادق؟".

ــ النَّاس تتكلَّم.

فاتجهتُ لسيرين مازحًا معها: "احترسي لو رآكِ فاروق".

فقالتْ مداعبة: "كم سيدفع"؟

بعد الغداء والقهوة ومختلف المشروبات قال ستيفونسون: "فاروق الآن مسئول عن ١٦ مليون واحد في مصر منهم مليونان فقط يعرفون القراءة والكتابة، ولا توجد قرية فيها مياه صالحة للشّرب، ولا حتَّى دكتور"، واستمرَّ قائلًا: "مصر فيها ثلاثة آلاف الأطبّاء كلّهم في المدن، وهذا سبب انتشار الأمراض في مصر، والسبب في أنَّ مصر من أعلى نسب الوفيات في الأطفال، لازم فاروق يعمل حاجة، إنَّه من بين أربعة أطفال واحد يموت في أيَّامه الأولى، ومَن يعيش يصاب بالانكلستوما والاسكارس، وواحد من اثنين يصاب بمرض العيون، أي واحد يقدر يمشي في شوارع القاهرة ويشوف عدد العميان في الشَّوارع".

فسأله أبي وهو يمسك بالسيجار الكوبي: "من أين جئتَ بهذه المعلومات؟".

ـــ "من إحصائيَّات عن الشَّرقِ الأوسط في واشنطن".

فقال سرِّي باشا: "هذا هو البلد الذي سيحكمه فاروق، يا ليته يسيب القصر ويشوف البلد"، وأردفَ: "أنا مستغرب، عرفت منذُ أيَّام حينما كنت أفحص الجراح أنَّ فاروق مجنون سواقة؛ ولذلك عنده مائة سيَّارة، منهم عشرة روزلايس رغم أنَّ المسافة لغاية الجيزة ١٢ كيلو، إنه لم يزر الهرم أبدًا".

جلس أبي وسرِّي باشا ليلعبا الشّطرنج، وقبل أنْ نلحق بالآخرين أوقفت ستيفونسون في حجرة الملابس وسألته عن حادثة الجازيت وكيف أن الأمريكيين يحاولون السَّيطرة على الصُّحُف البريطانيَّة، فقال لي: "آه،

حادثة علي والجازيت؟ هي محاولة ساعدت بها عائلة سرِّي"، وحكى لي كيف طلب من أحد العاملين في الجريدة أن يختصر الخبر، وكانت قصّته التي حكاها لي تختلف عن تلك التي حكاها لي أحد العاملين في الجريدة.

٨

كان من عادة أبي إذا أراد أيُّ واحد منَّا بها فيهم أمِّي أنْ يترك لنا ملحوظة على باب الغرفة أو يرسلها مع أحد الخدم في الصَّباح.

وفي أحد الصَّباحات ترك لي خبرًا أنَّهُ يريدني، فذهبتُ له السَّاعة الثَّامنة صباحًا قبل أن أذهب للمكتب، ودخلتُ عليه مكتبه حيث كان يشرب الشَّامبانيا.

وكان على مكتبه الصيني بعض الجرائد فقال: "آه طبعًا! فاروق لايزال صغيرًا وليس عنده خبرة؛ لذلك الخارجيَّة طلبت منِّي أوافيهم بمعلومات عنه قبل أن يوقعوا نهائيًّا على الاتفاقيَّة، وطلبوا منِّي أقابل بعض المسئولين في باريس"، وأضاف: "لذلك قلتُ لنفسي نعملها رحلة عائليَّة، الرِّحْلَة لفرنسا جزءٌ من علم الرَّجُل"، فصحتُ: "رائع، متى سنذهب؟".

وقبل أن نبدأ رحلتنا كان لابدَّ أنْ أفي بوعد قطعته، وهو إلقاء بعض المحاضرات في القانون في جامعة فؤاد، لقد كانتْ جامعة رائعة مكتظَّة بمئات من الطَّلبة.

كان بين المحامين المفترض أنْ أتحدَّث لهم خصم قديم "فتاح عزام" واحد من أفظع وكلاء النِّيابة في مصر؛ فمظهره دائمًا حقير، وعلى بدلته المكرمشة بقايا من الرّماد، ولكنَّه بارع فلا تفوت عليه أي مكيدة في المحكمة، فشاورتُ له، جاء ومدَّ يده مصافحًا: "جميل أنِّي أشوفك، لكن لم مضيعة الوقت، هؤلاء الرِّعاع لن يبقوا محامين عاديين، ناهيك عن محامين الدّفاع"، فقال دونالد شيلدز، زميلي الذي انضمَّ لنا: "عندك حقّ،

الحقيقة أنَّ الدّراسة أصبحتْ رمزًا اجتماعيًّا، ونصف الطلبة أو أهاليهم يدرسون لكي يفتخروا أنّهم يعرفون القانون".

في آخر المحاضرات جاء لي أحدُ الطَّلبة، وقال لي: "آسف، لم يكن عندي وقت لكي أحضر وأشكرك".

فأجبته وأنا متعجّب: "لا شيء تشكرني عليه، كلامي عادي جدًّا".

كان الشَّاب أسمرًا، وحواجبه كثّة الشَّعر، وأنفه بارز، وبدا لي أنّي أعرفهُ، وقد لاحظتُ أنَّ بجبينه أثر لشجٍّ على هيئة هلال. قال لي: "ألا تتذكرني؟"، فقلتُ له وأنا مادد له يدي: "طبعًا فاكرك، ناصر، أليس هذا اسمك؟ لما جئت أنت وعلي شقةَ تيدي وأنا كنت نصف لابس"، وضحكتُ وقلتُ بجدِّيَّة: "لا أعرف أنَّك تخطِّط لتبقى محاميًّا"، فقال لي: "لا، إنِّي آخذ بعض المعلومات عن القانون و...".

ــ "لكي تقول أنَّك رحت مدرسة الحقوق؟"، وأخذت أفكّر في كلام تشيلدز الذي قاله توًّا، وأضفت بشيء من الحدَّة: "ربَّما تجد الاستماع للمحاضرات أمرًا مملًّا، وأيضًا المحاضرون يشعرون بالملل حينما يحاضرون لناس يأتون الجامعة ويقولون أنَّهم غير مهتمين بالموضوع، عامَّة أنا لستُ أستاذًا جامعيًّا، إنِّي أعطي المحاضرات تطوعًا مساعدة للطلبة".

فقال ناصر: "آسف لم أقصد ذلك، لكن هناك بعض المشاكل".

فأدركت أنَّه يعاني بعض المشاكل ويحتاج لمن يسمعه؛ فقلتُ تلقائيًّا: "هيَّا نشرب فنجانين قهوة" "لا، ليس في الكانتين، هناك على النَّاصية قهوة هادئة في شارع أحمد باشا، كثير من أساتذة الجامعة يجلسون فيها"، وتبعني ناصر وجلسنا وطلبنا قهوة تركي، فسألته: "مضبوط؟" فأومأ بالإيجاب، فهو أيضًا يحبّ القهوة مضبوطة.

وبادر ناصر شارحًا: "ليس الموضوع أنِّي لا أحبّ الحقوق، لا أدري ماذا أقول، لو أنِّي أحببتُ أنْ أدرسه سأضطر أقعد في البيت"، ونظر إليَّ نظرة ثاقبة وأضاف: "لا أستطيع أنْ أفكِّر في الأمر، لنْ أحتملَ زوجة أبي".

إذا الأمر هكذا، واستمرَّ في شرحه للموقف كيف أبوهُ عبد النَّاصر حسين تزوَّج مرَّة أخرى، وزوجته كانت تكره ابن زوجها، فأردفَ "الوضع حاليًا في منتهى السُّوء، والدي غضبان جدًّا، أحيانًا لا نتكلَّم مع بعض لمدة أسابيع، أب وابنه، ما هذه الحياة؟".

فسألته: "ما البديل؟".

ـ "حاولتُ الحصول على مأموريَّة في الجيش، تقدمت للأكاديميَّة العسكريَّة الملكيَّة".

فقلت له وقد تذكَّرتُ أنَّ أباهُ موظَّف في البريد وأنَّ الأكاديميَّة الملكيَّة تناظر ملكيّة ساندهورس في بريطانيا: "أليس هذا طموحًا كبيرًا جدًّا ؟".

فأجاب بنوع من التَّذمُّر: "نعم ، لقد طلبوا منِّي إذا كنت أعرف أحدًا من الباشوات أو البكوات. رفضوني لأنَّه ليس لي علاقات عائليَّة، أو خلفيَّة، لكن سأحاول مرَّة أخرى. معي موعد في اليومين القادمين مع موظف في الحربيَّة، أتمنَّى التَّوفيق. على أيَّة حال الآن مصر طالما ستستقلّ ستحتاج جيشًا كبيرًا".

وتساءلت متى أقابل "ناصر" مرَّة أخرى، فحينما قابلته في شقّة تيدي لم أتخيَّل أنْ أراه مرَّة أخرى، وها قد قابلته بعد شهور.

وبعد أنْ قابلتُ "ناصر" ببضعة أيَّام في مدرسة الحقوق، وفي ليلة سفرنا لفرنسا قابلته مرَّة أخرى في منزل سرِّي باشا. لقد ذهب جريج لكي

يحضر سيرين للعشاء، وقد ذهبتُ أنا لأودّعهم. فبمجرَّد أنْ اقتربت من النَّافذة الفرنسيَّة سمعت بعض النَّاس يتحدَّثون فرآني عليّ وناداني قائلًا: "عندنا صديق لكَ يا مارك، تعالَ سلِّم عليه".

وكان هناك "ناصر" و"جريج"، ورأيتُ جيم ستيفونسون معهم.

قالت لي سيرين: "أصدقاء الأوبرا سيعقدون حفلة كبيرة، وأنتم لن تكونوا هنا"، واقتربت منِّي لتحييني وأردفت" ماما في اللجنة، وجيم وعدني أنَّه سيأخذني، بعد إذن جريج، إمَّا عليّ أو جيم، وعليّ مملّ دائمًا يتكلَّم في السياسة".

وكانت فرصة أنِّي أتفحَّص ستيفونسون عن قرب، لم أرتحْ له، ربَّما ليس هناك تعاطف بيننا، وربَّما لأنَّنا مجموعة اجتماعية وتحفظه ينفر وأخذت أفكِّر في ذلك حتَّى قاطعني عليٌّ بقوله: "سمعت أنَّ جمال ساب الحقوق؟".

ــ "كنت عارف أنَّه سيعمل هذا".

فردَّ جمال: "من يوم ما قابلتك وقدرت أعمل مقابلتين مع وكيل إدارة في الجيش وسمح لي أنِّي أتقدَّم للامتحان في خلال شهر أو اثنين، سيعرّفني ميعاد الامتحان خلال يومين".

فقلت له: "مبروك، وهي فرصة إنّك لا تكون في البيت".

فقال بحماس: "أصغر خيمة في الجيش في صحراء العالم تكفيني".

ــ "أتمنَّى لكَ حظًّا سعيدًا"، ومدَّ جمال يده لي فتصافحنا وأومأ لي إيماءة لها مغزى، وتخيَّلت أنَّه يقول في نفسه "على الأقلّ هناك واحد انجليزي أقدر أصاحبه"، وربَّما كنت أتخيّل هذا.

قلت لسيرين لما جمال راح لعلي في الجانب الآخر للغرفة: "صاحب علي سيحبط لو لم يدخل الجيش، لازم يقبل أعتقد أنّه خامة جيّدة للجيش"، فضحكتْ سيرين قائلة: "تتكلَّم عنّه وكأنَّه قطعة قماش، إنَّه من الثوَّار".

ـــ "الجيش سيضعه في حجمه".

كان عليّ وناصر يتحدثان بعمق، واستطعتُ أنْ التقطَ بعض الحوار، حيث كان عليٌّ يقول لناصر: "لا أستطيع أنْ أوعد بأيّ حاجة، بابا غضبان جدًّا من الذي حصل، لكن يمكنه أنْ يكلِّم لك شخصًا ما، خلِّي هذا الموضوع عليَّ".

في هذه اللحظة دخلت مدام سرِّي وزوجها الحجرة، وبعد تعارف سريع، كان سرِّي باشا يعامل ناصر برقَّة، جاءت مدام سرِّي باشا لتتكلَّم معي، وكنتُ، كالعادة، مبهورًا بجمالها وأسلوبها، في مرَّة قال أبي عنها: "تكون في غاية الجمال لما تلبس فستان السَّهْرة المزركش وتقف على سلّم صالة الرَّقص وهي تنظر للضّيوف".

إنَّ لها سلوكًا ملكيًّا، وإنْ كانت أحيانًا تبدو مضطربة ولكنَّها دائمًا بشوشة ونشطة. وعندما اقتربت منِّي قالت بالفرنسيَّة: "رحلة سعيدة لباريس، اوعى تخلِّي باباك يضلّلك هناك، ولربَّما يمكن يحصل العكس".

ـــ "كلّنا سنخلِّي بالنا من بعض".

ـــ "طبعًا جريج لن يحتاج مراقبة".

ـــ "أكيد".

ـــ "وقاطعنا سرِّي باشا بسؤاله: "أليس هذا ستيفونسون الصَّغير؟".

فقلت: "نعم".

ـ "أصل كلّ الأمريكان شكلهم واحد، الذين نقابلهم في السّلك الدبلوماسي كلّهم شبه بعض".

قبل التَّفاصيل الأخيرة في التَّرتيب للسفر لباريس، شرح لي أبي دوره الذي سيؤدِّيه. وإذا كان أبي أخبرني أنَّ الخارجيَّة طلبتْ منه تقريرًا عن الملك الشَّاب، فإنَّه قال لي وهو يبتسم: "الأمر أكبر من ذلك، إنَّهم أرسلوني رسميًّا لإجازة غير رسميَّة".

ـ "تقصد في السِّرِّ".

ـ "إذا أحببتها هكذا لا مانع؛ لأنَّ وجودي في فرنسا لن يكون سرًّا، لكن المفروض أنَّها صدفة، فالسَّيّد جونسون ميكارثي من مكتب القاهرة بعث لي رسالة مشفرة"، وأعطاني أبي الرِّسَالة بعد فكّ شفرتها لكي أقرأها، بينما صبَّ لنفسه كأسًا من الشَّامبانيا. تقول الرِّسالة: "إنَّكَ تعرف السِّياسيين المصريين بصفة شخصيَّة ولاسيَّما النَّحَّاس باشا. فإنَّهم معجبون بك ويثقون فيك. بالطَّبْع سيكون السَّفير في الضّوء وكلّ القرارات البريطانيَّة ستصدر منه، ولكنَّنا نفضل أنْ تبقى أيّ مساومة سرّيَّة في يدك، فلو حدث أيّ خطأ لا تتورّط الحكومة رسميًّا فيه، وقد تمَّ اتخاذ هذا القرار بعد تشاورات مع السَّفير".

وأعطيته الرّسالة: "رائع، إذا هناك صفقة".

ـ "نعم، وستقدّم بريطانيا تنازلًا، ولكن له ثمن. فهناك التزام تامّ من مصر بأنْ تكونَ هناك منطقة تحتفظ فيها بريطانيا بقوَّات على القناة، وهناك مشكلة أخرى، فهتلر يغزو أوروبا بعنف، وموسوليني يرمي بثقله في أفريقيا، وهناك احتمال لو حصلت حرب مع ألمانيا ممكن أن نشتبك مع مصر".

ـ "لكن هذا مستحيل".

ـ "أتمنَّى أنَّكَ تكون على حقٍّ، وأنا أعتقد أنَّ ألمانيا على المدى البعيد ستكون أخطر من إيطاليا. انظر للذي حصل في ألمانيا في الثَّمانية عشر شهر التي مضتْ. اليهود المحرومون من الحقوق القانونيَّة، فظيع! والعلم الألماني الجديد، الصَّليب المعقوف، وألمانيا استردَّت "سارا" مرَّة ثانية، ورفضت الاعتراف بالفقرة العسكريَّة في معاهدة فرساي. واحتلَّت هذا العام منطقة رينلاند المجردة من السِّلاح، ليس سيئًا لعريف أنَّه يعمل كلَّ هذا".

ـ "لكن إيطاليا؟".

ـ "عارف إن الإيطاليين أشرس، ويمكن أنْ نواجّهها، ولكن الفرنسي لا يمتلك الشَّجاعة، وماذا عن معاهدة هوراي لافال؟ كان هوراي سيئًا بما فيه الكفاية، ليس له عقل لكي يوقِّع المعاهدة في إثيوبيا، أمَّا بالنّسبة للافال من نظرة واحدة أنَّه من عصابة درجة ثالثة".

ـ "أنا أعتقد أنَّك لازلت متشائمًا".

ـ "أنتَ الذي لا تصدِّق أنْ يحدث كلّ هذا، وعلى العموم مهمّتي أنْ أقنع النَّحَّاس ليوافق على الفقرة التي تريد بريطانيا أنْ تضيفها".

ـ "والتي هي؟".

ـ "إنَّه في حالة الحرب تسمح مصر لبريطانيا باستخدام أراضيها ومطاراتها وموانيها والحدود... إلخ".

ـ "وهل مصر توافق على كلِّ هذا؟".

ـ "أتمنَّى، وعلى العموم موافقة النَّحَّاس ممكن يستخدمها من أجل شيء لا يهمّنا لو يحصل عليه".

يمكن أن أستشعر بأنَّ روح التَّحدّي تمتلك أبي؛ لأنَّه من الصَّعب التَّعامل مع المصريين؛ لأنَّهم لا يثقون في البريطانيين، باستثناء أبي، ولعلَّه ينجح في إقناع النَّحَّاس.

مكثنا في فندق ريتس في باريس، ومارس أبي عمله، وكنتُ أساعده فيما هو قانوني، وبكون النَّحَّاس رئيس وزراء تحت الملك فاروق، صار من المهمّ أن يحصل على الموافقة بالاستقلال، وكان على بريطانيا أن تحرص على وجود بند حماية القناة.

قال لي أبي: "أنتَ ترى من الوفديين أنَّ كلَّ المصريين سياسيون، ومعظم البريطانيين إمَّا جنود أو فنيون، فبينما النَّحَّاس يحلم بمعاهدة سياسيَّة، الوايتهال ينظر للموضوع بأنَّه تدريب فنِّي للدِّفاع"، وأضاف بعد تنهيدة، وكأس من الشَّامبانيا "أنا خائف من العقليَّات العسكريَّة أنَّها تنهي استعمار مصر، لكن بدون استقلال فعليّ، طبعًا لن تكون هناك صداقة مع مصر لما تعطيها معاهدة استقلال، ولازال جنودك فيها بحجة الحماية".

ــ "لكنَّ المصريين سيوافقون؟".

ــ "سيضطرون، ليس أمامهم اختيار، وأيضًا يمكن أن نقول إن منطقة القناة ليست مصريَّة طالما القناة مستأجرة لبريطانيا".

أمِّي بلا شكّ لم يكن لديها الوقت لكي تعرف أين أبي ولا ما يحدث في كواليس السّياسة، لقد كانت في منتهى السَّعادة لكونها تتسوَّق كيف شاءتْ وتشتري ما تريد. لقد أرتنا فستانًا غريبًا بجرار، ويبدو باهظ الثَّمن فأعجبنا به، وحين سألها والدي عن الثَّمن قالتْ إنَّها لا تدري، فقد

أرسلت الفاتورة على أبي. وطلبت منِّي أنْ أذهب معها لكي تشتري بعض الأشياء، وبعد تردّد وافقت لما كان أبي لا يحتاجني في ذلك الوقت.

أمَّا جريج فكان يقضي وقته في أماكنه الخاصَّة، ولما سألته لم يجبني إجابة كاملة، غير أنَّه كان يبحث عن لوحة مناسبة لكي يهديها لسيرين.

في إحدى الأمسيَّات اقترح أبي أن يأخذنا لفولي بيرجير، حيث الفتيات يرقصن التريبتيز، ولكنَّ أمِّي فضَّلتْ أن تذهب مع صديقاتها للتّسوّق، فذهبنا أبي وجريج وأنا، ولقد أكَّد لي جريج أنَّ الفتيات في هذا المكان كلهنَّ مومسات لمن يستطيع، ولكنِّي رأيتهنَّ جميعهنَّ بلا مشاعر. وكان أبي لا يريد أكثر من الفرجة. وعدنا بالليل لأماكننا. وأخبرني جريج فيما بعد أنَّه حظي بإحدى الفتيات. فقلتُ له: "خف"، فقال لي: "أنتَ ستقضي عمرك في الدّير، أنت لازم تعمل مقدّمة من أجل الزّواج".

ـــ "أنا لا أحتاج مقدّمات".

لقد كان ما يحدث في مصر يشغلني عن البنات.

في نهاية الأسبوع الثَّاني، حيث كانت الاجتماعات أصبحت سرِّيَّة للتَّسريبات والتَّلميحات، أخذت أتجوّل في شوارع باريس، أتفرّج على البنات وهنّ في ملابس السَّهرة. فجأة مرَّ بسرعة بجواري أتوبيس، لمحتُ فيه فتاة تقف في الخلف بشعرها الأصفر المهفهف، فصحتُ: "بارمي!"، ولكن الأتوبيس اختفى.

فتذكَّرت أنَّها تقضي شهورًا مع والدها في باريس، وكانت قد أخبرتني من قبل مكان إقامتها في باريس، فبذلتُ جهدي حتَّى تذكَّرت رقم التّليفون في الفهرست ومعه عنوان الإقامة فاتَّصلت في الحال.

لقد كانت هناك وردَّت عليَّ، فقلتُ: "حسنًا أنِّي وجدتك، هل من فرصة نتقابل؟"، وكدتُ أسمع دهشتها وسرورها بسماع صوتي، فقالتْ: "طبعًا طبعًا، يا مارك، تعالَ حالًا نشرب حاجة معًا وبعدها ننظِّم لقاءاتنا في الأيَّام القادمة، بابا ليس هنا، راح لعمل ولن يرجع إلا بعد أربعة أيَّام"، وأضافتْ بضحكة: "أنا عندي هنا مطبخ حلو". لم أفهم المغزى، فسألتُها: "هل ستطبخينَ لنا شيئًا ما؟".

ـ "لا، لكن أنا فاكرة إنّك غريب في ممارسة الجنس، وتحبّ البنات في المطبخ".

ذهبنا في الحال للغداء في الخارج، وبعد أن تناولنا الوجبة الأساسيَّة جاء النَّادل ليسألنا عن الحلو، فقالت له: "نحن متعبون جدًّا، ولابدَّ أن نروح لننام".

قضينا الأيَّام التَّالية في الفسح حول البرّ الغربي وممارسة الجنس، وكانتْ بارمي تعطي كلَّ شيء بدون أيّ معوّقات، حتَّى كنتُ أتساءل عن تديّنها الشَّديد، وحتَّى إنَّها لم تحاول أنْ تلمّح مرَّة أنَّ ما بيننا حالة حبّ.

في مرَّة من المرَّات، حيث كنَّا نحتسي قهوة في ديزماجوت، استأذنت منِّي لتشتري شيئًا ما وأنَّها ستعود حالًا. لمحتها تدخل كنيسة سانت جيرمن فتبعتها سرًّا، رأيتها تركع في الكنيسة وتصلِّي، وبعدها ذهبت للمذبح ووضعت شمعتين، وسبقتها للكافيه وسألتها لما عادت، فقلتُ: "اشتريتِ ما تريدين؟".

ـ "آه، شمع"، ولم أسألها أين الشَّمع؛ لأنَّها لم تكذب، لكن كم هو مدهش أن أقابلها مرَّة أخرى.

في طريق عودتنا للاسكندريَّة عن طريق البحر، وكنت أتمشَّى على السَّطح، قالت لي أمِّي: "يا حبيبي أنا قلقانة عليك، أنتَ تعبت جدًّا في الشُّغل ولم تنمْ جيّدًا".

ــ "هذه باريس يا ماما، وأنا لا أعرف أنام في غير مكاني".

وتجاذبنا الحديث، جريج وأنا حول الرِّحلة، وسألته عن زواجه لسيرين فقال: "أنا أحبّها جدًّا، ومَن لا يحبّها؟".

ــ لكنَّكَ لستَ مخلصًا لها.

ــ السِّتَّات المصريَّات يعرفون أنَّ الرَّجل لازم يعيش حياته قبل ما يعيش بلادة الزَّواج".

وسألني مرَّة أخرى: "ماذا فعلتَ أنتَ في باريس؟"، ولما ألحَّ أجبته: "كنتُ مع بارمي، تعرفها؟".

ــ "آه عارفها، أنت ولد نتن، خلّتها لنفسك فقط؟".

فقلتُ مازحًا: "لم أرضَ أنْ أجعل بابا يغير".

٩

كان مكتبي يقع في شارع متفرِّع من شارع إبراهيم باشا. كان يطلّ على حديقة الأزبكيَّة، حيثُ المساحات الخضراء والمنصَّات التي في المنتصف والتي كانت تعزف فيها الفرق الموسيقيَّة البريطانيَّة بعد العشاء، لقد كانت المزامير البريطانيَّة مشهورة في مصر لدرجة أنَّ المصريين كانوا يعزفونها في فرقهم الخاصَّة.

وكان مكتبي أيضًا مؤثثًا بأثاث بريطانيّ قديم يثير غيرة زملائي، ولا يخلو من الزَّبائن الذين كانوا مقتنعين كالبريطانيين تمامًا أنَّه كلَّما كانت المرافعة محرِّكة للعواطف، كانتْ فرص البراءة أكبر.

لم يكن الجوّ مريحًا في المكتب في ذلك اليوم الحار، ولم يكنْ لديَّ مكيّف، فقرّرت أنْ أترك المكتب مبكّرًا لولا أنَّ "محمد سالم" موظَّف المكتب من أيَّام المحامي الذي قبلي، خبط على الباب ليعطيني كارتًا مكتوبًا فيه مستر باسيلي ثيوكرات، وكيل فنَّانين، فسألتُ محمَّدًا: "يمكنني أنْ أقابله".

ــ "نعم يا فندم، هو وكيل خاص للسّتّ سامية، المطربة، إنَّها حلوة جدًّا".

وسامية هذه تكاد تكون الوحيدة في شمال أفريقيا المعروفة باسمها الأوّل فقط، اسمها جميل ويستحضر صورًا كثيرة، ومع ذلك لم أرها أبدًا، ولا معظم الذين يعبدونها، مثلما يعبد الأمريكان نجوم هليود. كانت شهرة سامية كمطربة بسبب الرَّاديو، حيثُ كانتْ تغنِّي كلّ يوم جمعة في الرَّاديو المصري. فكان الجميع من الخليج الفارسي حتَّى المحيط الأطلنطي يديرون

مؤشّرات الرَّاديو على المحطّة. لقد كانتْ صغيرة في السّنّ، ومثيرة. والذي كان يثيرني أيضًا أنَّها بدأت فقيرة تدور على حمار في الأرياف من أجل حفنة ملاليم. وبعد ذلك اشتغلت في الرَّاديو وبدأت شهرتها، وكانت تعمل في أشهر المسارح في القاهرة.

وأخيرًا تلقَّت دعوة من رجل شاب يحبّ الموسيقى، والبنات. شاب له من العمر ستّة عشر عامًا، وسيم، الملك فاروق. ولقد دعاها لكي تغنِّي في قصر عابدين.

قلت لسالم: "خلِّيهم يتفضَّلوا".

كان ثيوكرات من النَّاس المنمَّقين، سلوكه من الدَّرجة الثَّانية، مداهن.

أمَّا المطربة الشَّهيرة كان أكثر مما توقّعت، فمدى علمي أنَّ المشاهير مغرورون، ومختالون، ولكنَّها غير ذلك، فكانت بسيطة ببشرتها السَّمراء ووجهها البيضاوي وشعرها الفاحم الملقى على كتفيها، والأهمّ من ذلك روحها المرحة وعقليّتها المتفتّحة وشخصيّتها التي تتمتَّع بمقوّمات النَّجاح.

عندما تحدّثت لها بالعربيَّة أبدت شيئًا من الانبساط قائلة: "هكذا التَّفاهم سيبقى أسهل، كنت متوقّعة أنَّ ثيكرات سيقوم بالتَّرجمة".

ــ "وهو كذلك، مشكلة اللغة انحلّت، لكن بالمناسبة... ما الذي خلّاك تختاريني؟".

ــ واحد صديق... أمريكاني، اسمه ستيفينسون.

ــ ستيفنسون! يا للمفاجأة.

ــ تعرفه؟

ــ طبعًا، مُرِيني.

ـــ أريد منك النَّصيحة في قرار خطير، الدَّكاترة قالوا لي أنّي لن أستطيع الغناء أكثر من سنة؛ ولذلك لابدَّ أن أغير لمهنة اكتسب منها العيش.

ـــ هل يمكنني أن أسألك عن المرض؟

ـــ متاعب في الغدَّة الدَّرقيَّة.

فقاطعها باسيلي ثيوكرات: "ذهبنا لأحسن الدكاترة"، فقاطعته قائلة: "باسيلي، من الممكن تتركنا لوحدنا لكي أشرح مشروعي".

فأجاب مغمغمًا: "حاضر، بس سأحضر لك مرَّة ثانية يا متر لكي أعرف ماذا عملت للست سامية".

وبعد أنْ غادر سألتها مرَّة أخرى عما تريد، وكعادة العرب لم تدخل في الموضوع مباشرة، ولكن أخيرًا تكلمت: "جلالته كان معجبًا بصوتي، لكنَّه الآن معجب بجسمي".

ـــ "مَن لا يعجب؟"، فضحكت ضحكة خفيفة واستأنفت:

ـــ الموضوع ليس سهلًا كما تتصوَّر، أنا أريدك أن تتأكَّد من عقد لملهى في بناية جنب جروبي على ناصية سليمان باشا معمول لي.

ـــ والملهى ملك مَن؟

ـــ جلالته.

والذي فهمته أنَّها استغلَّت فرصة إعجاب جلالته بها، ولما كانت متيقّنة أنَّها لن تغنّي بعد سنة أرادتْ أنْ تجعل شرط الملهى دون أنْ تذكر له الحقيقة لكي تعيش منه بعد ذلك. وبينما أفكِّر قاطعتني: "أنا أريد أنْ يبقى المكان لي وأنا حرَّة فيه".

ـــ وما المشكلة؟ أعتقد أنَّ جلالته...

ـ أنا معك، لكن المشكلة أنَّ جلالته حط الموضوع كله في يد واحد من حاشيته، الجنرال صادق.

ـ آه.

وتذكَّرت ما قالته مدام سرِّي من أنَّه خنزير.

ـ هل أحسستِ بها أحسّ؟

ـ أنا لا أعرفه على المستوى الشَّخصي، لكن ما أسمعه عنه يخلّيني لا أثق فيه.

ـ أنا ما يهمِّني ألا تكون هناك ثغرة في العقد تمنعني من استخدامه كما أريد.

ـ لا تقلقي.

ووضعتُ المستندات في الدّرج، وقبل أن تعدّ نفسها للرّحيل نظرت في السَّاعة، فقمت تلقائيًّا وسألتها أن نتناول كأسًا معًا فلم تمانع، وقلتُ لها أنَّنا سنذهب لمعجبين بيها جدًّا، غير المعجبين الذين تعرفهم.

ونزلنا وسرنا حتَّى شارع إبراهيم باشا، ثمَّ قصر العيني، حتَّى وصلنا لمنزلنا. لما رأت سامية بناية المنزل أبدت إعجابها وانبهارها، وقالت: "كلّ هذا بيت؟".

فقلتُ لها: "ماذا لو رأيتِ الجنينة، على النِّيل مباشرة"، ولما رأت أحد الخدم قالت: "هل هذا هو المعجب، هل هو من النّوبة؟"، فقلت: "أبيض كالثلج".

ودخلنا المنزل وطرقت على باب مكتب أبي، حيث اللمبة الحمراء لم تكن مضاءة، ودخلت وسامية معي، فعبَّرَ أبي عن إعجابه بالفتاة التي معي: "بنت حلوة يا بني"، وطلب منَّا الجلوس، وقبل أنْ يقدِّم لنا كأسًا

من الشَّامبانيا قال: "أنتِ مسلمة ولا تشربين"، فقالت: "أشرب"، وأعطت ضحكة قصيرة. فقال أبي بعد أن سمع صوتها: "فتاة جميلة وصوتها جميل".

فقلت له: "امسك أعصابك، سأقول لك على حاجة".

ــ أكيد ستتزوَّجان.

ــ لا، هذه مطربتك المفضَّلة، وطلبت منها تحضر لكي تقابلك.

ــ إيَّاك أنْ تقول لي إنَّها السِّت سامية.

وقفز أبي من مقعده مرحِّبًا مهلِّلًا بها، وأخذ يحدِّثها عن إعجابه بها وسماعه لأغانيها ليل نهار، وأنَّها تمتلك صوتًا وصورة في منتهى الجمال، وبعد أنْ أسهب في الحديث معها، قاطعته: "بابا، السَّت سامية عندها مواعيد ولازم تمشي، وسأفرّجها على الجنينة".

ــ وهو كذلك، تعالي مرَّة أخرى من غير الأستاذ، وأنا أفرّجك على القاهرة.

فقالت له مجاملة: "وهو كذلك، هذا وعد منِّي".

وأخذنا نتمشَّى في الحديقة، ونسترجع ما قال أبي، فقالت: "يريدني لوحدي، هل أنتَ مثله، تواعد ستَّات غريبة؟".

ــ أنا مثله، لكن لا أواعد زبائني، قد أنفصل من المهنة.

ــ إذًا بعدما تنهي شغلك لي؟

وقبل أن أردَّ عليها هلَّت سيرين من الباب المشترك، فقدَّمتهما لبعضهما وتمشَّينا نحن الثَّلاثة في الحديقة. استأذنت سيرين وانصرفت، وكذلك طلبت سامية أنْ تنصرف، فذهبتُ معها أوصلها لبيتها في الزَّمالك. في الطَّريق قالت لي: "لم تقل لي إنَّ جارتك بتحبّك".

ــ إنَّها ستتجوز أخي.

ــ ولو، لكنَّها تحبّك.

ــ إنَّها أصغر منِّي بتسع سنين، وبينها وبين أخي أربعة فقط، وهو أكثر من متعة.

ــ وهو كذلك، انسَ ما قلت، ثمَّ أوصلتها لغاية منزلها.

بعد يومين كنت أتمشَّى في الحديقة، إذ رأيت سيرين قد نصبت حامل الرَّسم في الجنينة، وعندما رأتني بادرتني: "مطربتك حلوة جدًّا".

ــ مطربتي! ماذا تقصدين؟ أنا لم أرها إلا هذه المرَّة من أجل شغل، فقلت آتي بها هنا لكي يسلِّم عليها بابا.

فقالت وهي شبه غاضبة: "عينها منك".

ــ كلامك غير منطقي، لم أرها أبدًا، عمَّ تتكلَّمين؟

ــ يا مارك، أنا ست وأفهم السِّتَّات.

وراحت تتلمَّس في الدِّهان الأبيض، ثمَّ أضافت: "أنا نظرت في عينيها".

١٠

لم أكن متأكِّدًا ما هي الثَّغرات التي سأجدها في العقد المبرم لملكيّة سامية، ولكن وجدت منها الكثير.

فالعقد حرَّره المحامون الخاصّون بالجنرال صادق وبناءً على تعليماته، والذي اعتمد على أنَّ عقليّة البنت القرويَّة ستمضي أتوماتيكيًّا على أيِّ ملكيَّة تقدَّم لها وهي مبسوطة.

بعد ثلاثة أيَّام جاءني تليفون من مكتب الجنرال صادق بأنَّه على الخطّ ليتحدَّث معي. تناقشنا في بنود العقد وكيف أنَّ هناك ثغرات، ولكنَّه أنكر ذلك؛ فطلبت منه أنْ أذهب إليه في مكتبه بحضور محاميه لنكمل المناقشة، ولكنَّه قال إنَّه سيحضر لي في مكتبي.

بالفعل بعد ثلاثة أيَّام جاء الجنرال صادق لمكتبي، وهو من النَّوعيّة التي تكون في المحكمة مشاكسة في خصومتها، ومراوغة في شهادتها. كان يخفي خنوعه وضعفه وراء مظهره المتكبِّر والمغرور. كان أنيقًا في ملبسه، يرتدي في أصابعه الخواتم المرصَّعة بالجواهر، ويضع البارفان القوي الرَّائحة، ويدهن شعره بالكريم ليخفي الشَّعر الخفيف، كان يرتدي بذلة أنيقة رماديَّة اللون لم تستطع إخفاء سمنته. كانت عيونه قريبة من أنفه المعقوف، ولم يكن مبتسمًا.

ما أعرفه عن صادق أنَّه تسلَّق حتَّى أصبح مقرَّبًا من الملك، وأنَّه قوَّاد رسمي له، فقد كان قادرًا على إغراء النِّساء لصحبة الملك.

بدأنا نتناقش في بنود العقد، وكيف أنَّ هناك بعض الفقرات الظالمة لموكلتي، فطلب منِّي توضيح البنود المختلف عليها، فقلت له: "مثل أنَّ

موكّلتي غير مصرّح لها إحداث أي ضوضاء بعد السَّاعة الحادية عشرة ليلًا".

ــ الجيران لهم حقّ، أليس كذلك؟

ــ بلا شكّ، ولكن إذا كان جيرانها مكتب يقفل السَّاعة الخامسة والنِّصف، وبوتيك، ثمَّ إنَّ المبنى مأخوذ لكي يكون ملهى ليليًّا، فكيف لا يكون ضوضاء بعد الحادية عشرة؟".

ــ يمكننا أن نعدل هذا البند، أي شيء آخر؟

ــ وبند أنَّ موكّلتي تشارك في إعادة المبنيين المجاورين لمبناها موضوع العقد في حالة تهدمهما، وهما فعلًا في حالة آيلة للسقوط.

ــ أنا لا أعرف عن هذا البند أيَّ شيء، سأرى مَن وضعه في العقد.

ــ يمكن جلالته.

ــ كيف يا مستر هولت، جلالته ليس لديه وقت للكلام الفارغ.

ــ على العموم ما يهمني هو تعديل البنود التي تضرّ بموكّلتي.

ــ أنا سأتكلَّم مع المحامين.

ثمَّ همَّ أن ينصرف فاستوقفته بقولي: "شيء آخر يوفِّر عليك كثيرًا من التَّعب، أنتَ عارف إن المكان مملوك لشركة بابازيان، وأنت شريك في الشركة، يعني أنت المالك بالفعل للمكان".

ــ يعني؟

ــ يعني أنا قمت بكتابة عقد جديد، خذه وشاور محاميك.

فأخذه وترك المكتب، واضطررت أن أفتح الشبابيك لرائحة البرفان، النافذة التي تركها خلفه. وبعد بضعة أيَّام جاءني العقد الذي كتبته، وقد تمَّ التَّوقيع عليه دون ملاحظات.

في أحد المساءات دخلتُ غرفة الجلوس؛ لكي أحيي أمِّي قبل ذهابي لشبرد فوجدتها مع الدّكتور فيلب يتناولان بعض المشاريب، فحييته، وتساءلت عمَّا إذا كان هناك شيء ما، فأخبرني أنَّ إحدى الشَّغَّالات مريضة، وكان أبي يعامل الشَّغَّالين كما يعامل أيَّ واحدٍ في الأسرة من جهة العلاج، فسألت أمِّي عنها، فقالت: "زينب عملتها مرَّة ثانية"، فضحكت: "حسنًا إنَّه ليس أمرًا خطيرًا. كانت زينب تعمل في المطبخ، وكان لها طفلان غير شرعيين، فقلت: "يا ترى نعرف الأبّ؟"، فضحك الدّكتور فيليب: "النّوبيُّون لن يقولوا أبدًا".

ــ يا دكتور، يمكنني أن أطلب استشارة؟

ــ لازم تدفع، كاس مثلًا.

وسألته عن المرض الذي أصيبت به سامية، فأخبرني أنَّه ممكن علاجه بالحبوب، وبالحبوب فقط فليس له حقن، وأنَّه إذا كانت مدمنة فلن ينفع معها العلاج، فلذلك قال لي: "أعرف إذا كان في ذراعها أيّ أثر لحقن أم لا؟". وأضاف أنَّ المرض سيتحوَّل من الصّوت إلى السّمنة، ثمَّ نوبات الاكتئاب إن لم يتم علاجه.

في المساء نفسه حيثُ كنت في شبرد مع أحد الزَّبائن صادفت ستيفنسون وجريج. فقلت لستيفنسون: "أنا مديون لك بكاس".

ــ بمناسبة؟

ــ إنَّك رشَّحتني لسيّدة جميلة جدًّا، سامية.

ــ وتمت المهمَّة بنجاح؟

ــ مائة في المائة.

بعد بضعة أيّام بعد أن تمَّ استكمال توقيع العقد جاءت سامية لمكتبي لكي تأخذ العقد، وبينما كنَّا جلوسًا في المكتب قامت من على الكرسي وقبَّلتني قائلة: "لن أنسى ما عملته معي، هذه البوسة جزءٌ من الشُّكْر".

ــ هكذا يمكن أن أفصل من الشُّغل.

فقالتْ بنوع من الخجل: "يمكن مرَّة ثانية، مثلًا في بيتكم وبالمرَّة أسلّم على أبيك".

ــ لا، أنتِ زبونة عندي، ولا ينفع أن نعمل شيئًا في البيت.

وأضفتُ قائلًا: "ما يمكنكِ أنْ تعمليه هو أنّك تدفعي خمسين قرشًا، هذه تساوي عشرة شلنات انجليزي، والموظَّف سيعطيكِ إيصالًا"، ودققت على الجرس، فدخل سالم وانبهر حين رأى ورقة الخمسين قرشًا وأخذها ليكتب الإيصال.

في تلك الليلة، متأخِّرًا، وفي فيلّتها بالزَّمالك عبر بولاق مباشرة، وكانت تستلقي بين ذراعيَّ، قالتْ لي: "أنتَ تقريبًا لم تصل للذَّة معي، أليس كذلك؟ هل أنتَ كنتَ خائفًا؟".

"بعض الشيء"، وأخذت أفكِّر كيف هي رقيقة وغير عنيفة حتَّى في السّرير.

وبينما كنت منحنيًا عليها وهي تستمتع بتدليك يديها لجسمي العاري أينما شاءتْ، أخذت أتفحَّص ذراعيها دون أنْ تدرك ذلك. فجأة وجدتني أصيح منزعجًا: "ما هذا؟"، وكنت أعرف آثار الإبر على الجلد فردَّتْ: "لا شيء، لو سمحت".

ــ قولي لي... إنَّه كوكايين؟

ـ في المناسبات فقط، لا تقلق، في بعض الأوقات أحبّ أبقى نشيطة، أنا حريصة، لا أكثر منه.

ـ بهذا الشَّكل قد تموتين.

ورقدت فوق السّرير وقلت لها: "لعلمك أنا سألت دكتور الأسرة، لم أذكر اسمكِ، وقال إنَّه يمكنكِ العلاج عن طريق الحبوب".

ـ أنا عمري ما أخذت برشامة إلا ورجعتها تاني، معدتي لا تحتملها، لا يمكن آخذ حبَّة ولو راح صوتي، لا تقلق وتعالَ أعطني بوسة.

لم أستطع أن أخبرها بما قاله الدُّكتور من سمنة وغيره، ولكن توسَّلت لها ألا تدمن الحقن، وكرَّرتُ رجائي لها بأنْ تحاول أنْ تأخذ الحبوب، فقالتْ لي بحزن: "لا أقدر".

وأخذت أفكِّر أثناء عودتي من عندها في الثَّالثة ونصف صباحًا كيف رجال وسيّدات الأعمال الفنّيَّة يعانون. أمَّا عما بها من مرض فلم أستطع التَّفكير فيه، غير أن هناك أناسًا لا يستطيعون تناول الحبوب مهما كان السَّبب.

لقد كانتْ أمسيَّة رائعة، ودخلت منتشيًا. رأيتُ في مكان الخطابات مظروفًا موجَّهًا لي، والخطّ كان مجهولًا بالنِّسبة لي، ففتحته، فإذا به من ثيو دافيدسون يقول فيه: "السَّيّد مارك... أعلم أنَّكَ أغويتَ بنتي، وهي الآن حامل. يجب أن نتقابل لكي نناقش الأمر".

١١

لم أنبس بكلمة واحدة لأيٍّ واحد لمدّة يومين. كان من الممكن أن أتحدَّث في الأمر مع أبي، ولكن مهنتي تحذّرني دائمًا من البوح السّريع. وأردت أيضًا أن آخذ وقتًا للتَّفكير، كيف لحظات قليلة للمتعة ممكن أن تغيِّر حياتي كلَّها. هل من الممكن أنْ أتزوَّج فتاة لا مبالية، وجميلة، واحتمال أنْ تكونَ زوجة جيّدة.

كنتُ في اليومين السَّابقين أتمسّك بآخر أمل أن ما حدث قد يكون خطأً. يجب أنْ أتَّصل ببارمي، حيث لديَّ رقم تليفونها، حتَّى لو لم تعرف بخطاب أبيها، فالخطابات في هذا العام، ١٩٣٧م، من أوروبا لمصر تستغرق وقتًا كبيرًا حسب الخدمات المدنيَّة ومزاجها.

في الصَّباح الباكر بعد أن أخذت دوشًا، عبرت كوبري قصر النِّيل لأتمشى بمحاذاة النِّيل في الجيزة. كان الباعة يجهِّزون عدّتهم لبيع الشَّربات والماء والحلوى وغيرها. كان الأطفال يلعبون في الطَّريق التُّرابي بملابسهم القذرة، والمارَّة يتسابقون للوصول لمعايشهم. كان أصحاب العربات التي تجرّها الجمال أو الأحصنة أو الحمير تتسابق أيضًا. كلٌّ يحاول أنْ يكتسب قوت يومه. كان سائقو العربات مختلفين في سلوكهم، فمنهم مَنْ جلس معتدلًا ومنهم مَنْ كان مستلقيًا، بل شاهدت أحدَهم يدخِّن الحشيش. لم يكن الحشيش يتعاطاه الفقراء فقط لينسوا فقرهم، بل رأيتُ رجلًا يرتدي ملابس تدلّ على الثَّراء وهو يمشي مطوَّحًا من تدخين الحشيش وخلفه امرأتان محجَّبتان تنظران بلهفة لزوجهما خوفًا عليه من السُّقوط، وكان

أطفاله الأربعة الذين يسيرون معهم لا يعبأون بالذّباب الذي يتطاير حول عيونهم.

عدتُ للمنزلِ، وأخذتُ دوشًا مرَّة ثانية، وتناولت الإفطار، وذهبتُ لمكتبي.

طلبتُ من سالم فنجانًا من القهوة، وأعطيته رقم تليفون ليقوم بعمل مكالمة خاصّة لي. ولأنّي أعرفُ أنَّ سالم عنده حب استطلاع في المكالمات الخاصّة طلبتُ منه أنْ أتكلَّم من التّليفون الذي في مكتبه بحجّة طول المكالمة وخوفي أنَّ التَّوصيلة التي في مكتبي لا تحتمل هذا الطّول. عندما سمعتُ صوتَ بارمي في الطّرف الآخر اطمأنَّ قلبي، وبمجرَّد أنْ سمعت صوتي قالت: "أوه، مارك... أنا آسفة لما حصل".

ــ ألا يزال أبوك غضبانًا؟

ــ بصراحة نفسه يضربك بالسّوط على باب النَّادي، كما تفعلون في لندن.

لم أستطع منع نفسي من الضّحك: "لماذا لم يضربك بدلًا منِّي؟".

ــ مارك أنا لا أدري ماذا أفعل، لازم تحضر لكي نرى ماذا سنفعل.

ــ هاجي، سأحجز الليلة، لا تقلقي.

ــ لكن أحبّ أن أقول لك إنَّك إذا كنت لا تريد أنْ تتجوزني فلا ضير، أنا لا أريد أنْ أكونَ عبئًا على أيِّ حدّ.

ــ أقولك على حلّ، اشربي بن كتير، ونطّي من كلِّ مكان عالٍ.

ــ الكاثوليك لا يقبلون الإجهاض، عامَّة أنا أعرف مكانًا في نيويورك ممكن يسمح بأنِّي ألد ويأخذ الطِّفل يعطيه لأيّ حدّ يتبنَّاه.

بالطَّبع كنتُ أعلم أنَّ ما تقوله بارمي ضربًا من التَّفاهة، فليس أبوها الذي يسمح لأحد أن يتبنَّى ابن بنته، ولا حتَّى هي. فقلتُ لها: "لا، هذا المولود سيحمل اسم هولت، أنا سأحضر لباريس فورًا".

فكَّرتُ أن أحجزَ في الطَّيران المصري الذي ابتدأ منذ أربع سنوات، والذي اسمه مصر للطيران، فاتَّصلت بالسَّيّد بيل في إبراهيم باشا لنشرب قهوة معًا وأستشيره في موضوع السَّفَر. تقابلنا ونصحني بألَّا آخذ مصر للطيران، وإن كان لابدَّ فممكن أن آخذ الباخرة لمرسيليا ثم بقطار النّوم لباريس. عدتُ للمنزل، وفي طريق العودة أخذتُ أفكِّر في بارمي، فأنا لا أحبّها ولكنِّي تذكَّرت كلام تيدي بولوك من قبل حينما قال لي: ليس شرطًا أن تعيش قصَّة حبٍّ لكي تعيش حياة زوجيَّة سعيدة. وتذكَّرت مسرحيّة نويل كوارد "حياة خاصّة"، والتي عُرِضَتْ على مسارح القاهرة منذُ عامين، والتي تحكي مثل هذا الاتجاه والتي لخصها تيدي في قوله: "خناق، متعة، جنس".

بعد يومين قابلت تيدي في شبرد، وتحدَّثنا عن جريج وسيرين، وقال: "إنَّهما يحبَّان بعضهما حبًّا هادئًا وليس عنيفًا يؤدِّي لتمزّق العلاقة بسبب الغيرة".

وفي مروري عند كنيسة الكاتدرائيَّة خطرتْ لي فكرة وهي إذا كان جريج يحبّ سيرين، فهل سيرين تحبّ جريج أم إنَّها تخفي في أعماقها شيئًا آخر غير الذي تظهره لنا كلّنا؟

عندما وصلت المنزل فتح زولا البوابة، وسألته عن أمِّي، فقال لي إنَّها في حجرة الجلوس الصَّغيرة، فذهبت لها وقبلتها وقلت لها: "هناك شيء مهم أريد أنْ أخبرك به، هيَّا لمكتب بابا، استدعِ جريج".

حينما رآنا أبي قال مازحًا: "هلْ جئتِ لتأخذي كاس شامبانيا يا شيفون؟"، فردَّتْ عليه: "أنتَ عارف أنِّي لا أشرب في الصَّباح، وأريدكَ أنتَ أيضًا أن تفعل ذلك".

ونادى أبي لزولا لكي يقدِّم لنا هو وجريج وأنا مزيدًا من الشَّراب، وبادرنا أبي بقوله: "إذًا لماذا هذا الوفد؟"، فقلتُ: "أنا سأتزوَّج"، فقال أبي: "يا الله، وماذا أيضًا؟"، وقالتْ شيفون: "يا حبيبي، صحيح؟" بينما جريج صاح قائلًا: "أخيرًا!"، ورفع كاسه ببهجة. سألني أبي: "سامية؟"، فضحكت: "لا، ليست سامية"، فقالتْ أمِّي بنبرة مستنكرة: "المغنية؟ الحمد لله إنَّها ليستْ هيَ"، ولستُ أدري لماذا كانت أمِّي مستنكرة ذلك، رغم أنَّها وافقتْ أنْ يتزوَّج جريج امرأة مصريَّة ورحَّبت بها.

واستأنفت: "لا تشوّقنا، مَنْ هي؟"، فتدخَّل جريج قبل أنْ أتكلَّم قائلًا: "أنا عارف مَنْ هي، البنت التي من باريس"، فصاح أبي: "تقصد بنت كباريه فولي بيرجير؟ التي لها سيقان طويلة، رقَّاصة ستبقى في الأسرة"، فصاح جريج: "أنا صح، أليس كذلك؟"، فقلتُ: "أنت صح، لكن سأخيب ظنّك إنَّها ليست بنت الكباريه، إنَّها الآنسة ديفيدسون"، فقال جريج: "بنت رجل الأعمال الأمريكي صديق أسرة سرِّي، إنَّها حلوة جدًّا".

فقالتْ أمِّي بتنهيدة: "أمريكي!"، ثم أردفت: "نحن بهذا لازم نروح باريس"، فصاح أبي مهلِّلًا: "يناسبني جدًّا"، فأردفت أمِّي: "ياليت الفرح يصبح فرحين، مارك وجريج"، فقال جريج: "لم نتَّفق بعد على ميعاد أنا وسيرين".

سألني أبي: "أنتما مخطوبان، فرصة لتأخذا وقتكما في الخطوبة"، فقلت: "لا أحبّ الخطوبة الطّويلة، ثم إن بارمي كاثوليكية ومتديّنة هي وأبوها، ولا يمكن تغيّر ملّتها ولا أنا لذلك لازم نتجوّز بسرعة.

فقالت أمي: "والفساتين والفرح؟"، فقلت: "لكي نبعد عن المشاكل الدينيَّة، وأيضًا من أجل الطِّفل"، ولستُ أدري كيف خرجت منِّي كلمة طفل، فَسَادَ صمت وخيم قطعه جريج: "أنت ولد شقي، لم تأخذ بنصيحتي"، فقلت: "وما نصيحتك"، فأجاب: "إنْ كان لابدَّ فكن حريصًا، وإن لم تكن حريصًا تذكّر المواعيد. ولكن أمِّي قالت وهي تمسح بعض الدّموع: "هي بنت ممتازة، لكن كان نفسي! ماذا سيقول النَّاس علينا؟".

فطوقتها بذراعي: "ماما، بارمي بنت رائعة وستكون إضافة ممتازة للبيت"، فقاطعني أبي: "من الأفضل أنَّكما تتزوَّجان بسرعة".

فقالت أمِّي بشيء من الغضب وقد همَّت أن تقوم: "هكذا أنتم صنف الرِّجال، تأخذون الموضوع باستهتار، وإن كنَّا نعمل أفضل حاجة، لا يعني أنَّكم تستهترون، وإن كنت موافقة على ما حصل، لكنَّه ليس من الأخلاق"، وتركت غرفة المكتب.

قلت لجريج: "إنَّها تعيش في زمن غير الزَّمن، لكن ياليتني لم أجرحها".

ــ غدًا لما تخلِّف ليها حفيدًا ستتغيَّر الأمور.

١٢

بعد يومين، قبل أنْ أذهب لألحق بالباخرة الذَّاهبة لباريس، وبينما كنتُ أخرج من البوَّابة، وكنتُ حريصًا أنْ أتجنَّب سيرين، إلا إنَّني صادفتها.

تساءلت في نفسي يا ترى ماذا سيكون ردّ فعلها، أكيد جريج أخبرها، وإن كان الموضوع لا يخصّها إلا إنَّها تعتبر من الأسرة. كانت سيرين ترتدي جونلة مكشكشة، وبلوزة بيضاء ذات ياقة وأكمام حمراء.

في البداية لم تقل شيئًا، ولكن أخيرًا ابتسمتْ قائلة: "أتمنَّى لك السَّعادة"، فابتسمتُ بدوري: "أكيد جريج قال لك كلّ التَّفاصيل".

ـــ لا، قال كالعادة بطريقته الفكاهيَّة، زواج سريع من أجل الطّفل.

توقَّفنا قليلًا في صمت ثمَّ قلتُ لها: "ما رأيك نروح نادي الجزيرة؟".

ـــ موافقة، وإن كنتُ ذاهبة للرَّسم، لكن سألغيه.

بعكس كوبري قصر النِّيل المكتظّ بالمرور، كان كوبري بولاق هادئًا يؤدِّي لنهاية الزَّمالك المليئة بالقصور الفاخرة والحدائق الشَّاسعة. بينما كنَّا نسير أعلى النِّيل، لمست سيرين ذراعي وقالت: "من الممكن أن تقف وننظر للنّيل؟".

كان النِّيل بعكس الكوبري مزدحمًا بالقوارب، ناهيكَ عن العوَّامات المتراصَّة على الشَّطّ وبجوارها قواربها الخاصَّة. كان أصحاب المراكب والقوارب يتفادون الاصطدام بالدّفات والسِّباب، وكانت المراكب تحمل أحيانًا الحجارة وأحيانًا البلاليص التي تأتي من الصَّعيد مثل البلاليص القناوي، التي كانت النِّساء يحملنها على رُءُوسهنَّ. هبَّتْ فجأة نسمة قويَّة كشفت عن ساقيها السَّمراوين وكعبيها الرَّائعين والاسبدرين الفرنسي.

وفجأة قالت لي: "حاسّة إن أفضل صديق سيتركني للأبد"، فرددت عليها، بأسلوب بشوش: "كلام فارغ، أنتِ ستصيرينَ جزءًا من الأسرة، هيَّا ابتسمي"، ورجعنا للسَّيَّارة.

وسرنا في شوارع الزَّمالك بين الأشجار التي ترفرف أوراقها. حاولت أن أبدأ الحوار فقلت: "لا تكون رياح الخماسين". فقالت سيرين بصوت خافت: "تفتكر زوجتك تقدر تعيش هنا؟".

ــ ستتعوَّد.

عندما اقتربنا من المدخل الرئيسي قلتُ مقترحًا: "خلّينا نشرب الشَّاي جنب حمَّام السِّباحة، الدُّنيا ضِلَّة، وطرطشة الماء تلطّف الجوّ"، واستمرارًا لجعل الحوار خفيفًا قلتُ: "أنا مبسوط إنِّي سأتزوَّج لسبب واحد، سيجعلني أتوقَّف عن معاكسة البنات الحلوة مثلك".

ــ عمره ما خلَّى أي رجل يتوقَّف، وأنت، بالمناسبة أعرف كلّ حاجة عنّك وعن إنجي جراي ودودي سمر وسالي بوتر.... كلهم، حتَّى المغنّية.

ــ سامية؟

ــ آه، إنَّها معجبة بيك.

ــ كيف عرفت؟

ــ من عينها، السِّتَّات المصريَّات يتكلَّمنَ بعيونهنَّ، إنَّها الطَّريقة الوحيدة التي تقدر تعبِّر بها عن شعورها ناحية أيّ رجل.

ــ ليست غريبة، إنّنا نفهم بعض من غير كلام.

ــ لذلك فهمت سامية من عينها، قالتْ لي إنَّها تحبّك، وكأنَّها تحذّرني، لكن أنت تحبّني أكثر منها، أليس كذلك؟

ــ طبعًا، وسأظلّ للأبد.

ـ أحيانًا أشعر أنَّ هناك شيئًا غلطًا بيننا، لما أتخيّل الذي تفعله مع كلّ البنات، تتنطط معهم على السّرير، كلّهم ما عدا أنا.

صببت فنجانًا آخر، وتنهّدت: "صعب إنّي أشرح لك، لكن المفترض أنّكِ خطيبة أخويا، وأيضًا عمري ما كنت أحسب قيمة لعلاقاتي مع البنات الأخريات، أنت شيء مختلف...".

ـ لكن لي أحاسيس مثل أيّ بنت.

ـ طبعًا، وأنا أعي هذا، أنت وجريج.

ـ لكن أحيانًا كنت أتخيَّل أنِّي معك.

ثمَّ استدارتْ بوجهها ناظرة للجمع الذي يتمتَّع ويضحك مسرورًا. فجأة صاحتْ وهي تشير بعيدًا: "انظر من هناك، جيم ستيفونسون".

أحسست بالضِّيق قليلًا، ولكن شعرت بالرَّاحة أيضًا، فلم أعجب من رؤية ستيفونسون، ولكن من الشَّخص الذي كان معه، إنَّه الجنرال عثمان صادق. اقترب ستيفونسون وحيَّا سيرين بقبلتين على خدودها، وقبل أن يقدّم الجنرال قال لي: "مبروك".

فغمغمت: "يظهر أن النَّاس كلّها عرفت".

فقال بابتسامته الرَّقيقة: "إنَّها القاهرة"، ثمَّ قدَّم الجنرال صادق وسيرين وأنا لبعضنا البعض، فانحنى الجنرال صادق في اتجاه سيرين، فتدلَّتْ خصلة شعره المدهونة بالمرهم العطري أمامه قائلًا: "أنا أعرف والدك جيّدًا".

ولم أستطع أنْ أتحاشى يده الممدودة، فقلتُ له: "أفتكر إننا اتقابلنا قبل ذلك"، فقال ستيفونسون: "طبعًا، كنت متوكّل عن سامية"، فارتبكتُ قليلًا: "سامية، آه". تساءلت في نفسي لماذا يعرف ستيفونسون كلّ شيء،

ولكن لم يتغيّر سلوك ستيفونسون الهادئ، فوجَّه كلامه للجنرال: أنت الذي قلت لي يا جنرال، وإنَّك قابلت مارك".

فتدخّلتْ سيرين في المحادثة: "مارك يعرف كلّ النَّاس" واتجه الجنرال ناحيتة وقال بأسلوب مهذّب: "مبروك على الزَّواج، لا أعتقد أنِّي قابلت الأستاذة"، فقلت له: "لا، هي في باريس، لما تحضر سأقدّمها لكم".

تحوّل ستيفونسون ناحية سيرين: "من الممكن أن ننضم لكما" ودون أنْ ينتظر ردًّا سحب كرسيين ونادى النَّادل طالبًا مشاريب.

وجّهت سيرين كلامها للجنرال: "عمرنا ما رأينا جنرالًا مصريًّا هنا".

ـ مشغول كالعادة، مشاغل القصر، أنتِ فاهمة طبعًا.

ثمَّ تكلَّم بمظهر الرَّجل المهم: "وأنا عضو هنا، من الكوتا المصريَّة".

كلمة كوتا قيلت عمدًا، فنادي الجزيرة كان مختلطًا، ولكن لنقطة محدّدة فهو في الأصل للأوربيين، ولكن هناك نسبة للمصريين، وكان ذلك مصدر إزعاج للمصريين، فدائمًا هناك قائمة انتظار طويلة للمصريين. استدرك الجنرال صادق: "وأيضًا أنا هنا لعمل، جلالته وهو عضو شرف هنا يريد أنْ يزور النَّادي زيارة غير رسميَّة، وأنا بالطَّبع هنا... ماذا يا ستيفون؟"، فابتسم ستيفونسون: "استكشاف المكان وتجهيزه".

ففكَّرت في نفسي: وأنت المستكشف؟، وكيف واحد أمريكي يقود واحدًا من الحاشية، الظَّاهر أنَّ له يدًا في كلِّ شيء هنا، ولماذا بعث سامية لي وكيف عرف ما بين صادق وسامية؟ إنَّه شخصيَّة من الصَّعب إغضابه فالبرّغم من أسلوبي السَّاخر فلم ينزعج.

فقلت: "هل لنا أنْ نعرف متى سيحضر جلالته؟"، فردَّ صادق: "يوم الخميس، إن لم يغيّر جلالته رأيه، بعيدًا عن التَّجهيزات الخاصَّة سنؤكّد على اللجنة أن تكون الطّاولات القريبة من الملك محجوزة لضيوف مناسبين".

لم أقل شيئًا ولكن كنت أفكّر، اللعنة، هذا نادٍ خاصّ، واستأنفَ صادق: "هلْ أطلب منكِ آنسة سرِّي خدمة؟ هل تتكرَّمين بالحضور، فجلالته يكِنّ لكم تقديرًا كبيرًا، لا ليس لتتناولي معه الغداء، بلْ أنت وأصحابك تجلسون على الطّاولات المجاورة، وأنت يا سيد هولت فأبوكَ جيوفري خير معين لجلالته"، فسألته: "لو أنَّ جلالته قرَّر الغداء في نادينا، ألن نكون هنا؟ أقصد حاضرين أو أي شيء آخر؟".

ــ لا تقلق، لا شيء على الإطلاق، أنتم أصدقاء فتمتَّعوا بوقتكم، هو مجرَّد ستارة حول جلالته.

مازلتُ منزعجًا، فالملك له من القوَّة ألا تجعل أحدًا يقول له لا، وأنَّه يستطيع أن يقفل أيّ مكان فورًا. هو من القوَّة التي تجعله يتدخَّل في توظيف كلّ شيء في الوزارة أو خارجها حتَّى السّفارات. لا أحد يستطيع السَّفر للخارج دون موافقته، حتَّى تغيير الزِّيّ لرجال الشُّرطة لا يتمّ إلا بعلمه.

إنَّه طاغية من عصر آخر لا يحتاج لأيّ سبب ليقرِّر ما يريد. لم يكن في وسعي فعل أيَّ شيء غير أنِّي أكتم غيظي.

١٣

لم يكن غداء الملك المرتقب في نادي الجزيرة يثيرني بأيّ درجة، فإنَّ لي مشاغل أخرى أفكِّر فيها. فأنا مسافر لباريس في خلال يومين، ولم أكن في حالة مزاجيَّة مناسبة للحفلات، ولاسيَّما التي يشرّفها الملك بحضوره.

بحلول عام ١٩٣٧ كانت تصرُّفات فاروق في منتهى الفظاعة، وخصوصًا مع النِّساء. لقد كان يقود سيَّارته بجنون، فمن أثر حادثة منع أن تدهن أيّ سيارة باللون الأحمر إلا سيَّارته وإلا تعرَّضوا للعقوبة.

قال لي والدي عندما رآني أرتدي الكرافتة السَّوداء وسألني إلى أين أذهب، إنَّه وصلت تقارير مزعجة للسّفارة البريطانيَّة، منها أنَّ الملك يقوم بزيارات للملاهي سيِّئة السُّمعة لانتقاء الرَّاقصات أو الفنَّانات.

لقد نجح الملك في تعيين واحد لكلِّ هذه اللقاءات وهو الجنرال صادق بمساعدة بولي الإيطالي، صديق فاروق من مدَّة بعيدة والذي استمرَّ معه في القصر دون وظيفة رسميَّة. بينما كان صادق القوَّاد الرَّسميَّ للملك.

كانت الطَّريقة التي ينفِّذونها ثابتة، حيث يذهب الملك ويجلس في الكباريه ويعيّن المرأة التي يريدها من راقصة أو بهلوانيَّة، ثمَّ يغادر المكان بينما يظلّ صادق حتَّى يأخذها في سيَّارة ملكي بحجّة عرض في القصر، حيث ينتظرها الملك بجلبابه العربي.

أضاف والدي بأنَّ المخابرات السِّرِّيَّة تقول إنَّ "صادق" يأخذ عمولة غير رسميَّة عينيَّة، حيث يأخذ الفتاة بعد تركها للقصر إلى مكان خاصّ به ويقضي معها الليلة. فسألته: "ولو أنَّ الفتاة رفضت؟"، فأجابني أبي وهو يهزّ كتفيه: "تسجن بسبب الدَّعارة أو يقفل الكباريه".

ـ وهل يعرف سرِّي باشا موضوع الغداء في نادى الجزيرة؟
ـ وأنَّ سيرين ذاهبة أيضًا.

وتنهَّد أبي مردفًا: "أتمنَّى كلّ شيء يكون تمامًا، فسيرين فتاة جميلة، وعندما يضع فاروق عينه على أيّ فتاة، فإنَّه يكاد لا يصْبر على تمزِيقِ ملابسها".

ضحكتُ قائلًا: "سنحميها".

وصل الملك حوالي السَّاعة العاشرة محاطًا برجاله ومِن بينهم بالطَّبع صادق الذي انحنى لنا أثناء مروره بنا، لقد رأيت الملك يرتدي نظَّارته الدَّاكنة وطربوشه القرمزيّ وهو يتفحَّص الحاضرين، والبنات. ابتسم الملك ابتسامة خفيفة لجريج، الذي كان يلعب معه ذات يوم في القبَّة.

همس لي تيدي: "انظر كيف يتفحَّص الملك البنات ويتخيّلهنَّ عرايا في ذهنه!"، فهمست سيرين: "لم يتفحَّصني بعد"، فقال جريج: "بل فعل".

لاحظت بطريقة متحفّظة أنَّ أوَّل شيء فعله صادق هو أنَّه طلب نصف دستة أكواب كبيرة من الصودا، وعصير الفواكه، ومن دهشتي أنَّ الملك احتساهم واحدًا تلو الآخر دفعة واحدة.

بعد ذلك أخذ يمزِّق في -تقريبًا- نصف دستة من أزواج الحمام بطريقة همجيَّة، وأخذ يمتصّ عظامها وكأنَّه على حافَّة الموت جوعًا، وبعد أنْ شطف يديه في طشت فِضِّي أمرَ بمزيد من الصّودا، وثلاثة أطباق من الأيس كريم.

همستْ سيرين: "غير معقول، أين سيضع كلّ هذا؟"، فقال جريج: "في سيقانه الجوفاء".

كان الملك نحيفًا بعض الشّيء رغم أنَّ هناك علامات سمنة في رقبته ويديه ورسغه. لقد طلبوا منَّا ألا ننظر للملك حتَّى يستمتع بخصوصيته ولاسيَّما أن ضيوفه كانوا يتصرّفون برزانة ولا مبالاة كما لو أنَّهم لم يروا هذه الطَّريقة المقزّزة في تناول الطّعام.

قال ستيفونسون بجدّيّة: "أنا سمعت أنَّ الملك يعاني من اضطرابات فسيولوجيَّة، قد تكون الغدد الدَّرقيَّة وهذا ما يعطيه النَّهم".

برغم ذلك كانت سالي بورتر معجبة جدًّا بالملك، فلم ترفع عينيها عنه لحظة. فهي لم تكن في مصر من وقت طويل، حيث إنَّها جاءتْ لتعمل في شركة بترول كسكرتيرة، ومازال أمامها الكثير من كنز يحيط بها في مصر لتتأمّله، الشَّمس، المياه، والآن صحبة الملك في مكان خاصّ. همست بابتسامتها الرَّقيقة: "ها أنا هنا، أتمرجح بين كنج لين والملك فاروق"، فقلتُ لها هامسًا: "لا تنظري كثيرًا".

بعد أنْ تناولنا القهوة طلبتُ من سيرين أن أصحبها للرَّقص. كانت كالعادة رقيقة في مظهرها رغم ثمن فستانها الباهظ. تراقصنا على أنغام فرقة بول جاكسون "هذه الأشياء الغبيَّة"، ودون أنْ أفكِّر وجدتني أجذبها نحوي هامسًا لها: "أحبّك في فستانك الأزرق، إنَّه مذهل".

ــ ماما اختارته.

ــ أمٌّ حكيمة.

ــ أحيانًا أحبّ أنْ أختار ملابسي، ولكن ماما تقول لي إن البنت لو بلغت التَّاسعة عشرة..."، ثمَّ توقَّفت فجأة وقالت مندفعة: "آه، هذه الموسيقى الجميلة أحبّها ماعدا تلك التي تجعلني أتساءل إذا كنت غبيَّة".

ــ أنتِ أصغر من أن تكوني غبيَّة.

ــ لا أتصوَّر أنَّك ستتزوَّج الأسبوع القادم، هذه آخر مرَّة أرقص مع مارك غير المتزوّج.

ثم جذبتني نحوها، وفجأة خفتت الأضواء فوق صالة الرَّقص، فجذبتني بشدَّة وهمست بصوت شبه مخنوق: "بُسني، لا، لا في شفتي"، فقبَّلتها بلطف وفمها تقريبًا منفرج فهمستُ لها: "خلّيك حريصة يا حلوتي"، فقالتْ: "شكرًا عزيزي"، ولمست على خدّها بعض الدُّموع، وكدت أشعر بصوتها المعذّب وهي تقول: "لن أطلبها مرَّة أخرى، أقسم على ذلك، ولكن يا مارك أنا أحبّك، كما لم أحب أحدًا قبلك، كلّ شيء هنا يذكِّرني بك"، ثمَّ قالتْ بالفرنسيَّة: "المرأة تكبر بسبب الرَّجل بينما الرَّجُل يكبر بسبب الحياة".

بدأ الضّوء الخافت يسطع قليلًا ليكسر سحر السِّرِّيَّة، وأردفت: "مَن يعرف؟ ربَّما عندما نتزوَّج ونشعر بالملل..."، فضحكت ضحكة قصيرة متمنيًا أنْ أغيّر الموضوع قائلًا: "شيفون أصرَّتْ أنْ تبقى بارمي في منزلنا حتَّى تلد، وهذا يعني أنَّنا سنتقابل كثيرًا وخصوصًا أنَّ بارمي لم تزل ٢٢ سنة، يعني قريبة منّك في العمر".

ــ ربَّما بارمي لن تحبّني.

ــ لا، طبعًا ستفعل.

رقصنا مرَّة ثانية وهي تهمس: "أخاف أنَّ الزَّواج يغيرك".

ــ وهل الزَّواج سيغيرك؟

ــ لا.

ــ وأنا أيضًا.

بينما كنَّا منهمكين في الرَّقص شعرت بيد تربت فوق كتفي فصحت: "لا مقاطعة للرَّقص هنا"، فاستدرتُ لأرى مَن هذا، ولكن قدَّمتُ اعتذاري، إذ به صادق يقول بأدب: "لا أقطاعك، ولكنَّ جلالته يطلب أنْ يقابل الآنسة سرِّي بعد انتهاء الرَّقص".

بعد أنْ انتهينا من الرَّقص وتقريبًا قبل أنْ تجلس سيرين في مكانها كان صادق متأهِّبًا للحضور لطاولتنا، ولكن سيرين بادرت للذّهاب للملك ورأيناهما يتجاذبان الحديث. أشار الملك ناحية صالة الرَّقص، وبعدها نزل وسيرين ورقصا معًا مرة واحدة ثمّ عادا. انحنتْ سيرين انحناءة أنثويَّة وعادتْ للطَّاولة، وفور عودتها قالتْ لجريج: "الملك يريد أن يسلِّم عليك".

بالفعل ذهب جريج له وتضاحكا، وعاد جريج ليخبرنا أنَّهما تحدَّثا حول ذكرياتهما في القبَّة، وأضاف جريج أنَّ الملك قال إنَّه سمع كلامًا طيّبًا عنِّي وعن مهارتي كمحامٍ، وأبلغني أنَّه يريدني غدًا في مقابلة سيدبّر لها صادق.

ماذا يريد منِّي الملك بهذه السّرعة؟ وبينما أفكّر في الأمر جاء الجرسون وأعطاني ورقة من صادق مفادها أنْ أكون في قصر القبَّة غدًا. وبدأ الملك في الانصراف ووقف الجميع، وبعد أن انصرفت الحاشية توقَّف صادق بجوارنا، وسأل ستيفنسون شيئًا فسمعنا ستفنسون يقول: "سالي بورتر"، وكذلك سمعتْ سالي فاحمرَّت.

تكلَّم صادق ليشكر الجميع وأنَّ الملك تمتَّع بوجوده معنا، وتمنَّى أنْ يطول الوقت، ثمَّ انحنى تجاه سالي وقال لها: "لو سمحتِ يا آنسة سالي

اتبعيني، فجلالته يريد أنْ يكلِّمك"، فهمست في أذنها: "أنتِ فتاة المستقبل".

اختفت سالي، ولم نتذكّرها حيثُ انشغلنا بحديث سيرين عن لقائها بالملك، وكيف أنَّه متحضِّر وأنَّه رقيق ويرقص بطريقة أفضل من جريج. وبعد أن قالت سيرين: "لا لم يطلب منِّي أن أذهب معه غرفة النّوم"، قال شخص ما: "أين سالي؟ هل تعتقدون أنَّها راحت لقصر عابدين؟ طبعًا عارفين ما يتمّ في قصر عابدين". قالت دودي سمر بصوت جادّ: "لماذا لم يطلبني، كنتُ سأذهب فورًا".

ناديت أحد العمّال في النَّادي وسألته عن سالي أين ذهبت، فقال إنَّها أخذت تاكسي وتقريبًا كانت غاضبة وكانت تبكي. فحاولنا أن نعرف التَّفاصيل من مساعد السّكرتير الذي كان يقف بجوار الملك بجردل مملوء بمكعّبات الثّلج، وقال لنا إنَّ سالي عندما اقتربت من الملك وحيّته بكلمات لائقة وانحنت، ونادى الملك "الثّلج".

أخذ الملك مكعَّبين من الثَّلج ووضعهما في فتحة صدر سالي، خلع الملك نظَّارته ونظر لسالي وقال لها: "ربَّما تبدين فتاة جميلة، يا آنسة بورتر، ولكن تذكَّري أنَّ البحلقة سلوك غير جيّد"، ثمَّ غادر المكان في سيَّارته الرُّوزليس القرمزيَّة.

في اليوم التَّالي، ذهبت في الصَّباح لقصر القبَّة في ضاحية المدينة، وبعد حوالي كيلو خلال مساحة تقدّر بسبعين فدَّان وصلت لغرفة فخمة وكأنَّها جاءت مباشرة من ساليسبريفي في مونت كارلو. كانت هناك طاولات كاملة من لعبة الروليت والبلياردو، لمست كوتشينة كانت على إحدى المناضد، فوجدتها مصوَّرة بصور عارية أو أوضاع جنسية.

في أحد الأركان رأيت سلسلة مفاتيح في اللحظة التي دخل فيها فاروق: "أرجو ألَّا أكون أتعبتك بالمجيء إلى هنا، فقصر القبَّة بيتي، بينما عابدين مكتبي وهو مليء بالجواسيس، أردت أنْ أكلّمك على انفراد"، وكان قد رآني أنظر لسلسلة المفاتيح، استطرد: "هذه مفاتيح شقق في كلّ أنحاء القاهرة، كلّ مفتاح باسم بنت، لن أقول لك أكثر من ذلك، إذا أردت إحداهنَّ في أيّ وقت...".

فابتسمت ابتسامة خفيفة، وأنا أفكِّر فيمَ يريدني، بينما كان فاروق يقول: "هذه غرفة اللعب، ولكن أريد أنْ أشكرك أوَّلًا على ما فعلته مع سامية، في الحقيقة عندي بعض الممتلكات أريدك أنْ تتعامل معها بالمهارة نفسها، هذه الممتلكات في الخارج، ولا أريد أنْ يعرف أحد عن هذا".

ــ اطمئن جلالتك.

ــ ممكن تأخذ فكرة عن ذوقي في الأثاث والدّيكور، دعني أريك غرفي الخاصَّة.

وأخذني لجولة في الجناح الغَربيّ بغرفه الأربعمائة، كانت غرف النّوم أربعة، بحمَّامات ودواليب واسعة من الألباستر الأخضر، قال بطريقة عفويَّة: "عندي مائة بدلة وألف كرافتة".

أكثر ما بهرني مجموعة البورنو، لقد سمعت كثيرًا عن ذوقه في اختيار الصور، مئات من الصّور الإباحيَّة تغطِّي جدران غرف النّوم والحمَّامات، وهناك مجموعة من الرّسومات تبيّن أوضاعًا إباحيَّة مختلفة، نظرت على توقيع الرّسومات فوجدته ف. فابينو. فقال فاروق: "لا أعرفه، ولكن "صادق" وجدها فأحضرها، ولكن أحبّ شيء عندي الشَّرائح الملوّنة".

لم يكن هذا يناسب إلا رجلًا شاذًّا. فشيء لا يصدّق أنَّ رجلًا عاديًّا، ناهيك عن ملك، يجمع البنات مثلما يجمع هاوٍ فراشات أو طوابع، فلم لهذا الحدّ يصل رجل ليملأ غرفه بهذه القاذورات، ليس فقط الصّور ولكن تماثيل بلاستيك عارية، وأكواب، بل ومفكّات مقابضها منحوتة بنساء عاريات وبأعضاء تناسلية. أخيرًا تكلَّم فاروق في العمل، حيثُ اختارني كمحامٍ عدل مؤتمن على سرِّه الذي لا ينفع فيه محامٍ مصريّ أو فرنسيّ.

كان الملك يريد شقَّة في واشنطن أو نيويورك، ليست باسمه ولكن في الوقت نفسه يمتلكها في أيّ لحظة يريدها، وقال لي: "لما أقول لا أريد أن يعرف أحد، فمعناه ألَّا يعرف أحد مهما كان، حتّى الجنرال صادق، يعني أنتَ الوحيد الذي يعرف هذا".

هل كان سيادته يبحث عن ملجأ في حالة الحرب أم خائف من ثورة، إنَّني تعاطفتُ معه، لقد كان ذلك عمل مخابرات، قلتُ له: "اطمئن جلالتك، سأريك مجموعة من المباني والشُّقق المتاحة وعندما تستقرّ على شقَّة ستكون شركة سويديَّة تمتلك الشَّقَّة، وفي الوقت نفسه سأعطيك عقد امتلاك للشّركة، بعد عدَّة شهور كانت الشّركة السّويديَّة تمتلك شقّة شاسعة من أربع غرف في نيويورك في بناية ديلمير الشَّهيرة في بارك أفنيو قرب ناصية الشَّارع ٥٦. لكن قبل هذا بكثير كنتُ قد ذهبتُ باريس لمقابلة بارمي.

١٤

كنتُ أطلّ من نافذة جيردي ليون عندما توقَّف القطار في المحطَّة. لقد وعدتني بارمي أنَّها ستنتظرني على المحطَّة، وتساءلت كيف تكون لحظة اللقاء ونحن لم نرغب في هذا الزّواج، كانت واقفة على الرَّصيف وهي تلوّح بالقبلات. لقد شهقت عند رؤية فتاة توضّح لكلِّ النَّاس على الرَّصيف أنَّها تريد أنْ تحضنني.

بعد أن نزلت جاءتْ وحضنتني وقبَّلتني عشرات المرَّات وهي تقول: "كنتُ أريد أن أقابلك بشدّة"، وشبكت ذراعها بذراعي وهمست لي: "سنتزوّج حالًا يا حبيبي، أنا مجنونة بك، كنت أتّخيل أنّك تمارس معي الجنس كلّ ليلة"، فقلت لها وأنا أحتضنها: "لو نجد مكانًا، فالفندق غير جاهز قبل العاشرة ونصف".

ـ سنذهب لشقّتنا يا حبيبي، التي يكون فيها طفلنا.

فظهر عليَّ التَّعب فأردفت: "أحبك حينما تكون خائفًا، فلا تقلق، أبي في المكتب، أوصلته أثناء مجيئي لك، وسيعود في الظّهر، وبعدها سأتركك لتتّفقا معًا".

لم أكدْ أرى السَّلالم التي تؤدِّي لشقَّة ديفيدسون في شارع باك في الضَّفَّة الغربيَّة.

همست بإلحاح وهي تخلع الجونلّة: "هيَّا، لا وقت للانتظار"، ورفعت البلوزة فوق رأسها، وهزَّت شعرها الأصفر، وخلعت الملابس التَّحتيَّة،

ووقفتْ عارية إلَّا من مشبك يمسك جواربها. بعد ذلك قامت وصنعت قهوة أمريكاني وقالت: "الآن أشعر بارتياح".

ــ وأنا أيضًا، أذكّرك أنّي حضرت لكي أتزوّج فتاتي المجنونة، فيجب أنْ نناقش التَّفاصيل قبل أنْ تغادري المنزل.

ــ طبعًا ضروري، لا أستطيع الانتظار أكثر من هذا.

ــ يجب أن نقدّر موقف والدينا، فأمّي، كما تعرفين القاهرة ليست كباريس، لا تستطيعين أنْ تحتفظي بسرّ فيها.

ــ على فكرة، أنا آسفة لم أسأل عن أمّك، كيف حالها؟

ــ بخير، وهي تحبّك كثيرًا، ولكن ليس كفتاة تعيش معنا وهي حامل دون زواج، عامَّة أعلم أنَّنا على مذهبين مختلفين، فلذلك سنتزوّج في القنصليَّة الانجليزيَّة.

ــ المذهب الكاثوليكي مهمّ بالنّسبة لي، ولكن إذا كنت مصرًّا فهي فكرة جيّدة ولكن لن نذكر شيئًا لأبي حاليًا.

ــ هل لأنه كاثوليكيّ؟

ــ ومتعصّب.

ــ إذًا هل من الضَّروري أن نتزوّج في الكنيسة.

ــ إنْ لم نتزوّج في الكنيسة كأنّنا لم نتزوّج أمام الرّبّ.

وفجأة سألتني هل تصاب بدوَّار البحر؟ فقلت: أهذا وقته؟ ولكنَّها أصرَّت فأجبتها بلا، فهللتْ وضحكتْ بفرحة وقالت: "إذًا المشكلة انحلّت".

ومرَّت دقيقة قبل أن أدرك المغزى، حضنتها وقلت لها: "أنتِ عبقريَّة" فالاقتراح أنَّنا نتزوَّج في السَّفينة، حيث الذي يقوم بإتمام الزَّواج كابتن السَّفينة دون مراسم دينيَّة محدّدة .

إنَّها فكرة رائعة، فقهقهت وقلتُ لها: "السَّاعة الحادية عشرة ونصف، يجب أن تذهبي، سأقابلكِ في مكسيم السَّاعة الواحدة"، ورفعت جونلّتها وضربت بيدها على بطنها العارية، فسألتها: "ألنْ ترتدي ملابس داخليَّة؟"، فقالت: "الدُّنيا حَرّ" وخرجت.

أخذت أرتّب أفكاري قبل أن يأتي أبوها، وتذكّرت كيف دافعت عن شابٍّ في مصر طعنه أبو فتاة جعلها حاملًا، ولكنَّ الأب كاد يكسب القضيَّة، فعذريَّة الفتاة في مصر شيء ثمين لولا أنِّي أثبت أنَّ الفتاة مارست الجنس مع أكثر من واحد قبل نومها مع هذا الشَّاب.

جاء ديفيدسون في منتصف النَّهار، وبدون تحيَّة قال باقتضاب: "تعالَ معي لغرفة مكتبي فهي أنسب، وطبعًا لطف منك أنْ تأتي لمقابلتي"، فقلت: "وهل المفروض أنّنا كنَّا نتزوَّج بالتَّوكيل؟".

ــ أهكذا تمزحون في بريطانيا، أم أنّك تريد أن تلطف الجو؟ اسمع لي...

ــ سنسمع لبعض.

وحاولتُ أنْ أكونَ هادئًا، مردفًا: "تذكَّر أنَّ الموضوع يخصّني أنا وبارمي".

ــ وهل الآباء ليس لهم قيمة؟

ــ لهم لو تفاهموا، وعلى حسب كيف يتصرَّفون.

وأمسك بمسطرة وكاد يكسرها بين يديه وهو يقول: "أنتَ أغويت بنتي، والآن تريد أنْ تعلّمني كيف أتصرّف، آه لولا أنَّ أمّها ماتت لكانت رأت جرأتك".

ــ أنا ما أغويتها.

ــ أي أنَّها غلطتها؟

ــ نعم، وغلطتي أيضًا، ثمَّ إنَّ بنتك عرفت قبلي رجالًا.

ــ لو قلتَ ذلك مرَّة أخرى لقتلتك يا وغد، كلُّكم أوغاد يأيُّها البريطانيُّون.

ــ قلْ ما تشاء، ولكن لن تغيّر الحقيقة، هلْ تتذكَّر عندما قابلتك للمرَّة الأولى، وقلت إنَّ بنتك بارمي تشرب شامبانيا خفيفًا، منذ أنْ كانتْ ١٦ سنة؟

فهدأ قليلًا وجلس بعد أنْ كان واقفًا وقلت له: "يجب أن تتقبَّل الحقيقة، وليست هذه نهاية العالم".

وبعد فترة طويلة نهض من الكرسي وقال إنَّه يريد أنْ يشرب فنجانًا من القهوة، وذهب للمطبخ وسمعته يصرخ: "أين مصفاة البنّ؟"، وأخذ يبحث عنها، حتَّى ذهب لغرفة النّوم، وجاء وهو يشتاط غضبًا، يظهر إنَّها نسيت أيضًا أنْ ترتدي هذا قبل أن تنتهيا، ورفع في يديه ملابسها الدَّاخليَّة، ثمَّ صاح في وجهي: "اخرج".

عندما قابلتُ بارمي على الغداء تبيَّن أنَّ أباها لم يقلْ لها شيئًا مما حدث بيننا، وعليه أنْ يتقبَّل الواقع. أردتُ أنْ أريحَ بارمي فأخبرتها بأنِّي حجزت تذكرتين على سفينة كوت دي أور المغادرة من مرسيليا في غضون ثلاثة أيّام.

في اليوم الثَّاني من تواجدنا على السَّفينة جاء الكابتن مارشاند للتَّرحيب بنا فحيّيته وقدمت له بارمي، فصاح: "إنَّها جميلة، ويجب أنْ تتزوّجها حالًا قبل أنْ يأخذها أحدٌ منك".

ـ كما قلت، يجب أن نتزوّج بأقصى سرعة.

ونظرت بارمي للكابتن وقالت له: "أنتَ طيّب ومعين"، فقال: "معين؟ لم أفهم".

فقلت متدخِّلًا: "يا كابتن أنا وبارمي مخطوبان، ومع كل منَّا موافقة الأهل، وكلانا بلغ السِّنّ القانونيَّة، ولكنَّها رومانسيَّة وتريد أن تتزوَّج على يديك هنا في البحر".

ـ رائع، هذا شرف لي.

فقالت بارمي: "هذا لطف منك يا كابتن ووقفت على أطراف أصابعها وقبّلته".

فقال: "على البركة، يجب أنْ أرتدي زيًّا مهندمًا، غدًا في تمام السَّاعة الرَّابعة".

فقلتُ: "أوكيه، السَّاعة الرَّابعة، لكن أليس هناك مَن يدبّر بعض الزُّهور من أجل العروس؟".

ـ كلّ شيء سيكون تمامًا.

ولم يمرّ على حوارنا عشر دقائق حتَّى عرف جميع المسافرين بأمر زواجنا، وأخرج البارمان زجاجة من الخمر هديَّة من الكابتن للعروسين. ووضَّح الكابتن أنَّ الزَّواج على السَّفينة يتبع قوانين البلد التي تنتمي لها السّفينة، ولذلك سنسجّله في القاهرة، وأضاف بأنَّ الزَّواج في البحر أصبح مصرّحًا به منذ عام ١٨١٥ حينما كانت الرّحلة تستغرق شهورًا لا أسابيع.

تمَّ الزِّفاف على السَّفينة ووزَّع الكابتن الشَّامبانيا على مسافري الدَّرجة الأولى، وقال وهو مبتهج لقد تمَّ نقل العروسين لأكبر سرير على السَّفينة احتفاء بهما.

١٥

من المدهش أنَّنا استقرّينا في القاهرة للحياة الزّوجيَّة. لقد أحبَّ أبي بارمي وكانا يتبادلان كلّ يوم الشَّامبانيا، وأمِّي بعد أيَّام قليلة من القلق أصبحت تتصادق مع بارمي، وكانت تدعوها معها للحفلات، بينما كانت تدفع بي للذّهاب مع مدام سرِّي لحفلات الأوبرا، حيث كانت بارمي تحبّ الموسيقى الأمريكيَّة ولا تحبّ الأوبرا مثلها مثل أمِّي، لقد طلبتْ أمِّي من بارمي أنْ تناديها بشيفون نوعًا من التَّقارب.

لقد تغيَّرت حياتي في الشّهور الأولى للأفضل، فكلّ شيء كان متاحًا لنا في الجناح الشَّرقي من منزل هولت من خدم وطبَّاخين وغسَّالات.

رغم أنَّ بارمي لم يكن لها صديقات في القاهرة، إلَّا أنَّها أصبحت صديقة لمعظم البنات؛ نظرًا لأنَّها كانت اجتماعيَّة ومسرفة، وكذلك أصبح الرِّجال يحبّونها وينجذبون لها.

ونوعًا من الحبّ قامت والدتي بدعوة السَّيِّد ديفيدسون لزيارة القاهرة ولكنَّه اعتذر نتيجة سفره أمريكا لمدّة ثلاثة أشهر، وذلك جعل بارمي تبتهج ورأت أنَّ الوقت المناسب لزيارة أبيها حينما يأتي الطّفل، ومن هنا تناقشنا حول الاسم واتَّفقنا أن نتركه عندما يأتي سواء ولد أو بنت.

بين الحين والآخر كنتُ أسأل بارمي إذا كانت مرتاحة هنا أو تريد أن تسكن في مكان آخر، وكانت ترد دائمًا: "لا يا سيّدي، أنا مرتاحة جدًّا، فبصرف النَّظر عن والديك وحبّهما الجارف لي فهناك أصدقاء حولي يغمرونني بالحبّ".

ولأن بارمي أصبحت من سكَّان القاهرة، فلابدَّ من جولات في شوارع القاهرة، وتيدي كان خير معين، لذلك فهو موسوعة في هذا، ووجد في بارمي ضالته المنشودة لكي يريها مدى معرفته، فمثلها مثل ٩٩٪ من الشَّعب الأمريكي متعطِّش للمعرفة.

ولما كانت بارمي حاملًا في خمسة شهور، والقاهرة شوارعها حارّة ومليئة بالضَّوضاء، ولها رائحة فجَّة، فليس هناك مكان مناسب للتَّمشية لمدّة طويلة، ولكنَّ تيدي بدأ جولته في شوارع الزَّمالك التي مازالت جميلة بظلال أشجارها على جوانب الشَّوارع وإنْ كانت في الحرارة الشَّديدة مهملة، وشرح تيدي سبب ذلك بأنَّ المصريين ليس عندهم ثقافة بالنبات، فالزَّمالك أقامها البريطانيُّون، والقاهرة كلّها كانت مصطفّة بالأشجار، ولكنَّ المصريين ليس لديهم أيّ إحساس بالخضرة، فمعاجم العرب ليس فيها كلمات كافية تخصّ النَّبات.

تناولتْ بارمي وتيدي الغداء بجانب حمَّام السّباحة، ثمَّ استقلا بعد ذلك الحنطور ليجوبَ بهما شوارع القاهرة بالمحلات الدَّاخلة في الجدران، والباعة الجائلين على الأرصفة، وتوقَّفا عند قصر عابدين والمساحات الخضراء المحيطة به، وشربا عصير المانجو، وتناولا أكواز الذّرة المشويَّة. واتَّجها بعد ذلك للخياميَّة حيث شاهدا النّساء وهنَّ يغزلن القماش، ثمَّ بعد ذلك تتكوّن منه الخيام، بقرب مسجد السُّلطان حسن، قبل القلعة، توقّفا عند مقهى اسمه هكسوس، وشرح تيدي لبارمي الاسم وقال لها إنَّ الهكسوس قبائل بدويَّة جاءت من آسيا عام ١٧٠٠ ق . م بعربات حربيَّة وبالأحصنة وأجبروا الفرعون للتقهقر حتَّى طيبة وهي الأقصر حاليًا.

عادتْ بارمي في غروب الشَّمس وأشجار النَّخيل ترمي بظلالها في السَّماء، فسألتها إنْ زارت الآثار المسيحيَّة فقالت: "كلّ حاجة تاريخيَّة" وإنْ كنت أنا لم أزر حصن بابيليون الذي أقامه الرُّومان لحماية مدخل الدّلتا، أو السّارجيا حيثُ تخبّأت العائلة المقدّسة من هيرود، فقالت: "لم تقل لي إنَّ كلمة مصر هي قبط بالإغريقيَّة".

كنت أتساءل عن ردّ فعل سيرين لحضور بارمي، وماذا كانت لحظة نادي الجزيرة بالنّسبة لها ولي؟ وهل علاقتنا تبلورتْ في صالة الرَّقص أم أنَّه كان نداءً جسديًّا. ولو كان كذلك فأتوقَّع أنَّها وبارمي سيكره كلٌّ منهما الآخر.

وهناك احتمال آخر، فسيرين لازالت صغيرة وكنتُ أنا في صالة الرَّقص غير متزوّج، ولكن الآن معي زوجة، وسيرين مصريَّة تربّت على الاحتشام، فلربَّما إحساسها تغيّر الآن.

لكن عكس ما توقّعت فإنَّ العلاقة بين سيرين وبارمي كانت على ما يرام، فكانتا تتواعدان وتخرجان معًا للسّينما ونادي الجزيرة وجروبي. والذي قوَّى العلاقة هو موهبة سيرين في الرَّسم، حيثُ طلبت من بارمي أن ترسمها وحدَّدتا ميعادًا لرسمها.

ورغم أنَّ فارق السّنّ بينهما ثلاث سنوات إلَّا أنَّ سيرين تبدو أكبر من سنِّها وبارمي تبدو أصغر من عمرها. اعتادتْ بارمي أنْ تذهبَ معنا للنَّصراني، حيث الهواء الطَّبيعيّ والمساحات الواسعة.

ذات مرَّة كنَّا نجلس أمام البوَّابة وجاءت سيرين تصرخ: "أينَ أبي، أين أبي"، فأجابها جريج: "في الحديقة"، وأخذت تنادي عليه، وذهب جريج يبحث عنه. سألت سيرين عمَّا حدث، فقالت بنبرة غاضبة جدًّا:

"بنت فتحيَّة غير المتزوّجة حامل"، فنظرت متعجّبًا لانفعالها فأضافت: "إنَّها فتحيَّة، أي حاجة تؤثّر على فتحيَّة تؤثّر على العائلة كلّها، فهي التي ربّتنا". هكذا سيرين عندما تغضب، فهي تلك الفتاة التي من سلالة العبيد الشَّركس.

جاء جريج بسرِّي باشا، الذي ذهب مباشرة لمكان الخدم وواجه فتحيَّة التي كانت تبكي بسبب العار الذي ستجلبه لعائلة سرِّي باشا، ثمَّ توجَّه لبنتها حكمت التي تعمل في المطبخ ليبحث الوضع.

اكتشف سرِّي باشا أنَّ أحدَ الغفر واسمه عاكف هو الذي أغواها. اشتدَّ غضب سرِّي باشا وهو يحكي لي الحكاية ليأخذ رأيًا قانونيًّا لدرجة أنَّه قال: "أنا يمكنني أنْ أقتله، البنت كانت عذراء، هذا المتوحِّش، سأذهب لمكان القطن وأطرده، وربَّما أجلده إنْ لم يفعلْ ما أريد".

قلتُ له: "ما رأيك في غرامة ماليَّة؟ دعني أهدِّده وأجعله يدفع مبلغًا من المال ونعطيه للبنت على سبيل التَّعويض المالي"، فوافقني على ذلك واتَّفقنا أن نذهبَ له بعد الغداء. لكي ألم بالموضوع كاملًا طلبتُ أنْ أقابلَ فتحيَّة فتطوَّعت مدام سرِّي أنْ تذهب بي لها.

أبلغتني مدام سرِّي بأنَّ فتحيَّة تسعى لتعويض، وليس هناك تعويض عند الفلاجين غير المال، فقلت لها: "ليس هناك قانون يلزم أيَّ أبّ ظنّي بشيء ولكن سأفعل ما بوسعي".

جاءتْ مدام سرِّي بفتحيَّة التي وقفتْ أمامي قائلة: "يافندي، فتحيَّة بنتي، بنتي من بطني"، فقلتُ لها: "مدام سرِّي أخبرتني بأنَّ حكمت حبلى، وأنَّكِ تريدينَ تعويضًا من هذا المجرم".

ــ مر عليها أربعة شهور، يعني الإجهاض لا ينفع.

ــ وبعد خمسة أشهر ستشعرين بالعار، فما الذي تطلبينه كتعويض؟
ــ ما تراه مناسبًا.
وهكذا رمت الكرة في ملعبي.

بعد الغداء ركبنا ناقلة صغيرة لنذهب لحقل القطن الذي يوجد في الطّرف الآخر من العزبة. في طريقنا مررنا على حدائق الخضروات، والزّيتون، والقصب، والنَّخيل ومررنا بالطّلمبات التي تنظّم الرَّيّ، وأخيرًا وصلنا لحقل القطن الذي يمتدّ في الأفق.

كان الفلاحون وسط أشجار القطن، وفهَّمني سرِّي باشا أنَّ الفلاحين يبحثون عن دودة القطن التي تدمّر المحصول إنْ لم يتم القضاء عليها في فترة معيّنة، فبين الغرس في مارس والجني في أغسطس ممكن أنْ يفقد آلاف الأفدنة إنْ لم يتم التَّخلُّص من الدّودة.

توجَّهنا لمكان الحلج المسقوف بجريد النَّخل، حيثُ يتمّ حلج القطن وتعبئته في بالات، وسأل عن عاكف فأجابه أحد العمَّال بأنَّه في عنبر المكن.

ذهبنا لعنبر المكن في آخر حظيرة الحلج، حيث توجد قطع الغيار وأدوات إصلاح المكن، وأخذ سرِّي باشا يتفحَّص في المكان حتَّى رأى عاكف فبادره: "ها أنت هنا، إنِّي أعرف كلّ حاجة بينك وبين حكمت، إيَّاك أنْ تنكر أيَّ شيء، ولكن ها السّيّد هولت يقوم بالمهمّة، سأذهب للغيط حتَّى تنتهيا".

وأشرت لكرسي صغير كان موجودًا لمن يكتب الحسابات وقلتُ له: "اقعد يا عاكف".

ولكنَّه ظلَّ واقفًا وبادرني: "أنا عامل غلبان يافندي، لا يقعد إلَّا السّلطة"، وكانت عينه الصَّفراء تبتسم بخبث، لقد كان واعيًا بأنَّ

الوقوف يعطي بعض القوَّة ولو وهميَّة. فشخطت فيه: "اقعد"، فانكمش جالسًا على الكرسي وبدأ: "العدل حقّ يا أفندي".

ــ الحقّ الذي استخدمته مع بنت فتحيَّة.

فابتسم بمكر: "الله أراد أنْ تكون البنات اللاتي في الغيطان لمتعة الرِّجَال"، وأردف بخبث: "هنَّ اللاتي يجذبنَ الرِّجال بألاعيبهنَّ، لكن العدل في الحكم حقّ".

ــ العدل أنْ يخصم منك كلّ شهر خمسة قروش لتربية وكسوة الطِّفل.

ــ كثير يافندي، أنا معي كومة عيال، ينخرب بيتي.

وكنتُ أعلمُ أنَّ هذا كثير، وربَّما يدفع به للسّجن فقلتُ له: "سنخلِّي سرِّي باشا يضيف لك عمل ساعة كلّ يوم لتنظيف المكن مقابل الخمسة قروش"، وكنت أعلمُ أنَّ هذا مهين بالنِّسبة له، فالخفر يكرهونَ أنْ يعملوا أعمالًا حقيرة كالفلاحين.

نظر لي: "أنتَ صعب يافندي"، فأمرته بالخروج من المكان، فخرج سريعًا. ربَّما لم أؤمِّن مستقبل حكمت بالقدر الكافي، ولكنَّ هذا كان أفضل من طرد عاكف دون أنْ تحصل على شيء.

١٦

في كلّ صيف كان يذهب الأثرياء للاسكندريَّة للاستجمام، وكذلك العاملون في المحاكم والسّلك الدّبلوماسي. لكن في صيف ١٩٣٧ لم يغادر أحد القاهرة، فالملك جلس على العرش تاركًا حكم الوصاية، وبهذه المناسبة أقام حفلات خياليَّة في القاهرة، لقد داعبت الحفلات الملكيَّة خيال الأوربيين، فهي فصل من فصول ألف ليلة وليلة؛ لذلك تدفَّق السَّائحون للقاهرة التي تقدّم ما لا يقدَّم في أوروبا.

كان في مصر لكلٍّ واحد مبتغاه، فبنات العالم كلّه في كلوت بك، كلّ أنواع الرِّياضة في نادى الجزيرة، صالات الرَّقص في سميراميس وشبرد، وأندية القمار في باراديسو، ناهيك عن الأهرامات والرّحلات النِّيليَّة للأقصر.

قال أبي: "من الجنون أنْ يأتي الأجانب لمصر في عزّ الحرّ، ولكن ليس الصّخب الملكي هو السَّبب الوحيد". فسألته: "وماذا غيره؟"، فتردّد أبي قبل أن يقول: "الخوف من الحرب، فالنَّاس خائفة من اجتياح موسوليني لأفريقيا، ومن تعصّب هتلر".

ــ ولماذا مصر؟ فهناك غيرها كثير.

ــ الغربة صعبة إلَّا في مكان تشعر فيه أنَّك تنتمي له إلى حدٍّ ما، فمصر تعتبر جزءًا من الامبراطوريَّة البريطانيَّة، واللغة الانجليزيَّة يتم التَّحدُّث بها في كلّ مكان، بالإضافة إلى أنَّ معظم الأجانب الذين في مصر من الانجليز.

كان الجميع يتأنَّق لهذا اليوم، وهو فرصة للسَّيّدات ليظهرنَ زينتهنَّ ويرتدينَ أبهى ما لديهنَّ، رغم أنَّ الوقت لا يسمح لأيّ أحد أنْ ينظر لغيره فالكلّ مشغول، ولكن شيفون قالت: "لن ينشغلوا عنِّي، فالكلّ سينظر للبسي"، وقالت سيرين: "وأنا أيضًا"، فردَّ جريج: "لن ينظروا لفستانك؛ لأنَّهم سيكونون مشغولين بالنَّظر لك".

أخذت أفكّر هلْ ستذهب بارمي أمْ لا، فالجوّ حَرّ، لدرجة أنّي أقمتُ لها مكيّفًا في حجرتها، ومتوقّع لها أنْ تلد في أغسطس، فسألتها عن ذلك فأجابت بالنَّفي، فسألتها هلْ أمكث معها أم أذهب، رغم أنّي أعرف أنَّ البوليس السِّرِّي المصري ينقبّ على كلِّ مَن لم يذهب للحفل بدون عذر مقبول، فقالت: "لا، لابدَّ أن تذهب"، وقال أبي نوعًا من المواساة: "لن تخسري إلا حفلًا مملًّا جدًّا".

بالطَّبع سيذهب سرِّي باشا والعائلة بما فيها على الذي وافق أنْ يذهب حتَّى لا يلاحظ القصر رفضه، ولاسيَّما أنَّ له سجلًّا في البوليس بأنَّه متورِّط مع ناصر.

أمَّا سيرين فأعدَّتْ فستانًا خصيصًا لهذه المناسبة، وجاءت مدام لاندو التي تفصّل للأسرة من أكثر من عشرين سنة لتعمل لها البروفات، وأخيرًا أتمت تفصيل الفستان الذي بدتْ فيه في منتهى الشّياكة، وإنْ كانتْ فتحة الصَّدر مغرية حتَّى أنَّ جريج قال: "خائف من أنَّ الملك يلهث من هذه الفتحة".

سبقنا سرِّي باشا وأسرته للقصر في سيَّارته الكاديلاك الواسعة، ونحن وراءه، وكان المرور صعبًا للغاية رغم وجود مئات من رجال الشّرطة ينظّمونه. كان التَّفتيش الدَّقيق عند البوَّابات ودخول السَّيَّارات واحدة

بعد الأخرى هو سبب الزِّحام، ولأنَّ أبي خبير في مثل هذه الأمور، أحضر معه سندوتشات وزجاجتين من الشَّامبانيا، حتَّى إنَّ شيفون قالت له: "شامبانيا وسندوتشات لرحلة نصف كيلو؟"، فقال لها: "بل رحلة السَّاعتين".

دخلت أسرة سرِّي قصر عابدين، والذي يقع في وسط البلد، قبلنا، وكان كلٌّ من سرِّي باشا وعلي يرتدي بدلة رسميَّة وجاكت بأزرار ذهب وقميصًا حريريًّا أبيض وطربوشًا قرمزيًّا.

ومن حسن الحظّ أنَّنا جلسنا في غرفة واحدة، اسمها قناة السّويس، حيثُ كلّ غرفة مستقلّة بالبوفيه الخاصّ بها وإنْ كنَّا على طاولات مختلفة. ومن المفترض أنْ يتناول الملك العشاء في غرفة الدّبلوماسيين، ثم يلتقي بالضّيوف في الصَّالة البيزنطيَّة، وهي صالة في منتصف القصر تعتبر من أجمل الصَّالات في الشَّرق الأوسط، مزخرفة بالموزياكو وعشرات الشَّمعدانات الكبيرة المضاءة بالشّموع.

كانت قائمة الطَّعام مملوءة بالأصناف الباهظة التَّكلفة والنَّادرة، وكان على كلّ واحد أنْ يختار أو يذهب للبوفيه المفتوح ليتناول ما يريد. عشرات من العاملين على الخدمة كانوا يروحون ويجيئون بالأطباق المذهَّبة لنطلب ما نرغب، وشعرتُ بالانبساط لما علمتُ أنَّ سامية ستغنِّي في الحفل بعد العشاء.

بعد ذلك بدأتْ مراسم الاستقبال، حيثُ يقدّم كلّ مدعو التَّحية للملك، فبدأت بالدّبلوماسيين أوَّلًا، ثمَّ الشَّخصيَّات العامَّة، وبعد ذلك الفتيات حيث كنَّ في حجرة منفصلة، ويشير الحاجب لكلِّ واحدة لتؤدِّي

التَّحيَّة حتَّى جاء دور سيرين، فتقدَّمت بحركة رشيقة وانحناءة جميلة؛ مما دعا الملك أنْ يهمسَ لها بشيء لم نعرفه إلَّا بعد ذلك عندما ألححنا عليها.

فقالت: "لقد همس لي قائلًا: "انتظري سأراكِ بعد أنْ أتخلَّص من الغوغاء". لم ينبس سرِّي باشا بكلمة ولكن ظهر عليه الغضب، بعد أن بدأ برنامج الحفل الغنائي الرَّاقص وبعد أن انتهتْ سامية من الغناء أخبرت أمِّي أنِّي راحل لكي أذهب لبارمي، حيث إنَّها وحيدة في المنزل.

وأخذتُ طريقي بين الطَّاولات المكتظَّة بالنَّاس لكي أصل لأبي الذي كان يجلس على طاولة بعيدة، حتى أستأذن منه وأرحل، وما أنْ وصلتُ له حتَّى صاح: "انظر، مَن يأتي لكي يسلِّم عليّ".

لقد كانت سامية التي غنَّت ثلاث أغنيات، فحيَّاها أبي: "صوتك ملائكيّ"، فردّت عليه: "غنائي كان لك يا عزيزي"، فقلتُ: "بعدَ الملك"، فقالتْ بمرارة واضحة: "لا، لم يعد راغبًا فيّ بعد الآن، فهو يقول لي إنِّي بدأتُ أتخن".

أثناء ذلك جاء أحد الخدم وأعطى لأبي ورقة صغيرة، فقرأها أبي وقال: "عن إذنكم، إنَّها من سرِّي باشا، يظهر أنَّ جلالته يريد أنْ يقابلني في غرفة السّفرة".

وبعد أن رحل قالتْ لي سامية: "سمعت أنَّك تزوَّجت عروسة جميلة"، فقلتُ: "جميلة مثلكِ"، ورحتُ أسألها: "كيف حال الكباريه؟"، فردَّتْ: "كلُّ شيءٍ على ما يرام، لماذا لا تأتي لترانا، إنَّه محترم، اسمه سفنكس، وأنا لعلمك لم أعد أغنِّي إلَّا في المناسبات الضَّروريَّة"، فوعدتها بالذَّهب فقالت: "الشَّامبانيا عليَّ".

ومرَّتْ فترة من الصَّمت قطعتها: "فيمَ تفكِّرين؟"، فابتسمت: "فيك، في الليلة التي قضيناها معًا، رائعة"، فضحكت لأخفِّف الحدّة: "أحلى من الملك"، فقالت: "للعلم، عمري ما مارست الجنس مع الملك"، فاندهشت: "والكباريه، وغناء الليلة؟"، فصبَّتْ مزيدًا من الشَّامبانيا: "هو ليس بالإنسان السَّيّئ، ولكنَّ الليلة لم تكنْ موفَّقة".

فالتفتُّ من حولي خشية أنْ يسمعنا أحد: "سامية"، فتنهَّدت: "أردت أنْ أسعده، حاولتُ أنْ أثيرهُ بأيِّ شكل، خلعتُ ملابسي، ثمَّ خلَّعته ملابسه بنفسي، حاولتُ معه بكلِّ الطُّرق، جرَّبتُ كلَّ شيء، ولكن في النِّهاية لم نفعل شيئًا، بالمناسبة لم أمارس الجنس مع أحد منذُ أنْ مارسته معك".

فنظرت ببلاهة وهي تستمرّ: "لا تقلقْ، لن أطلبَ أنْ أكونَ عشيقتكَ حتَّى لا أجرح زوجتك أو الفتاة التي قلتَ إنَّها تحبّك، اسمها..."، فقلتُ: "سيرين"، واستمرَّتْ في كلامها حتَّى أنِّي تمنَّيت لو أنَّ أبي أو أمِّي تأتي لتساعدني، ولكنَّ المقاطعة جاءتْ من شخصٍ آخر حيَّانا من الخلف، عرفته من صوته فاستدرتُ على الكرسي المذهَّب وقلتُ: "أهلًا جنرال صادق"، فجلسَ دونَ أن ندعوه لذلك: "كانت ليلة جميلة، أليس كذلك، ولكنَّ المؤسف أنَّ زوجتك لم تتمكَّن من الحضور، كنتُ أتمنَّى مقابلتها".

ـ إنَّها حامل وعلى وشك الولادة، وإلا كانت حضرت".

ـ أعلم هذا، وعلى أيّ حال معك السّتّ سامية تؤنسك.

سرَتْ في جسدي رعشة، لستُ أدري أهي من غضب أمْ خوف، فهذا الرَّجُل يتجسَّس، ولا أعرف ماذا في سجلِّه الشَّخصي.

اقتربتْ منَّا امرأة ذات شعر أسود فاحم، وقبل أنْ تصلَ قامتْ سامية واستأذنت للرَّحيل وانصرفتْ. لم ينزعج صادق لتصرُّف سامية، وما أن وصلت المرأة حتَّى قدَّمها لي: "لا، لا، زوجتِي"، وشعرت فورًا أنَّها امرأة تنطوي على شرّ، فوجهها كالزّجاج لا تعبير له وكأنَّها ذهبت عدَّة مرَّات لأشهر دكتور تجميل في الشَّرْق الأوسط، والكائن في عمارة جروبي.

كلّ ندبة وكلّ التَّجاعيد أزيلت تمامًا حتَّى كأنَّ الشّفاه لصقت لصقًا، وبدا كأنَّ شيئًا ما أزيل من حول عينيها، كانتْ نحيفة جدًّا ويداها مغطاة ببقع بنيَّة، امرأة تحاول أنْ تحاربَ الزَّمن، لقد تركت في داخلي انطباعًا بأنَّها تكره كلَّ شيءٍ.

بعد تبادل التّحيَّات قالتْ لزوجها: "أرسلت الآنسة سرِّي لجلالته؟ أم أنَّك خبَّأتها بعيدًا؟"، وعند سماعي اسم الآنسة سرِّي طرطقتْ أذني: "كما تعرفين إنَّها مخطوبة لأخي"، فردَّت وهي تنظر بجنب عينها: "حلوة، حلوة جدًّا، حتَّى أنَّها أحلى من سامية". ولكي يطمئن زوجته قال صادق: "كلّ شيء تمام"، وبدأ يشرح لي: "جلالته معجب بها جدًّا، سيتناول العشاء في الغرفة الذَّهبيَّة مع قلَّة يفضّلهم وهي غرفته الخاصَّة، أظنّ أنَّ أحد الوكلاء اصطحبها إلى هناك".

عاد أبي لطاولتنا بعد أن انصرفَ صادق وزوجته، وقرَّرنا أن نعود للبيت وأن نعيد السَّيَّارة لأمِّي مرَّة ثانية، عندما وصلنا البيت قابلنا زولا وأخبرني أنَّ بارمي تريدني لما أرجع.

وبينما أخذنا نتناول كأسًا ما قبل النّوم سألني أبي: "ما رأيك في الملك؟"، فقلت: "عينه على سيرين"، فقال: "بعيدًا عن هذا، أرى أنَّه تصرَّف برجولة واحترام، عكس ما سمعتُ عنه من شائعات".

ـ تصرّف قدر المسئوليَّة.

فوافقني أبي على هذا.

انضمَّت لنا بارمي، وبعد أنْ قبَّلتْ أبي كالعادة سألتنا: "ليلة ممتعة؟"، فأخبرتها بأنَّ سيرين ستتناول العشاء مع الملك. فجأة قالتْ: "حدث شيء غريب هذا المساء، لقد جاء هذا الرَّجل الذي كان في عزبة سرِّي باشا، له اسم غريب، على ما أعتقد غفير، الذي جعل البنت حبلى".

فانتفضتُ واقفًا: "عاكف!"، واستدعيتُ على الفور زولا وسألته عمَّا حدث، وقال إنَّ عاكفًا جاء أوَّلًا ليسأل عن عليٍّ، ثمَّ عاد مرَّة أخرى وقال إنَّ عليًّا سمحَ له أنْ يتفرَّج على منزلنا التَّاريخيّ، وراح يتجوَّل في المنزل غرفة غرفة، وقبل أنْ يتمَّ كلّ البيت أجبره زولا على الانصراف. إنَّه مجنون، وتساءلت مع نفسي إنّني هدّدته والمصريُّون لا ينسون الانتقام.

لما رأيتُ أبي وبارمي يتثائبان، قلتُ لبارمي: "هيَّا ننام" ووضعت ذراعها في ذراعي وقالت: "متى أضع هذا الذي في بطني؟".

١٧

خلال عدّة أيّام أقام عليٌّ حفلًا وكأنَّه يريد أنْ يثبتَ لأصدقائه أنَّ حفله أكثر حيويَّة من الحفلات الملكيَّة. لقد اختار الميعاد المناسب، آخر الأسبوع، حينما تكون أسرته في العزبة، وكما قال بأسلوب مرح: "لكي أستطيع أنْ أدعو كلَّ أصدقائي حتَّى لو أنَّك لا تحبّهم".

ــ وهلْ أنا منهم.

ــ حالة مستحيلة.

وكان عليٌّ يتميَّز بروح الدّعابة حينما يكون رائقًا فأردف: "ولكن لأنِّي أحبّ بارمي فسوف نسمح لك بالحضور".

ذهبنا أنا وبارمي عبر الحديقة التي تفصل القصرين، ولما كانت صالات الموسيقى في طرفي الحديقتين أخذنا نتمشَّى وكانتْ تقول: "أنا أعزّ عليًّا، أعتقد أنّه يُساء فهمه".

ــ نعم، هو كذلك، وإنْ كان متهوِّرًا بعضَ الشّيء، لكن سيكبر على هذا، على أيّ حال يجب أنْ يفكِّر في مركز أبيه، الانشقاق عن الرَّأي في أمريكا أو بريطانيا لا يؤثِّر، أمَّا هنا فأيّ فرد في العائلة قد يضرّ انشقاقه الآخرين، وبالتَّالي من الممكن أنْ يفقدَ سرِّي وظيفته.

بصرف النَّظَر عن اتجاهه السِّياسي كان عليٌّ الابن الوحيد لرجل مشهور، لذلك استطاع أنْ يتعاملَ مع صداقات مختلفة ببراعة. استقبلنا عليٌّ عند مدخل القاعة مرحِّبًا: "هناك صديق قديم يودّ أنْ يراكَ يا مارك، لم يرك من قبل يا بارمي".

دخلنا القاعة وقدَّموا لنا فودكا وعصير مانجو، كان تيدي ودودي وإنجيلا وستيفنسون يتحدَّثون معًا، وأشار لنا تيدي من القاعة، وفي طريقي لهم قابلت مَن يريد أنْ يراني، جمال عبد النَّاصر جاء مادًّا يده. لقد امتلأت قامته الفارعة، حوالي ستّة أقدام، ولم يعد فتى صغيرًا، ورغم أنفه البارز ووجهه الجاد، بدا ودودًا ومبتسمًا وصافحني بحرارة.

قال لي ناصر: "كما ترى، فعلتها وتمَّ قبولي في الأكاديميَّة الملكيَّة العسكريَّة، وأنا الآن ملازم ثانٍ، راتبي ١٢ جنيهًا في الشَّهر فقط، ولكن غير مهم، فأنا أعتقد أنّي أساهم في بناء مصر الغد".

كان يتكلَّم بحماس، ورغم أنَّ الكلام كان في السِّياسة إلَّا أنَّه لم يؤثِّر عليَّ، فهو كلام مكرّر يقوله النَّاس على المنصَّات ليلهبوا الجمهور، وعندما قال ناصر ذلك بابتسامة، كان أيضًا يتحدَّث بعاطفة، وأيًّا كان الأمر فقد كان ناصر عبقريًّا.

كان هناك ضابط آخر في زيّه الرَّسميّ قدَّمه ناصر: "أنور السَّادات زميلي، كنَّا معًا في منقباد، مركز تجنيد في صحراء الصَّعيد". كان السَّادات صغيرًا، ولكن له وجه لافت للنّظر، عيون واسعة لا ترمش أثناء الكلام، وشفاه غليظة. كان دمث الأخلاق، وكان كما لو كان في مستهلِّ العشرينيَّات، كان تقريبًا أصغر من ناصر بسنة، كان صوته يتغيّر من الرِّقَّة للحدَّة إذا أثير، وكان ذلك دائمًا يحدث عندما يتحدَّث عن مستقبل مصر.

قال السَّادات: "مستقبل مصر يعتمد على الضّبَّاط الشَّباب مثل جمال ومثلي. الضّبَّاط المستقلِّين، لا الكبار الرَّجعيين الذين لا يهتمُّون باستقلال مصر، وكلّ ما يهمهم أنْ يصبحوا جنرالات، أنا واثق أنَّك فاهم يا سيّد

هولت"، وازداد صوته حدَّة وهو يضيف: "شيءٌ طبيعيّ أنْ يكافح الشَّباب المصريّ من أجل الاستقلال".

وافقته بأدب: "طبعًا، عندنا يحدث الشّيء نفسه في اسكوتلاندة"، فنظر الاثنان بدهشة وسألا: "تقصد التي في المملكة المتَّحدة؟"، فأومأت بالإيجاب وأنا مبسوط من المزحة.

عادتْ بارمي وسيرين، وطلبتْ بارمي أنْ تذهبَ للمنزل؛ نظرًا لما بها من حمل، وتطوَّعتْ سيرين أنْ تذهب معها بدلًا منِّي لكي أبقى مع الأصدقاء، بمجرد أنْ ذهبا لمحتُ شخصًا مصريًّا آخر لا أعرفه، فسألتُ ناصر: "مَن هذا؟"، فأجابني: "عدلي حكيم"، وأضاف: "يا سيّد هولت نأمل نحن الضُّبَّاط الشُّبَّان أن نبني مصر الأفضل، ويجب أنْ يتمَّ هذا بالسّبل الشَّرعيَّة، لا إراقة دماء ولا عنف، وعدلي حكيم وزملاؤه يشاركوننا نفس الحلم بالاستقلال، ولكنَّ البعض منهم يميل للعنف".

وأضاف السَّادات: "نريد كلَّ العون الذي نستطيع أن نحصل عليه، ولكن لا نريد جماعة الإخوان المسلمين أنْ تحكم مصر"، فهمت من ذلك أنَّ عدلي حكيم من جماعة الإخوان، وهي جماعة سرِّيَّة منظَّمة لحدٍّ كبير سياسيًّا، وهي تتسترَّ تحت دعوى توحيد المسلمين.

هذه كانت الصورة الظَّاهرة، ولكن كان تحت هذا الحماس الدِّيني جماعة منظَّمة جدًّا تتوق للاستقلال بأيِّ شكل. كان هناك جماعات كثيرة منافسة لجماعة الإخوان ولكنَّها كلّها اختفتْ.

قال السَّادات مقرًّا: "ورغم أنِّي لا أثق فيهم فلا أرى سببًا لعدم التَّعاون معهم، إنَّها جماعة منظَّمة".

لم أشعر بأنِّي ارتحتُ لعدلي حكيم، ولم يشعرني بأنَّه شخصيَّة مهمّة أو أنَّه عبقريَّة لا في التَّخطيط. تجاذبنا أطراف الحديث قليلًا حتَّى سمعته يقول لعليٍّ: "أنا حاسس أنِّي مخنوق، أحتاج هواءً نقيًّا، أريدُ أن نتمشَّى في الحديقة".

قررتُ أنْ أذهبَ للمنزل؛ لأنَّ الحفلة لم تكن من النّوع الذي يروق لي، ولأنِّي أيضًا لم أرتح لأصدقاء عليّ باستثناء ناصر الذي أكنّ له المحبة. وفي طريق خروجي استوقفني ستيفنسون عند الباب وسألني عن علاقتي بعدلي حكيم، فقلتُ له: "لم أعرفه إلَّا الليلة"، وخرجنا من القاعة لكي أتمشَّى في الحديقة حتَّى المنزل، وأثناء الخروج لمحنا شبحًا في آخر الجنينة لم نتبيَّن وجهه فظننته أحد الخدم، ولكن فجأة تواردت في ذهني أفكار غاضبة فصحت: "إنَّه عاكف"، فسألني ستيفنسون: "مَن عاكف؟"، وبمجرد أنْ أجبته كان عاكف اختفى تحت جنح الظَّلام وكذلك اختفى حكيم من الحديقة.

فجأة سمعنا طلقًا ناريًّا عقبه صراخ، فجريتُ إلى المنزل ومعي ستيفنسون، ولما كانت قاعات الموسيقى سواء عندنا أو عند سرِّي باشا محاطة بمادَّة عازلة، فلم يسمع أحد داخل القاعة أيَّ شيء من الجلبة، ودخلت من الباب الخلفي فرأيتُ عاكفًا يشهر مسدّسه على أبي، ويطلب منه أنْ يتبعه. همس لي ستيفنسون بأنَّ أبي على قائمة اغتيالات الإخوان، وأنَّ عاكفًا وحكيمًا من الإخوان وهم ينفِّذون الخطَّة.

استطعتُ بعد مناورات دقيقة أنْ أقفز فوق عاكف وأخلّص المسدّس من يديه، وساعدني أبي أنْ أضربه على رأسه لكي يفقد الوعي، وكانت رائحة البارود أثر الطلقة التي أطلقها عاكف تملأ الغرفة، وأخذتُ أتسلَّل

لغرفة الموسيقى، حيث تقع غرفة بارمي فوقها، لم أجد ستيفنسون حولي فخفتُ أنْ يكون قد حدثَ لهُ شيء خطير ولاسيما بعد أنْ سمعتُ صوت طلقة مرَّة أخرى وصراخ نساء؛ ففكَّرتُ في الذّهاب لمشربيّة النِّساء التي تكون في جانب من قاعة الموسيقى لكي يجلس فيها النِّساء للاستماع للموسيقى، نظرتُ من شقٍّ بسيط في المشربيَّة فوجدتُ في قاعة الموسيقى بارمي وشيفون وستيفنسون مربوطًا، ورأيتُ الخدم متجمّعين في مكان بجوار المسرح، وحكيم يشهر مسدّسه، لقد كان في انتظار عاكف.

تقدّمت امرأة وهي تبكي بعويل محزن وفي حضنها طفل صغير تترجَّى حكيم أنْ يرحمها من أجل طفلها المريض، وسيرين تمزق فستانها الأبيض لكي تضمد به الطِّفل، وراح زولا يترجَّى حكيمًا ليحضر بعض الماء من الطِّفل، ولكنَّ حكيمًا صرخ في الجميع ليلتزموا الصَّمْت.

حاول ستفنسون أنْ يكسّر الصَّمت بقوله إنَّ عاكفًا ربَّما يكون قد رحل، فراح حكيم يضربه بمؤخّرة المسدّس في وجهه حتَّى سال دمه. كلّ هذا حدث وأنا أترقَّب الفرصة لكي أنقضَّ على حكيم وأخلِّص الجميع منه، وبالفعل جاءت الفرصة، ولكن بعد أنْ راحت الأمّ وعلى كتفها طفلها تركع لحكيم أنْ يتركها وابنها، فدفعها دفعة قويَّة أودتْ بحياة الطِّفل، فحينها تحرَّك قليلًا رحت أنقضّ عليه، وساعدني بسرعة ستفنسون على ذلك.

أخذتْ سيرين بارمي لتنقذها من الآلام التي حلَّتْ عليها لأقرب مستشفى حتَّى ألحق بها. أردتُ أنْ أستدعي البوليس، ولكنَّ ستفنسون منعني بقوله إنَّ حكيمًا لو دخل السّجن سيرتاح، حيثُ إنَّ الإخوان

سيعتنون به طوال حياته ويدفعون له كلَّ ما يحتاج، فسألته عما نفعل، قال سنستدعي الجيش ولكن بعد قليل.

أمسكَ ستيفنسون بالمسدّس الذي كان مع حكيم، وأرقد حكيمًا على الأرض وبضربات فنِّيَّـة راح يكسر في عظام كوع حكيم حتَّى أغمي عليه، ثمَّ راح للكوع الثَّاني وفعل مثل ذلك، فأصبح حكيمٌ بلا ذراعين تقريبًا للأبد. طلب منِّي ستفنسون أنْ أذهبَ وأرى عاكفًا الذي كدت أنساه، ذهبت لغرفة مكتب أبي فلم أجد عاكفًا، لقد اختفى، ولكنَّ أبي طلب منِّي أن ألحق ببارمي في المستشفى وأنسى عاكفًا الآن.

فصحتُ: "هيَّا يا ستفنسون"، وقُدنا السَّيَّارة بأقصى سرعة لمستشفى الأنجلو أمريكان راجيًا ألَّا نصل بعد فوات الأوان.

١٨

عندما وصلنا المستشفى طمأنني الدُّكتور فيليب بأنَّ بارمي بخير، وعرَّفني بالدّكتورة هاسلتين طبيبة النِّساء التي لم تضيّع وقتًا، وأخبرتني أنَّ سقوط بارمي سبَّب نزيفًا داخليًّا ولابدَّ أنْ تلدَ قيصريًّا. ذهب ستفنسون لقسم الجراحة السَّريعة ليطبّب الجرح الذي في وجهه، ودخلتُ لكي أرى بارمي التي كانت تحت تأثير المسكِّن ولكن رأتني وابتسمت بجهد، فجلست بجانبها، ثمَّ أخذت تتألم بشدَّة من أثر الجرح، وقالت هامسة بجهد: "لو جرى لي أيّ شيءٍ اوعدني إنَّك تعمّد الطِّفل على المذهب الكاثوليكيّ".

ــ لا تخافي لن يحدث شيئًا سيّئًا.

ــ كلُّهم ساعدوني، شيفون وسيرين، لا تنسَ أنْ ترسلَ لأبي إذا حدث لي شيء...

ثمَّ راحتْ في النّوم فجأة فخرجتُ في هدوء، أوَّل شخص قابلته في الممر كان سيرين، قبَّلتني في خدِّي، وقالتْ لي إنَّ أمِّي ذهبت للمنزل لتهتمَّ بأبي، وقالت لي إنَّ جرحي يجب أنْ يعالج فذهبت للجراحة، بعد أنْ انتهيت من معالجة الجرح ذهبت للاستراحة حيثُ سبقتني لها سيرين، وقابلنا ستفنسون بعد أنْ ضمَّد وجهه.

طلبتْ من سيرين أنْ تذهب وبقيتُ أنا وستفنسون في الاستراحة، حيثُ قلت لستفنسون: "لا تقل لي إنَّها صدفة إنّك أنقذت أبي"، فقال لي وهو يبتسم: "لا لم تكن صدفة فأنا أعرف أنَّ حكيمًا قابل عليًّا قبل ذلك

ودَعَى نفسه للحفلة، وكذلك أنا دعوتُ نفسي، ولما طلب حكيم من عليٍّ أنْ يمشي في الجنينة والجوّ في القاعة لم يكن سيّئًا بل أفضل من الجنينة، ولما كان أيضًا حكيم لا يحبّ الحدائق شككت في الأمر، ولكنّي بصراحة لم أعرف شيئًا بشأن الآخر إلَّا لما أخبرتني أنتَ بأنَّه جاء للمنزل قبل ذلك"، فقلتُ له مستغربًا: "ولم أنت تعرف كلّ هذا؟".

ـ بصراحة أنا أعمل لصالح واشنطن، أنتَ تعرف أنَّ هناك تحرُّكات خفيَّة في الجيش بين الضّبَّاط السَّاخطين، وهم يسمّون أنفسهم "الضّبّاط الأحرار"، وبصراحة أنا شخصيًّا أؤيّدهم نظرًا للفساد والعفن الذي في القوَّات المسلّحة.

ـ لستَ مع الإخوان المسلمين؟

ـ لا، أنا لستُ مع القتل، ولكن هناك من الإخوان رجال معتدلون، كما أنَّ هناك رجالًا معتدلين مثل أبيك رغم...

ـ لك تحفّظ؟

ـ الولايات ترى أنَّ بريطانيا تريد أنْ تستحوذ على الشَّرق الأوسط والأفضل أنْ يكون هناك اعتدال، لكن للأسف ما إنْ تضع قدمها في مكان إلَّا وحوّلته لمستعمرة.

ـ هذا سخف، هذا ظلم.

ـ هذا ما علمت به، وأمريكا على أيّ حال ضدّ الاستعمار.

ـ مثل هاواي؟ أذكرك أنَّها كانت تتبع بريطانيا، أو جزر فرجن الأمريكيَّة؟ التي اشتريتموها من الدّانمارك بثمن بخس؛ ٢٥ مليون دولار لكي تحمي أمريكا من الحرب حين بدأت في ١٩١٤، أليس كذلك يا جيم،

وماذا عن بورتيكيو والفلبين التي تمَّ التَّنازل عنها نتيجة الحرب الأمريكيَّة الأسبانيَّة، أنتم أسوأ من بريطانيا، لكن لا يحالفكم النّجاح كثيرًا.

فضحك ستيفنسون قائلًا: "هذه فرضيَّة معروفة أنَّ أيّ دولة تحتلّ أرضًا تقول إنَّ الأمر مختلفٌ إذا انتقدتها دولة أخرى"، فرددت: "هذا أمر مختلف".

كنتُ أتَّصل كلَّ فترة بموظّفة الاستقبال لأطمئنَّ على بارمي التي مازالت في غرفة العمليَّات، وإنْ كان الحديث مع ستيفنسون هدّأ من روعي، وصرفني عن التَّفكير في العمليَّة. هذه هي المرَّة الأولى التي أرى فيها ستيفنسون محترفًا في يقظته وبديهيته في ردّ الفعل، ولكن سألته عن الطَّريقة التي عامل بها حكيمًا فقال: "أترى أنَّها قاسية؟".

ــ في منتهى القسوة.

فقال: "أقسى من قتله لطفل مريض في قاعة الموسيقى؟".

ــ ولكنَّ البوليس والمحكمة؟

ــ أحبّ دائمًا أنْ يكون العقاب من جنس الجريمة.

أخيرًا جاء الدّكتور فيليب وأخبرني بأنَّ العمليَّة انتهت بخير، وأنَّ بارمي أنجبت بنتًا. ذهبنا لغرفة بارمي وأمسكت بيدها، كانت مبتلَّة وساخنة، فقلت للدّكتورة: "إنَّها ساخنة جدًّا".

ــ اطمئن، ستكون بخير، هذا شيء طبيعي، ولكن هي تحتاج الهواء، فلو سمحتم جميعًا تفضّلوا لخارج الغرفة.

بمجرَّد أنْ خرجنا سألت: "أين الطِّفل"، فقال لي الدّكتور إنَّه كان هناك صعوبة في التَّنفُّس وهي الآن في غرفة العناية المركّزة. طلب من الدّكتور أنْ أذهب للمنزل، وقبل أنْ أغادر مررت على بارمي والتي

أفاقت، ولكنَّها كانت ضعيفة جدًّا، وسألتني عن الطِّفلة فطمأنتها وقلتُ لها إنَّها جميلة مثلها. تركت المستشفى وذهبت المنزل، في الصَّباح جاءني تليفون من الدّكتور فيليب أحسست من صوته أنَّ هناك شيئًا سيِّئًا، فسألته: "زوجتي؟"، فقال: "هي بخير، ولكن للأسف الطّفلة ماتت بعد ستّ ساعات".

ذهبتُ للمستشفى مصدومًا، حزينًا بأنَّ بنتي الطّفلة عانتْ ساعات لكي تتنفَّس، ولقد نسيتُ تمامًا أنْ أعمّدها كما وعدتُ بارمي.

2

الفَصْلُ الثَّاني

١٩٣٨ ـ ١٩٤٢

١٩

عندما عادتْ بارمي للمنزل كانت لا تزال في حالة اكتئاب، وبدأتْ تتشكَّك في مدى صحَّة زواجها من بروتستانتي. نعم، زواجنا تبارك بقسيس كاثوليكيٍّ، ولكن ذات مرَّة قلت مازحًا إنَّ الأمر لا يسبّب مشكلة، ففي القاهرة يمكنكَ أنْ تفعلَ ما تريد طالما تدفع الثَّمن، فشعرتُ كأنَّني تلاعبتُ بمباركة الزَّواج، وبالتَّالي فالحمل غير شرعي والطّفل لن يصعد للسّماء ما لم تندم.

سألتُ الدّكتور فيليب، فقال إنَّها حالة اكتئاب ما بعد الولادة وستأخذ مدَّة طويلة للعلاج، وليست الحالة جسديَّة فحسب، بل كانت حالة ذهنيَّة إذ إنَّها كانت تردّد دائمًا: "أنا ارتكبت خطيئة وربّنا يعاقبني عليها، ويجب أنْ أدفع الثَّمن".

ـ وهل أنا أيضًا سأدفع الثَّمن.

ـ أعتقد ذلك.

مرَّتْ شهور على هذه الحالة، حتَّى قرَّرتْ بارمي أنْ تسكن في شقَّة لوحدها بجوارنا، وبعد ذلك قرّرت أنْ تذهب لتكون مع والدها، الذي فضَّل أنْ تستقرّ في أمريكا بعيدًا عن الحرب المحتملة في أوروبا.

بعد أنْ سافرت بارمي سألتني شيفون إذا كان يمكنني الطَّلاق في هذه الحالة، فذهبتُ للقسيس الذي بارك زواجنا في القاهرة وأخبرني أنَّ الأمر صعب ولاسيّما أنَّ بارمي تعتبر هذا الوضع هو عقاب من الرَّبِّ وخلاص من الخطيئة.

لم يكن هناك مَنْ ساعدني في الخروج من هذه الأزمة أكثر من سيرين، لقد بلغت الآن ١٩ سنة وأصبحت ناضجة، لقد تغيَّرتْ في خلال تلك

السَّنة كثيرًا، وموعد خطوبتها لجريج تمَّ تحديده في الخريف، بفضل بابتس صارتْ سيرين رائعة في الرَّسم، كنتُ أشاهدهما من نافذة مكتبي وهما يقيمان حوامل الرَّسم في حديقة الأزبكيَّة وكيف كان يرشدها في تنفيذ اللوحات، وإن كان كلٌّ منهما محتفِّظًا بشخصيَّته في الأداء.

كان بابتس يقول: "لا أستطيع أنْ أجعلها رجلًا"، وبالفعل كانت مفعمة بالأنوثة في رسوماتها، كانتْ بعدَ أنْ تنتهي من الرَّسم تأتي لزيارتي في المكتب. في إحدى المرَّات جاءتْ ومعها لوحة عبارة عن مبانٍ من العصر الفيكتوري وفي الوسط رجلٌ ينظر من النَّافذة، وقالتْ سيرين: "سأسمّيها محامٍ ينظر لرسَّام"، ثمَّ ابتسمتْ وأضافتْ: "هي لك يا مارك"، فقلتُ لها: "ماذا كان شعوركِ حينما كنتِ ترسمينها".

ــ يمكنكَ أنْ تأخذَ يوميَّاتي وتعرف منها كلَّ شيءٍ عن أسراري.

من ذلك اليوم واللوحة معلَّقة في مكتبي، وكلَّما نظرت لها تذكَّرت ذلك اليوم الذي كنتُ أنظر فيه من الشّبَّاك وأنا أشاهد الرَّسَّامين في الحديقة.

رغم أنَّ سيرين كانت مهتمَّة جدًّا بالرَّسم إلَّا أنَّها لم تنسَ الحياة الملكيَّة، فكان الملك دائمًا ما يدعوها للقصر. كان صادق يعرف مواعيد جريج في مبارياته أو سفره للاسكندرية، ويجعل الملك يدعو سيرين في ذلك التَّوقيت، ولكنَّ سيرين قالت ذات مرَّة: "جلالته ليس عنده وقت لي، فهو مشغول بعروس المستقبل"، وفعلًا هذا كان حقيقيًّا، فلقد تمَّ إعلان أنَّ الملك سيتزوَّج في يناير المقبل أوَّل ١٩٣٨.

زوجة المستقبل كانت صافيناز ذو الفقَّار، ١٦ عامًا، ابنة أحد كبار قضاة الاسكندريَّة، وكانت في مرَّة بصحبة إحدى أخوات فاروق فرآها فأعجب بها. يذكُر سرِّي باشا التَّاريخ بالتَّحديد، ٢١ أغسطس حينما قرَّر

فاروق أنْ يتزوَّج؛ لأَنَّهُ كان في قصر عابدين عندما أعلنَ فاروق عن ذهابه الفوريّ للاسكندريَّة غير مهتمٍّ بشئون القصر أو المواعيد أو التَّرتيبات، ولحظتها سأل الملك: "لماذا لا تسألونني لم أنا ذاهب للاسكندريَّة"، فقال أحد الحاشية وهو عمر فتحي الذي سيصطحبه للاسكندريَّة: "ما لنا أن نتدخَّل في شئون جلالتك".

فردَّ الملك: "أنا ذاهب لأهمِّ مقابلة في حياتي". قاد فاروق سيَّارته ألفا روميو للاسكندريَّة بأقصى سرعة غير آبه بالبشر أو الحيوانات التي تصادفه على الطَّريق حتَّى توقَّف مباشرة أمام منزل القاضي ذو الفقَّار. لم يكن أحد في المنزل غير صافيناز والتي أفشى لها فاروق رغبته في الزَّواج منها، فوافقت وقالت: "هذا شرفٌ عظيمٌ لي، ولكن يجب أنْ أخطر والديَّ".

من سوء الحظِّ كان القاضي ذو الفقَّار في ميناء بورسعيد ذاهبًا للبنان لمدّة أسبوعين، ولكن الملك لم يستطع الصَّبر لمدَّة أسبوعين فاتَّصل بالتّليفون ببعض الجهات، وعلى السَّفينة فوجئ ذو الفقَّار بالشُّرطة تعترضه وتنزله من السَّفينة كأَنَّه مجرم دون أنْ يعرف أيَّ تفاصيل.

في ذات الليلة تمَّ استدعاء ذو الفقَّار لقصر المنتزه، حيثُ قابل الملك الذي بادره برغبته في الزَّواج من ابنته، لم يكن أمام القاضي إلا الموافقة ولكن طلب من الملك أنْ ينتظرا مخطوبين لعدّة سنوات؛ لأنَّهما مازالا صغيرين.

لم يعبأ فاروق بهذا، وحدَّد تاريخ الزَّواج في خلال ستّة أشهر بالضَّبط في ١٢ يناير، وقام بطباعة الدّعوات والتي أمر فيها أنْ يغيّر اسم صافيناز لـ"فريدة".

عمَّت الفرحة على البلد كلّه، فالملك سيتزوَّج زواجًا ولا في الأحلام. وعمَّت السَّعادة فريدة، فكان فاروق يمطرها بالهدايا ويتباهى بها في اللقاءات وقاعات الرَّقص والأماكن الخاصَّة والعامَّة.

أرادت سيرين أن تغيظني فقالتْ: "ترى؟ ضاعت منِّي فرصة أنْ أكون ملكة مصر، أو عشيقة الملك، ولم أكنْ محظوظة لكي أكون مع الملك لوحدنا، أو حتَّى معك"، فابتسمت: "غلطة مَنْ؟"، متذكِّرًا أنَّ سيرين من وقت للآخر كانت تتمشَّى في حديقتنا تتجنَّب أن نكونَ بمفردنا، فهل هي تعليمات من سرِّي باشا، أم الأحداث الأخيرة من محاولة اغتيال لأبي، وحادث بارمي، أو محاولة أنَّها تكون سعيدة مع جريج فتبتعد عنِّي كما أحاول أنا.

ذات مساء، في عزبة سرِّي باشا، ذهب جريج وعليّ للصَّيد، وذهب سرِّي وزوجته للرَّاحة وجلست وحيدًا في الفارندا أحتسي بعض الويسكي وكانت سيرين تشرب الكركديه، فجأة وضعت يدها على يدي وتنهَّدت: "ربَّما تكون مختلفة".

لم تكن الكلمات وحدها التي تعبر بل وجهها أيضًا، فهذا الشُّعور القويّ لم يستغرقْ إلا ثوانٍ، لكن خلالها تغيَّر وجهها فكأنَّه ارتدى قناعًا أو خلع قناعًا، فحلَّ محلَّ الجمال الجوع، وبدتْ كأنَّها تريد أنْ تعتصرني، فقد تعرَّت مشاعرها ولم ترد سوى أنْ تأخذني لغرفة خاوية وتشدّني لها ولو على الأرض.

ها قد هلَّ من بعيد جريج وعليٌّ يحملان على كتفيهما عصا قويَّة معلَّق فيها طيور كثيرة فقلت: "يظهر أنَّهما اصطادا طيورًا كثيرة"، فقالتْ بحزن: "ياهذه الطّيور المسكينة، يالبارمي المسكينة، يالنا من مساكين!".

٢٠

يالها من ثلاثة أيّام لن تنمحي من الذّاكرة، عمَّ فيها الفرح على القاهرة بل مصر كلّها. أراد فاروق أنْ يكتسبَ ودَّ رعيَّته فبنى قرىً نموذجيَّة في العزب الملكيَّة، ومنح مئات الأفدنة للفلّاحين، وافتتح مدارس ومستشفيات، وعلى عكس أبيه كان يذهب للصَّلاة من كلِّ يوم جمعة. لم يكن فاروق وسيمًا وكريمًا فحسب، بل كانت عروسه جميلة لحدِّ الخيال، فلقد اصطفَّ ملايين البشر في الشَّوارع لينظروا لها، وقد كانت ترتدي فستانًا جرجارًا مطرَّزًا بالفضَّة وذيله يصل لخمسة أمتار.

من خلال نافذة العربة التي كانت تستقلّها رأى النَّاس إيشاربها الذي استخدمته الامبراطورة أوجيني وقدَّمته للأسرة الحاكمة في افتتاح قناة السّويس، وكانت ترتدي على رأسها تاجًا مرصَّعًا بالماس، وفي عنقها قلادة مرصَّعة بالماس الثَّمين.

عندما وصلتْ فريدة القصر ظلَّت في حجرة ملحقة طبقًا للتَّعاليم الدّينيَّة الإسلاميَّة، بينما كان الرِّجال في حجرة أخرى لتتمَّ مراسم الزَّواج الدِّينيَّة بعد أنْ أخذ والد فريدة مظروفًا فيه نصف المهر. بعد أن تمَّ توقيع قسيمة الزَّواج دخلتْ فريدة الغرفة، ورفعت الأعلام وسار العروسان في الممرِّ المصطفّ بغرف الاستقبال المكتظَّة بالمقاعد، ولمبات الحوائط الفرنسيَّة التي من القرن الثَّامن عشر والتي كان يسمّيها فاروق باحتقار "الصّندوق السَّاخن".

أخيرًا صعد العروسان لمخدعهما، بينما دخل الضّيوف للغرف الثَّلاثة المليئة بالهدايا والتي كانت تقدَّر بملايين الجنيهات، بالإضافة للسَّيَّارة المرسيدس التي أهداها هتلر للملك، واسطبل الخيول من المملكة العربيَّة.

كانت ليلة الزِّفاف مناسبة شارك فيها الجميع، أقيمت فيها الصّوانات لمدّة ثلاثة أيّام ليل نهار وقدّمت فيها كلّ صنوف الطَّعام واللحوم لمئات الآلاف من الفقراء، وانطلقتْ فيها الألعاب النَّاريَّة.

كسرًا للتَّقاليد الإسلاميَّة الصَّارمة ظهر فاروق وفريدة في شرفة القصر، وكذلك ارتدتْ فريدة إيشاربًا صغيرًا. في يوم الجمعة التَّالية ذهب فاروق للصَّلاة في المسجد، واستبدل سجّادة الصَّلاة الخاصَّة به بسجَّادة رجل شحَّاذ قائلًا: "كلّنا سواسية عند الله".

استغرقت البهجة ربوعَ مصر لنهاية العام تقريبًا، ناسية ما يدور من تهديدات الحرب في أوروبا، ولكن في نهاية سبتمبر توصَّل شامبرلين مع هتلر لاتفاقيّة هدنة، كما أنَّ موسيليني أصبح يهدِّد حدود مصر بعد استيلائه على ليبيا.

قبل شهر تقريبًا من موعد زفاف جريج وسيرين ذهبت الأسرتان للنَّصراني على ظهر قسمت بعد أنْ عاد جريج من فرنسا حيث كان في مسابقة للبولو، وبعد أنْ عاد عليٌّ من اسكندرية حيث كان في رحلة مع ناصر والسَّادات مما جعلني أسأله: "ماذا تفعل مع أصدقائكَ طوال هذه المدَّة؟"، فشرح عليٌّ لي أنَّهم يكوّنون جماعات من ضبَّاط شبَّان لتحسين الأوضاع في مصر ومحاربة الفساد وخصوصًا في شلّة القصر، فقلتُ له: "هؤلاء ضبَّاط، وماذا عنك؟"، فقال: "أنا حلقة الوصل بينهم وبين المدنيين".

قبل وصولنا للنَّصراني ونحن على ظهر قسمت مرَّ بنا فرح فلَّاحي على الشَّطِّ حيث يغنُّون أغاني الأفراح الرِّيفيَّة وكانت العروس على الهودج، وكان منظر البيوت الطِّينية والمآذن المرتفعة يشكِّل لوحة جميلة مع غروب الشَّمس، فسألت: "أين العريس"، فردَّ سرِّي باشا: "في البيت ينتظر العروسة"، فتنهدَّت سيرين: "حلو جدًّا، نفسي أتزوَّج بمثل هذه الطَّريقة"، وأثناء الحديث حلَّق طائر مالك الحزين من أعلى نخلة مستقرًّا على دفَّة المركب مما جعلنا ننتبّه له حتَّى نهاية الرِّحلة.

أثناء تناولنا العشاء كانتْ سيرين طوال الوقت صامتة شاردة لدرجة أنَّ أمّها سألتها: "ما بكِ، تبدين كأنّك دمية في نافذة محل؟"، فردّت عليها: تعبانة قليلًا، حاسّة بأنّي مختنقة".

تساءلتُ بيني وبين نفسي هل الفرح الفلَّاحي أثَّر فيها؛ فشعرتْ بأنَّها ذاهبة لعشِّ الزَّوجيَّة مع جريج، على أيّ حال أبي في أوائل السِّتينيَّات، وشيفون بلغت ٥٨ سنة، وكان سرِّي وزوجته في نفس العمر وإنْ كان يبدو أكبر سنًّا.

فجأة بعد العشاء صاحتْ سيرين: "بابا، أريد أنْ أخرج أتمشَّى"، فردَّ سرِّي: "في هذه السَّاعة المتأخّرة من الليل، السَّاعة الآن العاشرة، وأنا لا أستطيع أنْ أخرج معك، سأنام"، فنظرتْ لي سيرين نظرة رجاء: "خلّينا نتجوَّل بالسَّيَّارة قليلًا، أنا مخنوقة، سأنتظركَ في السَّيَّارة".

ما إنْ وصلت السَّيَّارة المكشوفة التي يتركونها دائمًا في النَّصراني، رأيتُ سيرين تقفل الشَّنطة فسألتها: "ما هذا؟"، فقالتْ وهي تقفز للسَّيَّارة: "سأقول لكَ في وقت لاحق".

ما إن اتجهت بالسَّيَّارة للطَّريق الموازي للنِّيل في اتجاه أم دينار المؤدِّي للطَّريق الرَّئيسيّ للاسكندرية حتَّى وضعتْ يدها فوق يدي وقالت: "الاتجاه الآخر"، فسألتها: "سقَّارة؟".

فقالت: "لسقَّارة".

وكانتْ كلمة سقَّارة في الليلة المقمرة وخصوصًا بالنِّسبة للعائلات المحترمة معادل للدَّعوة للرَّغبة، فسألتها: "ماذا في شنطة السَّيَّارة؟"، فقالتْ وهي تتقوقع في كرسي السَّيَّارة بسعادة: "زجاجة شامبانيا، أخذتها من الثَّلَّاجة وبعض الثَّلج".

فابتسمت، رغم أنَّه ليس في نيَّتي أيّ شيء تجاه الفتاة التي سيتزوَّجها أخي، وقلتُ لها: "مهاراتك أكبر من سنّك، لذلك تستحقّين كاس شامبانيا". فضحكتْ: "بأسرع ما يمكن".

في الرِّستْ هاوس في سقَّارة حيثُ يأتي السَّائحون، حيثُ يظهر من وراء الخضرة الممتدَّة هرم سقَّارة، وحيثُ كان القمر بدرًا توقَّفنا، وحينها قالت سيرين: "في صحّة الماضي"، فقلتُ لها: "هل نسيتِ الكاسات".

ـــ نعم، نسيتها ولكن أكيد هناك بعض الأكواب في الدَّاخل، وبالفعل كان هناك.

ثمَّ قالتْ وهي مازالتْ تضحك: "هم في حاجة للغسيل، وأنا لا أثق في المياه هنا، فلنغسلهم بالشَّامبانيا"، وراحت بعد أنْ فتحت زجاجة الشَّامبانيا، تصبّ بعض الشَّامبانيا في الأكواب وتغسلها جيّدًا، ولكي تجفّفها فاجأتني بأنَّها رفعت الجونلَّة وشدَّت قميصها التَّحتاني ومزَّقتْ منه قطعة لتجفِّفَ بها الأكواب.

صببنا الكاسات وبدأنا نحتسي الشَّامبانيا، لم تكن الرَّغبة هي التي تحرّكني في تلك اللحظة، ولكنَّ طريقتها في تمزيق القميص وتجفيف الكاسات به أي أنّني أشرب برائحة قميصها.

جلسنا على درجات خشبيَّة في الرّست هاوس ورحنا نتأمَّل الظِّلال التي أسقطها ضوء القمر، وبادرت: "جريج إنسانٌ محبوب وكلّ واحد يحبّه، ولكن مسألة الزَّواج، فكثيرًا ما أسأل نفسي هلْ هو الرَّجل المناسب؟"، فقلتُ لها: "أصبح الوقت متأخّرًا بأن تغيّري رأيكِ".

ـ الوقت ليس متأخّرًا مادمت أنت غير متزوِّج، يجب أنْ تفهم أنَّكَ أنتَ السَّبب.

شعرتُ بالرَّغبة من كلامها ولكن حذَّرت نفسي، وفجأة شبَّكت أصابعها في أصابعي، ووضعت الكاس على الأرض، ووقفت وجذبتني لها وهي تهمس: "أنا وأنت نعرف ما في دماغ كلّ منَّا، إنَّنا نفكِّر في اللحظة، في أن ننام معًا"، فدفعتها بعيدًا وقلت: "لا يمكن أن تفكّري في مثل هذا"، فقالت: "ولكنَّها الحقيقة، أليست كذلك؟"، فقلتُ لها بصوت أجشّ: "ولكنّه أخي".

ـ أنا لن أطلب منكَ أنْ تسرقني من أخيكَ، أنا لا أقصد الزَّواج، ولكن هناك شيء آخر، أعطني بوسة وأقول لك ما هو.

فقلتُ مغمغمًا: "هذا جنون، وسيجرّنا للمشاكل"، ولكنِّي قبَّلتها على خدِّها، فقالتْ: "لا تكن سخيفًا، لا أريد بوسة الأخوة ولكن، ما رأيك لو أنِّي قبَّلتكَ قبلة العاشقين قبل ممارسة الجنس؟!"، وراحتْ تشدّني من الجاكت وتقبّلني بشراهة، وبعد أن انتهتْ قالتْ: "هناك شيء آخر أيضًا، هديّة كلّ منَّا للآخر، هذه المرَّة فقط وللأبد".

رحتُ للسَّيَّارة وجئتُ بدوَّاسة ودخلنا إحدى غرف الرّست، وقالتْ بصوت هامس تسكره الرَّغبة: "أنا منتظرة هذه اللحظة من مدَّة، أنتَ الليلة ملكي أنا"، وراحتْ تقبّلني بلطف، وبدأت تخلع ثوبها، وتخلع باقي قميصها، كما خلعتُ أنا ملابسي، وأصبحنا كلانا عرايا تمامًا، وقالتْ لي: "لا تفعلْ شيئًا قبل أنْ أقول لك"، وبالفعل كان ما أرادتْ حتَّى امتزجنا في بعضنا البعض.

وألقتْ برأسها على كتفي ويدي تربّت على جسدها وهي تهمس بصوت لا أكاد أسمعه: "الآن اكتملت الحلقة، كان لابدَّ هذا يحدث لتكتمل السّلسلة"، وبدأت تلعب بيدها حتَّى رغبت مرَّة ثانية، كانت المرّة الثَّانية أكثر هدوءًا واسترخاءً، ثمَّ استلقينا على الأرض سعداء لدرجة الصَّمْت.

أخذتُ أفكِّر فيما حدث وشعور يمزّقني بأنِّي خنتُ أخي، ومتى كانت البداية، وكيف تحوّلت براءة الصَّداقة إلى حبٍّ آثم، لكنَّها هي التي بدأت، فهناك فرق شاسع بين الاشتياق والفعل، لقد اندفعت بالطِّيبة والعاطفة. راحتْ سيرين تستند على كوع واحد وقالت فجأة: "هل تفتقد بارمي؟".

ــ أنتِ تعرفينَ الإجابة، فما كان بيني وبين بارمي متعة، وما بيني وبينك حبّ، والمتعة انفعال، أمَّا الحبّ انفعال وألم.

ــ لا تقلْ هذا، حتَّى لو افترضنا أنَّ هناك ألمًا ما، أليس الحبّ يستحقّه؟

ــ ولكنْ ما المستقبل لهذا؟

ــ كفى، لا تتكلَّم، فقط قبِّلني، فالقُبَل كانت للحظات الصَّمت.

ارتديتُ ملابسي وساعدتها في ارتداء ملابسها، ومن فرط الإجهاد أخذتُ أتعثَّر في درجات الرّست، وبدأتُ أقود السَّيَّارة وهي جالسة جنبي. وبدأتُ أقول: "لا يمكن أن يمرّ الأمر هكذا"، فقبَّلتني بلطف وطوَّقتني بذراعها. فاستأنفتُ: "لابدَّ أن نهربَ ونعيش حياتنا"، فقالتْ بابتسامة حزينة: "ووظيفتك؟"، فقلتُ: "للجحيم وظيفتي".

ـ وأهلنا؟

ـ أليسَ لنا حقٌّ في حياتنا؟

ـ أعطينا لها حقَّها في هذه الليلة، ولكن فكّر إذا هربنا ماذا ستكون النَّتيجة؟ ماذا عن أبي ومركزه؟ وماذا عن أخيكَ وأبيكَ الذي يحبّك؟ وأنتَ على أيّ حال متزوِّج ثمَّ إنَّنا في القاهرة.

وأردفتْ: "دع الأيَّامَ تفعل ما تشاءُ، ودعنا نحبّ بعضنا البعض كما اعتدنا".

ـ ستتزوَّجينَ، وتقضينَ شهور العسل وتنسينني.

ـ استحالة، سأظلّ أحبُّكَ، وسأرسل لكَ رسائل لا يعرفُ شفرتها إلَّا نحن.

وصلنا العزبة قبل منتصفِ الليل، وتسلَّلنا في هدوء كلٌّ إلى مكانه، وهي تتنهَّد: "أقلّ من ساعتين ولكن بالعمر كلّه".

٢١

حينما اندلعت الحرب في سبتمبر ١٩٣٩، بدأ العالم الذي نعرفه في القاهرة وكأنَّه يتلاشى ما بين يوم وليلة، ومرَّت الشّهور التي قضاها جريج وسيرين في أمريكا منذ نوفمبر، وكأنَّها حدثتْ في زمن آخر. وعندما عادا كانت سيرين في انتظار مولود، وبالفعل ولد في شهر يونيه ولد وسمّوه جونوثان، ولم أستطعْ أنْ أتوقَّف عن التَّساؤل عن إذا كان ابني أم لا.

عبَّر جريج عن سعادته بأنَّهُ جاء مبكّرًا لكي يتمكَّن من الالتحاق بالحرب، ولاسيَّما بعد أن استقرَّت سيرين في منزلها وهو عبارة عن فيلا على النّيل في الزَّمالك أمام الكاتدرائيَّة البريطانيَّة، كانت لأميرة تركيَّة اسمها زلفى، اشتراها سرِّي باشا وأهداها لسيرين بمناسبة الزَّواج.

رغم أنَّ الحرب في الشّهور الأولى لم تكد تلمس أوروبا إلَّا أنَّ القاهرة ازدهرتْ أكثر من أيّ فترة مضتْ. فبالنّسبة لآلاف الجنود البريطانيين الذين عيّنوا في القاهرة، كانت القاهرة جنّة النَّعيم، فقد استبدلوا بنار الحرب نار الشَّمس في سلام.

هناك عشرات السّينمات الصَّيفيَّة بأسعار رخيصة، والمطاعم تقدّم كلَّ أصناف الطَّعام. البعض منهم لم يصدِّق أنَّ هناك شفرات حلاقة متوفِّرة فيشتري المئات منها، والبعض يخزِّن السَّجائر، الفرق بين لندن والقاهرة أنَّه لم يلحظ أحد ضوضاء المدينة والشَّحَّاذين والعميان في الشَّوارع والكلاب الضَّالَّة وهي تلهث بألسنتها المتدلِّيَّة في الشَّمس أو وهي تنبح بصوت مخيف بالليل باحثة عن المخلَّفات، والنَّاس الذين يجرفون القاذورات في أرجلهم، حتَّى يجيء السَّقَّا ليرقد التّراب برشّ الماء.

كان الجنود يسكنون في عمارات تطلّ على نادي الجزيرة ليمارسوا فيه شتّى أنواع الرِّياضة. أو تطلّ على شبرد أو نادي السِّباق في الجزيرة، أو ملهى بديعة مصابني، حيثُ الرَّاقصات، وكباريه سفنكس الخاصّ بسامية. كان الجنيه الاسترليني يساوي ٩٧ قرشًا مصريًّا، فكان الجندي يستطيع شراء وجبة كاملة وبيرة بشلن.

كانت هناك حمَّامات سباحة مجَّانيَّة في ثكنات الجنود في هليوبوليس، وسينيمات مجَّانيَّة كلّ ليلة، وفوق كلّ ذلك أسراب من الفتيات الجميلات من كلِّ الجنسيَّات، مصريَّات وفرنسيَّات وإيطاليَّات وإغريقيَّات وسوريَّات، وللذين لا يريدون علاقات خاصَّة كانت هناك بيوت الدَّعارة في شارع كلوت بك وبجوار حديقة الأزبكيَّة، كانت الممارسة من كثرة الزَّبائن تتمّ أحيانًا في الحواري وتحت الأقبية في الشَّوارع الرَّخيصة.

رغم أنَّ مصر كانت دولة مستقلَّة إلَّا أنَّها قطعت العلاقات الدّبلوماسيَّة مع كلٍّ من ألمانيا وإيطاليا نتيجة للاتّفاقيَّة التي وقَّعتها مع بريطانيا بشأن الاستقلال، وبالتَّالي أصبحت مصر معسكرًا بريطانيا، حيث خصَّصت بريطانيا مركزين رئيسيين للقيادة في مصر أحدهما، كتيبة بريطانيَّة، في سميراميس، والآخر قيادة عامَّة للشَّرق الأوسط يحتلّ مجموعة بنايات في جاردن سيتي محاط بالسّلك الشَّائك، كانت الكتيبة البريطانيَّة جزءًا من القوَّات المعنيَّة بحراسة قناة السّويس، أمَّا القيادة العامَّة بقيادة الجنرال وافيل تابعة للجيش المواجه للإيطاليين في ليبيا.

كان المصريُّون منقسمين، فالجيش كان يغلي بالكراهية، وكذلك الموظفون، أمَّا التُّجَّار فكانتْ تجارتهم مزدهرة، والبريطانيُّونَ كانوا يستخدمون آلاف العُمَّال المدنيين.

كان اتخاذ القرار صعبًا إنْ كنتُ سألتحق بالجيش أم لا، فجريج قرَّرَ الالتحاقَ بجيش السَّواري الفرقة ٨ وأخبر سيرين بذلك. وكذلك أخبرني عندما كنَّا في نادي الجزيرة، وكنَّا مدعوّينَ لتناول عشاء عائليّ في فيلا سيرين وجريج، فذهبتُ لأحضر تيدي من شبرد ونلحق بهم في الفيلا.

عندما وصلتُ الفيلا أخذتني سيرين في جولة فيها كانتْ فيلا مبهرة بالفعل، كانت غرفة النّوم من الطّراز الإيطالي ومزوّدة بدواليب داخليَّة مزوّدة بمرايا ترى ملابسكَ من كلِّ زاوية من أيّ مكان. عندما وصلنا الحمَّام برخامه الورديّ وضعت سيرين يدها في يدي: "أنا كنتُ أتعس إنسانة في أمريكا من غيرك، افتقدتك جدًّا".

ــ أنا أيضًا، ولكن الآن على الأقلِّ يمكنني أنْ أراكِ، نظراتكِ تقول إنَّكِ سعيدة.

ــ النَّظرات لا تقول الحقيقة دائمًا.

ــ ما بكِ؟

ــ لا شيء، شأن أيّ زوجين حديثين من هذا وذاك، الطّفل هو الذي يواسيني.

لم أدرِ ماذا أقول ولكنَّها فجأة قبضتْ على يدي ووضعتْ ذراعها حول عنقي وشدَّتني إليها لولا جرس الباب الذي رنّ، دفعتني بعيدًا وقالت: "سأكلّمكَ في مكتبكَ، ممكن نتقابل في نادي الجزيرة أثناء مباراة جريج وأحكي لكَ على كلِّ شيء؟".

كنَّا تسعة أفراد على المائدة، الوالدن من كلِّ أسرة والزَّوجان وتيدي وستيفنسون وأنا، والذي حيَّرني هو توتُّر سيرين، بينما كان جريج مبتسمًا ومرحًا فخمّنتُ أنَّ هناك مشكلة زوجيَّة بينهما.

في اليوم التَّالي اتَّصلتْ سيرين بالمكتب واتَّفقنا على اللقاء في منزل أمِّها بعد مباراة جريج، بعد المباراة وصلتْ سيرين بينما ظلَّ جريج في النَّادي لأسبابٍ فنّيَّة تتعلَّق بالأحصنة والمباراة، قابلتُ سيرين وأخذنا نتمشَّى في الحديقة على مرأى من الجميع. بادرتها بقولي أثناء سيرنا في اتجاه النِّيل: "أكيد كانت مشكلة بسيطة وانتهت".

ــ جريج تغيَّر بعد الزَّواج، أصبحَ رجلًا عطوفًا وودودًا.

ــ شيءٌ عظيمٌ.

ــ ولكن أريد أكثر من ذلك.

وبدأتْ تنظر لي مليًّا بعيونها الخضراء الواسعة دون أنْ ترمش، برغم أنَّ شفاهها كانت ترتعش قليلًا مستأنفة: "نحن لا نفعل شيئًا في السّرير".

ــ مستحيل، جريج! كنَّا نسمِّيه بالفحل، لا يستطيع أن يفعلَ شيئًا!!

ــ لا، لم أقصدْ هذا، كان في أمريكا شرهًا معي، وعندما جئنا هنا في بداية الأمر كان كذلك، ولكن بعد أنْ أنجبت تغيَّر، لم يعد يفعل معي أيَّ شيءٍ رغم محاولاتي العديدة لإغرائه من قبل وتدليكه، هلْ تعتقد أنِّي لبؤة؟ ماذا أفعل وأنتَ الوحيد الذي أستطيع أنْ أتكلَّم معه في هذا الموضوع، أرجو ألَّا تخذلني، لن أستطيع أن أتحمَّل.

ــ ولا أنا أستطيع أنْ أتحمَّل، إذا كنتِ أنتِ وجريج لا تمارسان شيئًا، فهذا يجعل ضميري مرتاحًا لما فعلناه في سقَّارة.

ــ وكذلك أنا، أبدًا لم أشعر بتأنيب الضَّمير لما فعلناه، إنَّه شيء طبيعي، ولكن لو أنَّنا شعرنا بالحاجة له في المستقبل؟

فقلتُ لها بلطف: "حدِّثيني عن جريج، كيف أصبحَ غير قادرٍ على الممارسة؟"، وكنَّا قد ذهبنا للفراندة وجلسنا أيضًا على مرأى لأكثر من

عشرين خادمًا يستطيعون أنْ يشاهدونا، وبعد أنْ صبَّتْ لي ويسكي وهي أخذتْ فودكا قالت: "لا، لم أقلْ غير قادر، بلْ هو معي أنا فقط، إنَّه يذهب بانتظام لصديقتك سامية في سفنكس".

ــ ولكن لماذا، أنتِ جميلة وتقولينَ إنَّه يحبّك.

فأخبرتني سيرين بأنَّها كانتْ مرتبكة ومكتئبة حتَّى إنَّها ذهبت أخيرًا للدّكتور النَّفساني آرك الأمريكي في شارع إبراهيم باشا، وبعد أنْ أخبرته بقصَّة جريج وأنَّ صديقًا أمريكيًّا أقنعه بأنْ يرى زوجته وهي تضع مولودها، أخبرها الدّكتور أنَّها حالة نفسيَّة لمنظر الدَّم وكيف رأى الفرج يتَّسع لإنزال المولود، ومنظر الحبل السُّرِّي والمشيمة، كلّها أشياء جعلته يشمئزّ من الممارسة مع زوجته التي كان يراها جميلة وهي عادة قد تكون موجودة في أمريكا ولكنَّها غير معتادة هنا، وبالتَّالي أصبحت كلَّما يحاول الممارسة، رأى عائقًا أمامه حيثُ تتراءى له من الذَّاكرة.

وأخبرتني سيرين أنَّها أخبرت الدّكتور على تطوّع جريج للجيش، فقالَ لها إنَّها حالة مفيدة ليبتعد عنها وتبتعد عنه الذِّكريات المتعلِّقة بهذا الأمر، فيراها كما كان يراها في البداية جميلة وجذَّابة.

مازلتُ مصدومًا مما أسمع حتَّى أعطتني سيرين كأسًا من الويسكي عندما سمعت صوت جريج داخلًا المنزل وأخذ سيرين في ذراعه، وشعرتُ أنَّ كلَّ ما سمعته كان حلمًا، وذهبنا لمنزلنا وهو ينادي أمَّه ويخبرها أنَّه سيتمّ الكشف الطِّبيّ عليه ليلتحقَ بفرقة السَّواري.

بعد أسبوع ذهب جريج للكشف الطِّبيّ، وكما أخبرني فيما بعد، وقد احتسى ثلاث كاسات من الويسكي في مرَّة واحدة، أنَّهُ خضع لعدَّة فحوصات خاصَّة بضغط الدَّم لما تشكّك الطَّبيب في تدفُّق الدَّم، وأبلغه

بعد الكشف الدَّقيق وبعد رسم القلب أنَّهُ يعاني من ارتجاف الأذين الذي يسبِّب له الدَّوران المفاجئ عند بذل أيّ مجهود، وأنَّ هذا المرض يمكن السَّيطرة عليه في الحال عن طريق العلاج، ولكن للأسف هذا المرض يمنعه من التَّطوُّع في الجيش.

أثَّرَ هذا الوضع على نفسيّة جريج جدًّا، وهمّه الوحيد أنْ ينسى أحزانه، فما حدث أكبر مما يتخيَّل، فقال لي: "هيَّا لنادي الجزيرة لكي نشرب"، لم نبخلْ على أنفسنا بالشّراب حتّى لمحت الدّموع تسيل على خدّيه، فقلتُ بصوت منكسر: "أنا عارف أنّك هيّأت نفسك للجيش، ولكن ليس هذا نهاية المطاف".

ــ ليس هذا، هذا هو القشَّة التي قصمتْ ظهرَ البعير، إنَّها سيرين.

فشعرتُ برعدة خوفٍ، ولكن تمالكتُ نفسي وقلتُ: "سيرين؟"، فأومأ بالإيجاب: "نفسي أتكلَّم مع أيّ واحد، أنتَ عارف أنّي أحب سيرين، ولكن لا أستطيع فعلَ شيءٍ معها"، فأحسستُ بالحرج فالتزمتُ الصَّمْتَ فاستمرَّ: "أنا أعلمُ أنِّي أنا وسيرين لم نكنْ في حالة حبٍّ متوهّجة ولكنَّها فتاة عظيمة وزوجة ممتازة، ولكن الآن، ماذا أقول لك؟".

وقبل أنْ أنطق بكلمة قال: "لا، لستُ ضعيفًا جنسيًّا، فأنا أمارس مع أيّ بنت ألتقطها في سفنكس بكلِّ كفاءة، ولكن مشكلتي مع سيرين نفسها"، تظاهرتُ بأنِّي لا أعرفُ شيئًا فقلتُ له بحرص: " لماذا لا تذهب لطبيبٍ نفسانيّ؟".

ــ ماذا سيفعل لي، يساعدني على ماذا وأنا في منتهى الحيويَّة في سفنكس، ليست المشكلة فيَّ ولكن مع سيرين، لقد استمتعتُ في البداية، ولكن الآن لا سبيلَ بيننا.

٢٢

أوَّل مَن اقترح هذا تيدي حينما قلتُ لو أنَّ التَّجنيد إجباري للبريطانيين فلنْ أتردَّد في قبول أيِّ عمل يطلب منِّي، رغم رفضي للأعمال الدُّونيَّة التي يقوم بها البعض، فقال لي: "يمكنكَ أنْ تلتحقَ في العمل معي"، فقلتُ مندهشًا: "أنتَ؟ هلْ تعمل في الجيش؟"، فأومأ قائلًا: "نعم، منذُ شهر"، فسألتُ: "وماذا تعمل؟".

ـ جاسوس، طالما سألتني.

فقلتُ له متعجِّبًا: "جاسوس، لا أصدِّق"، فراح يشرح لي الموضوع بالضَّبط وهو أنَّه يعمل تحت مسمَّى الأمن وهو معرفة ما يدور في الخفاء، وقال لي: "لمعرفتكَ العربيَّة جيِّدًا والفرنسيَّة، وبخبرتك القانونيَّة سيكون الأمر سهلًا بالنِّسبة لك".

تطوَّعت بعد عدَّة أيَّام، وبعد ذلك بستَّة أسابيع انتهيتُ من التَّدريب وأصبحتُ رائدًا والتحقتُ بالمخابرات، كان مكتبي في جاردن سيتي، وبعد التَّقرير الشَّخصي كوّنتُ شبكة من عملاء محليين، والذي أدهشني في ذلك الأمر تحقيق الشَّخصيَّة الذي حملته، عليه اسمي ورتبتي ومعنون بكلمة "أمن"، وعليه خاتم من المخابرات.

كان لحامل هذا الكارت السُّلْطة في أنْ يكونَ في أيّ مكان بأيِّ زيّ في أيّ وقت تنفيذًا لمهمّته، وعلى الجميع أنْ يقدِّموا له المساعدة التي في نطاقهم، وكانتْ لي السُّلْطة أنْ أتسبَّب في إنزل العِقَاب على أيِّ واحد لا يطيع أوامري.

بدأ العقيد يشرح لي بعض التَّعليمات: "تذكّر أنَّكَ هنا بتعزيز من الحكومة المصريَّة، فأنتَ تعمل في بلد أجنبيّ له شرطته الخاصَّة، وبرغم أنَّك تعمل في عملٍ لهُ سرِّيَّة خاصَّة إلَّا أنَّك لا تمتلك سلطة القبض طبقًا لاتفاقيَّة ١٩٣٦ التي تنصّ على أنَّه لا يتمّ القبض على أيّ كائن في الأرض المصريَّة إلَّا بواسطة الشُّرطة المصريَّة، فلو أنَّ هناك أيّ مشكلة اتَّصل بي أو بأيّ قسم بوليس يمدّك بضابط له سلطة القبض".

بدأ جريج يتعافى من أزمته الطِّبِّيَّة ويرجع الفضل في ذلك لسيرين التي أخرجته من الحالة وتقليل أهميَّة التحاقه بالجيش، وفي إحدى المناسبات العائليَّة حيث كنَّا نتناول الغداء في فيلا جريج وسيرين، قالتْ سيرين: "جريج وستيفنسون سيبدآن شيئًا ما معًا"، فقلت: "ستيفنسون؟".

فقالتْ ضاحكة: "لم لا، أنتَ غريبٌ، كلَّما ذكرت اسم ستيفنسون تغضب"، فأجبتها بغضبٍ: "أنا لستُ غاضبًا، ولكنْ أنتِ تتحدَّثينَ عن ستيفنسون وكأنَّه من الأسرة، ماذا سيفعل ستيفنسون لجريج؟".

ـ سيكونان شركة معًا.

ـ شركة! وهل جريج رجل شركات، وأي شركة تلك؟

ـ شركة خدمات المعلومات الأنجلو أمريكيَّة.

بعد أن انتهينا من الغداء جلسنا في حجرة الجلوس، ورأيتُ هناك جانبًا من جريج لم أره من قبل، فحينها أتت المربّية ناني بجونوثان لتقدِّمه لنا، الذي كان عمره بضعة شهور فقط، أخذه جريج وراح يداعبه ويدغدغه فيقهقه، وقال جريج: "أليسَ شبهي؟".

كان حبُّ جريج للطّفل مؤثِّرًا، لقد تصوَّرتُ أنَّ جريج لا يرى طفله إلا عند النّوم، لم أتوقَّعْ هذه العاطفة منه، كان التَّأثير بالنِّسبة لي مضاعفًا لأنَّني كنتُ أعرف ما بين جريج وسيرين من عدم التقاءٍ جنسيّ.

سألتُ نفسي بعد أن احتسينا القهوة ماذا سأفعل بالنِّسبة لسيرين فطبيعة عملي تستلزم بقائي في القاهرة معظم وقتي، وفي الحقيقة، إنَّ العميد مونسون رئيس مكتبنا قال لي: "أنتَ لك وظيفتان، الأولى أنْ تظلَّ على اتِّصال بالملك فاروق، فنحنُ نعرفُ أنَّ بينكما مقابلات اجتماعيَّة، والثَّانية أكثر صعوبة؛ لأنَّنا نعاني من الجواسيس الألمان، وعليكَ أنْ تتخلَّص منهم".

ـ لكنِّي لا أعرف كيف أبدأ يا سيّدي.

فأجابني بحدَّة: "أنتَ قمتَ بخدمة عظيمة لسيّدة في القاهرة، فإذا كنتَ تريد أنْ تلتقطَ بعض المعلومات فما عليك إلَّا أنْ تقضي ليلة في سفنكس، فسامية تعرف كلَّ شيءٍ".

بعد أن انتهينا من القهوة جاءتْ سيرين بجونوثان لتريني إيَّاه وهي تقول بطريقة طفوليَّة: "هذا هو عمُّك مارك، قلْ لهُ أهلًا وسهلًا"، وبسرعة همستْ لي: "أريدكَ في أسرع وقت، اليوم"، فقلتُ لها بهمس أسرع: "السَّاعة السَّابعة"، ورحتُ أداعب جونوثان وأمرِّر يدي فوق رأسه، فأومأت وانصرفت.

كان من المفروض ألَّا أتركَ العنان لعواطفي، كانَ يجب أنْ أقولَ لا. لكنِّي كنتُ أريد أيضًا أنْ أراها، وأحسستُ أنَّ سيرين في حاجة لساعة أو اثنتين لتبتعد عن حياتها الزَّائفة مع جريج.

وصلتُ الفيلا قبل الميعاد بخمس دقائق، فوجدتُ سيرين في انتظاري، رحنا نتمشَّى معًا وأثناء ذلك قلتُ: "لقدْ مضى زمنٌ طويلٌ منذ أنْ تلاقينا في سقَّارة وتعاهدنا ألَّا نمارس الجنس إلَّا تلك المرَّة"، فردَّت وهي تضعُ ذراعَها في ذراعي: "توقَّعتُ أنا ساعتها أنَّ حياتي مع جريج ستكون طبيعيَّة، ولكنْ لم تكنْ كذلك، ورغم ذلك أدَّيتُ واجبي تجاهه كزوجة مصريَّة، ورغم أنَّ جريج لم يلمسني لعدَّة شهور".

ثمَّ ضحكت ضحكة قصيرة وأضافت: "أراهن لو أنِّي لمستكَ ستتأثَّر"، وكنَّا قد وصلنا قرب شجرة الكاتدرائيَّة فوقفنا متقاربين، ساقاي لمستا ساقيها وراحت تحسّ بالانتفاخ بينهما فتحرَّكت بعيدًا عنها فتوتَّرت وصاحت بعنف: "آه"، وكانت تعبيرات وجهها نفس التَّعبيرات التي ظهرتْ في سقَّارة، فاقتربتْ منِّي وهمست بارتعاش: "يمكننا الآن، وبسرعة".

ــ أين، هذا جنون، ممكن لأيّ شخص أنْ يرانا.

ــ في الشَّجرة، لقد تخبَّأنا فيها ذات مرَّة، أرجوك يا مارك، لو كنتَ تحبّني، لن نأخذ أكثر من دقيقة"، فرددتُ ونحن نقترب من المكان الذي اختبأنا فيه قبل ذلك: "وملابسكِ؟"، فهمستْ: "ونحنُ وقوف، لحظات أحسّ بكَ وأنت جوَّايَ".

ــ بسرعة، وبلا قلق، فلن يلحظنا أحد.

أردتُ أنْ أخفِّفَ عنها التَّوتُّر لكي لا تفسد كلَّ شيءٍ، أمسكتْ بالجونلَّة ورفعتها لوسطها وراحت تمزِّق ملابسها الدَّاخليَّة فلم تستطع، ولكن في النِّهاية استطاعت، ووقفتْ ونصفها الأسفل عارٍ، ورحت أتحسّس بنطالي، وذُبنا في بعضنا البعض، وبمجرَّد أن انتهينا سمعتُ صوتَ شيفون

يناديني: "آه، أنت هنا، هيا نتناول كأسًا"، وكانتْ على بُعْدِ خطوات من الشَّجرة، فارتعبتُ وهي تضيف: "لكَمْ أكره هذه الشَّجرة، إنَّها مخيفة وتحدث فيها أشياء مريبة، مثل البنات الخادمات يفعلن أشياء قليلة أدب وراء فروعها دونَ أنْ يراهُنَّ أحد حتَّى في عزّ النَّهار، ألا تعتقد ذلك؟".

ولما كانت النِّساء دائمًا أكثر تماسكًا من الرِّجال قالتْ سيرين في صوت متَّزِن: "نحنُ في انتظار جريج عند ماما، سنذهب ونراك هناك"، لقد مرَّت اللحظة الحرجة، وقالت سيرين: "يجب أنْ أراك مرَّة ثانية حالًا، في السِّرِّ".

ــ لا، لا يجب علينا أن نتقابلَ مرَّة ثانية.

وبدأتُ أشعرُ بتأنيب الضَّمير، فاستأنفتُ: "على أيّ حال جريج أخي، ومهما حدث بينكما ما كان لنا أن نفعل ذلك".

ــ أعلم أنَّه لا يجب أن نفعل ذلك، ولكنَّ مصرَ الآن تخلَّصت من نظام الخصيان والحريم، وأعطتْ بعضَ الحقوق للمرأة، فمن حقِّي أنْ يكونَ لي علاقات خاصَّة مع مَنْ أحبّ طالما لا أدنِّس اسمَ الأسرة، وعمومًا جريج يتصرَّف أسوأ منِّي فهو يأخذ أيّ فتاة يريد من أجل النَّزوة، ولكن أنا آخذ رجلًا واحدًا ومن أجل الحبّ.

ــ أخوه.

فقالتْ بحسم: "نعم، أخوه".

بدأتْ علاقتنا في الأسابيع التَّالية لا تعتدّ بالحسابات، نتقابل دائمًا حسب الظُّروف، وكان جريج من ناحية أخرى يقابلني نادرًا لانشغالي وانشغاله، ولكنَّ العلاقة بيننا عاديَّة جدًّا، ولم يبدُ عليه أيّ شكّ من جهتي، ولعلَّ سبب عدم تقابلنا كثيرًا هو أنَّ القاهرة أصبحتْ مكتظَّة بالعساكر،

وصار من الصَّعب اللقاء في شبرد أو الجزيرة، فالجنود أصبحوا في كلِّ مكان، لم تعد ليالي سقَّارة ممكنة، لقد أصبحت المدينة بلا نظام، لقد سقط سبعة جنود من هرم خوفو قتلى في الشُّهور الأولى من الحرب.

عرفتُ كلَّ شيءٍ بالتَّفصيل عن شركة خدمات المعلومات في شبرد، حيثُ طلبَ منِّي ستيفنسون أنْ أقابله هو وجريج هناك، وكانتْ معنويَّات جريج مرتفعة، حيثُ لعب بولو مرَّتين وطلب منِّي ألَّا أخبر سيرين عن هذا؛ حتَّى لا تقول للدّكتور الذي حدَّد مرَّة واحدة لي في الأسبوع.

قال ستيفنسون: "في الحقيقة جريج هو الرَّجل الذي نحتاجه"، ربَّما يكون على حقٍّ، فاسم جريج هولت معروف نظرًا لعلاقات أبي، والحقيقة أنَّ شركة الخدمات تعمل لصالح أمريكا، ولا يتورَّع ستيفنسون في استخدام أيِّ صديق لتحقيق أهداف أمريكا، رغم أنَّ جريج ليس له علاقة مع الصَّحافة، إلَّا أنَّ اسم أبي كان معروفًا في القاهرة، ولذلك كان أوَّل شيء فعله جريج هو إقامة حفل صحفي في فيلا زلفي.

كان ستيفونسن يأتي بأخبار سرِّيَّة للجرائد تتجاوز الرّقابة، ومن هذه الأخبار فقرة صغيرة تقول:

"لقدْ تناولَ الجنرال عزيز المصريّ المعروف بتأييده لإيطاليا وألمانيا عشاءً خاصًّا مع جلالة الملك فاروق في قصر عابدين".

وكان هذا الخبر مؤثِّرًا جدًّا، ففي القاهرة يقرءون ما بين السُّطور، وهذا يدلّ على أنَّ الملك يؤيِّد المحور، ويعني أنَّ الملك يفضِّل الألمان على البريطانيين.

لما كانت مهمّة ستيفنسون هو زعزعة الثِّقة في الملك، تباهى بهذا الخبر وقال لي: "أنا وجريج نقوم بعمل مهمّ، ولكن يجب أنْ تفهم أولويَّاتنا"، فسألته: وما هي؟"، فقال: "سأخبركَ بها على الغداء الذي أدعوكَ له".

ذهبنا لمطعم صوفر في شارع الألفي الذي يقدِّم الطَّعام اللبنانيّ، ولم يتكلَّم ستيفنسون إلَّا بعد أن انتهينا من شرب القهوة التُّركي، فشرح قائلًا: "أنتَ تعرف أنَّ كلَّ تفكيرنا في انتصار بريطانيا، وهذا افتراض روزفلت رغم الهزائم المتكرِّرة، والعالم لن يستطيعَ تحمُّل هزيمة بريطانيا، وروزفلت يعلم أنَّ فاروق مع الألمان، فنحن نحبّ أنْ يرحل فاروق وتأتي حكومة مستقلَّة حرَّة".

ـ وماذا غير ذلك في جعبتك؟

ـ لو أنَّ الألمان انهزموا ستظهر بريطانيا كقوَّة عظمى في الشَّرق الأوسط أكثر من ذي قبل، ولكن روزفلت لا يريد هذا أيضًا، هو يريد بريطانيا أنْ تنتصر وهو يبذل كلَّ جهده في هذا، ولكن يصرّ أنَّ بريطانيا لا تملك كلَّ الزِّمام في الشَّرق الأوسط، وهذا يشمل مصر. والمحافظون هنا مثل والد سيرين يدركون أنَّهُ مادام فاروق مستمرًّا في فساده، فستجد بريطانيا الحجَّة لتحكم قبضتها على مصر؛ لكي تمنع ثورة شاملة من الفلَّاحين تطرد فاروق والإقطاعيين الجشعين، وبإعطاء فرص النَّصر تدريجيًّا على ألمانيا تكون الفرصة، في رأي روزفلت، سانحة للضّبَّاط الشُّبَّان ليستولوا على الحكم في انقلاب غير دمويٍّ.

ـ وأين جريج من هذا؟

فقال جريج: "أنا الرَّجُلُ الصّوريّ، بريطانيّ مخلص ولكن أحبّ أكثر الضّباط الذين ضدّ فاروق"، فأضاف ستيفنسون: "هذه حقيقة، أنا رَجُل

الكواليس، لي فريقٌ في جمع المعلومات لا يُبارى"، وأردفَ: "وماذا عنكَ يا مارك، أنا أعرف كلَّ شيء"، وأضاف ضاحكًا: "ليس كلّ شيءٍ بالضَّبط، ولكنْ أنتَ تعرف أنَّ المصريين المدنيين الذين يعملون في الجيش مستعدُّون للحديث مقابل البقشيش".

فرحتُ أتساءل مَنْ ذا يعرف فعلًا أسراري الخاصَّة، فقد كنتُ أنا وسيرين سنتقابل في اليوم التَّالي، بعد أن اتصلت بي وأخبرتني أنَّ جريج سيتناول الغداء في نادي الجزيرة بعد مباراة البولو، والذي حدث أنَّني أرسلتُ كَعَمَلٍ روتينيٍّ للتعامل مع بعض السّكارى، ولكنَّ هذا قادني لطريق شائك قادني بمعاونة سامية لأصدقاء قدماء، منهم الجنرال صادق وناصر والسَّادات وكم من الجواسيس الألمان.

٢٣

مبدئيًّا كان التَّحقيق الذي أفسدَ عليَّ سهرة الخميس روتينيًّا، فقد وُجِدَ صول سكرانًا يتجوَّل بقرب محيط مكتب المخابرات، وأخذَ الرَّجل للتَّحقيق، وبداية لم يكن الرَّجُل في محيط المخابرات، ولكن كان واقفًا يبتسم بغباء، ثمَّ جلس على الأرض، ثمَّ استلقى على ظهره، ولم يكن الرَّجُل سكرانًا، بل مسطولًا من الحشيش وبالتَّالي يجب تسليمه لوحدته.

بالتَّحقيق وُجِدَ أنَّ الرَّجُلَ صول في الهجَّانة المصريَّة اسمه عبَّاس حاتم، وبالتَّفتيش تمَّ العثور على مبلغ من المال يوازي ١٢ شهرًا من راتبه وكتاب صغير يدلّ على أنَّ الرَّجُل مميَّز، وكذلك منديل نظيف بعكس المعتاد من الجنود المصريين، ومطواة، وبعض الفكَّة وقلم رصاص معدنيّ. بمحاولاتي المتكرِّرة لتشغيل القلم وإخراج السِّنِّ الرّصاص انفتح القلم، ولكنْ بدلًا من وجود عبوَّة سنون رصاص كانت هناك لفافة ورق صغيرة، بفتح هذه اللفافة كانتْ هناك رسالة تقول: "فريدمان ص".

بالبحث الدَّقيق عثرنا من خلال المخابرات أنَّ اسم فريدمان هو رجل يعمل لصالح ألمانيا، وكان مهرِّبًا للمخدّرات وكان مطلوبًا للقبض عليه، ويعتقد أنَّه يعيش حاليًا في بيروت وأنَّه ينتحل أكثر من اسم ومعه أكثر من جواز سفر، وقبل أن نسلِّم الرَّجُل لوحدته استمرّينا في التَّفتيش وعثرنا على فواتير تدلّ على تكرار ذهابه لكباريه سفنكس، فذهبت فورًا للكباريه لاستكشاف علاقات الرَّجُل.

لقد تغيَّر الكباريه تمامًا، ولعلَّ أحد الزَّبائن مثل الملك فاروق الذي كان من روَّاد الكباريه أقنع سامية بإقامة بار خلفيٍّ للبار الرَّئيسيّ يشمل غرف

نوم وفتيات من جنسيَّات مختلفة، وفجأة تحوَّلت سامية من مطربة شهيرة إلى مديرة لبيت دعارة، ففي الكباريه تجد الجارسونات بالصَّواني المعتادة، والموسيقى الشَّرقيَّة والبنات اللاتي يفتحن للزَّبائن، وهناك في آخر البار يوجد باب صغير، كأنَّه يؤدِّي لمكتب لا يدخله أحد إلَّا بإشارة من سامية نفسها.

ترى في الدَّاخل بارًا طويلًا اصطفَّت أمامه فتيات من كلِّ الجنسيَّات ويقفنَ بنظام غريب، حيثُ ترتدي الأولى ملابس تغطِّي النِّصفَ الأعلى فقط، ثمَّ الثَّانية ترتدي ملابس تغطِّي النِّصفَ الأسفل فقط وهكذا، ولكَ أنْ تطلبَ من أيِّ فتاة أنْ تستبدلَ الملابس؛ لكي تراها كلَّها عارية تمامًا، ولكَ أنْ تستبدلَ أيَّ فتاة تريدها. لقد تغيَّرت سامية نفسها عن آخر مرَّة قابلتها، فلا تزال جميلة بجسمها الرَّشيق الذي يمكِّنها من التَّسلُّل بين الطَّاولات وترحِّب بالزَّبائن، وإنْ كان من آثار المخدِّرات ارتداؤها للأكمام التي تغطِّي ذراعها والنَّظَّارة السَّوداء.

جلسنا، سامية وأنا، على إحدى الطَّاولات في البار الخارجيّ، وفجأة تغيّر وجهها وهي تنظرُ للباب الخارجيّ وقالت: "أهلًا جنرال صادق". بالفعل كنت أعرف أنَّ الجنرال صادق زبون دائم للكباريه، تقدَّم نحونا وحيَّانا وقال: "كيف حال مدام جريج؟"، فأجبته: "بخير"، فأردفَ: "جلالته سأل عليها مؤخَّرًا وقال إنَّه سيقيم لها حفلًا"، فقلتُ: "سأبلِّغ أخي بهذا"، ثمَّ استأذن الجنرال واتجه للباب السِّرِّيّ المؤدِّي للبار الخلفيّ.

أخذتني سامية لمكتبها وأغلقت الباب لتحجب الموسيقى الشَّرقيَّة، كان مكتبها عاديًّا إلَّا من مرايا ذات وجه واحد لترى من خلالها الفتيات في البارين الخارجيّ والدَّاخليّ. سألتها عن الرَّجُل وأريتها صورته فتعرَّفتْ

عليه وقالت إنَّه يعمل في المخدِّرات مع رجل يُسمَّى فريدمان، ولما سألتها عن حرف "ص"، قالتْ إنَّه يعني صادق، فاندهشتُ قائلًا: "هلْ صادق جاسوس؟"، قالت: "لا، ولكنَّه يعمل معهم في تجارة الحشيش، وهم يستخدمون الجمال وهو له نفوذ فلا يمسّ".

كانت الجمال تستورد سنويًّا بالآلاف من الشَّرق أو السُّودان لذبحها، ولكنَّ المهرِّبين كانوا يهرِّبون من خلالها الحشيش، سواء بلصق طرب الحشيش على جلد الجمل ووضع شعر الجمل عليه أو بإجبار الجمل الذي سيذبح على بلع لفائف محفوظ فيها الحشيش واستخراجها بعد الذَّبح.

فقلت لها: "هل تقولين إنَّ فريدمان يهرِّب رسائل ألمانيَّة للقاهرة عن طريق الجمال؟"، فردَّت عليَّ وهي تضحك: "لم لا، والجمال تستخدَم من مئات السِّنين، وبدل الحشيش توضع الرَّسائل"، فقلتُ مستغربًا: "وكيف تعرفين كلَّ ذلك؟"، فقهقهتْ: "شغلي أنْ أعرف كلَّ شيءٍ، وتذكَّر أنِّي مناصرة لبريطانيا، وأيضًا ممثِّلة، يعني أقدر أنْ أمثِّل أنِّي أناصر ألمانيا".

كانت المعلومات قيّمة؛ ولذلك قررتُ ألَّا أخبر البوليس المصريَّ عن أيِّ شيءٍ، وسأذهب وأفرج عن الصُّول حاتم وأراقبه حتَّى تتمَّ مقابلته القادمة مع فريدمان.

طلبتُ من سامية أنْ تراقبَ حاتم، فقالتْ لي: "سأجعلكَ تعرف، فهناك فتاة خاصَّة لحاتم، تتظاهر بأنَّها ألمانية وتستطيع أنْ تعرفَ أيَّ حاجة منه بطريق غير مباشر"، وأضافتْ وهي تضحك: "النِّساء يعرفنَ كلَّ شيءٍ، هلْ تعرف أيَّ شيءٍ عن علي سرِّي وصداقته مع السَّادات؟"، فأجبتها: "أعرفُ أنَّهما تقابلا في ليلة محاولة اغتيال أبي على يد الإخوان

المسلمين"، فأضافتْ: "تعرف أنَّ السَّادات يخطِّط مع الجنرال المصري لينشقّوا لإيطاليا؟"، فقلتُ مندهشًا: "معقول السَّادات؟!".

ــ طبعًا المصري لايزال يغلي غضبًا مما فعله له الانجليز.

لم أقابل المصريَّ أبدًا، ولكن سمعت أنَّه يتكلَّم بالسّوء عن بريطانيا وأنَّه مثير للفتن، وقد تمَّ تدريبه في الجيش التُّركيّ على يد ألمان، وأصبح رئيس أركان. لقد اشتبهتْ فيه بريطانيا كثيرًا باتِّصاله سرِّيًّا مع المحور، ولكن بالتَّفتيش لم يوجد معه إلَّا بعض آلاف الجنيهات الاسترليني المزيَّفة، التي لا تكفي لاتِّهامه وفصله من منصبه.

لما ثبت عن طريق تسريب الرَّسائل بين مصر وألمانيا، تعاون المصري مع الألمان تمَّ فصله من منصبه مع احتفاظه بالرُّتبة العسكريَّة، ومازال كما قالت سامية يقود كثيرًا من أنصاره في الجيش. وقبل أنْ أنصرفَ من الكباريه قالت لي سامية: "سأخبرك بتفاصيل أكبر عندما نلتقي مرَّة ثانية، وأكون أكثر حرّيَّة من هنا".

ذهبنا أنا والعائلة في نهاية الأسبوع الأوَّل من شهر سبتمبر إلى جزيرة النَّصراني، حيث دعانا سرِّي باشا، أعتقد دفعًا من سيرين، للاحتفال بعيد ميلادي الحادي والثَّلاثين يوم ٩ سبتمبر هناك، كانت إجازة نهاية الأسبوع جميلة ومليئة بكلِّ أفراد الأسرتين، وكان كلّ واحد في حالة معنويَّة مرتفعة، فظهرتْ سيرين مشرقة كالعادة.

بعد الظُّهر ذهب جريج وعلي للصّيد، وبقيتُ أنا وسيرين وجونوثان الذي بلغ ١٤ شهرًا، وحكمت مربّيته تنتبه له وهو يزحف على الأرض يبحث هنا وهناك ويحاول الوقوف، ثم يقع ويضحك وينظر لسيرين نظرة تذكِّرني بنظرات جريج.

مدَّ جونوثان شفتيه لكي يبوسني، ولكنَّه طرقع بشفتيه قبل أنْ يصلَ لي فقالت سيرين: "عنده مشكلة في التَّوقيت"، وراحتْ تضحك بصوتٍ عالٍ، وبالتَّالي ضحكَ جونوثان وكذلك ضحكتُ أنا وقلت: "يبدو عليكِ السَّعادة"، فقالت: "لا، محبطة يا مارك، ماذا تعتقد؟ أنا مصريَّة كيف تتصوّر واحدة من الحريم كانت تتخلَّص من الإحباط والسُّلطان كان يمتلك ثلاثمائة من الزَّوجات؟"، فقلتُ ضاحكًا: "ليس أمام الأطفال، يجب أنْ تخجلي من نفسك".

فقالتْ بنبرة ساخرة: "أطفال؟ أخجل؟ يجب أنْ أكونَ خجلانة لمدّة أسبوعين"، فتساءلت: "يعني؟"، فاسترسلت: "بابا وماما استأجرا فيلَّا في اسكندريَّة وسأذهب معهما؛ لأنَّ جريج سيظلّ هنا، وحكمت ستظلّ مع جونوثان، أريد أنْ أبتعد عن فيلَّا زلفي".

بعد أنْ جلسنا في المساء استأذنتُ لكي أنام مبكِّرًا؛ لأنَّ المساء كان يوم أحد بينما الاثنين يوم ٩ لديَّ عمل، وضغطتُ على يد سيرين وأنا أقبِّلها قبلة النّوم، وسلَّمت على الباقين، وشاور لي جريج بقوله: "تصبح على خير".

بعد خمسة أيَّام غزتْ إيطاليا مصر في يوم الجمعة ١٣ سبتمبر سنة ١٩٤٠، في يوم شديد الحرارة. حدثَ في ذلكَ الصّيف كثيرٌ من انتصارات الألمان وكثير من الكوارث كمعاناة وارسو وضرب روتردام بالقنابل، هزائم متتالية للحلفاء، واستسلام باريس، وغزو موسيليني لليبيا وغزو السُّودان في يوليو، واحتلال أرض الصُّومال من بريطانيا في أغسطس، ثمَّ غزو مصر في السُّلوم.

لم أكنْ أعرف في البداية ما حدث إذ كنتُ مشغولًا بقضيّة سبعة مجنّدين انجليز تمَّ القبض عليهم؛ نتيجة عراك في بيت دعارة خلف كلوت بك، وفي أثناء العراك تمَّ طعن مصري بمطواة.

وفي أقلّ من ساعة بينما كنتُ أتابع هذه القضيَّة سمعتُ عن غزو إيطاليا، فأسرعتُ لمكتب المخابرات، لم يكن الذُّعر يعمّ القاهرة كلّها، لكنَّه كان موجودًا في جاردن سيتي، لقد كان التَّفكير السَّائد أنَّها مسألة وقت حتَّى تصل إيطاليا للاسكندريَّة وبعدها للدِّلتا.

في البداية كانتْ كلّ الطّرق في القاهرة مكتظَّة بالنَّاس المرعوبين حتَّى استطاع الجيش أنَّ يمنع جميع المركبات المدنيَّة من المرور في كلِّ الطّرق الرئيسيَّة، فراح تفكيري لسيرين، فذهبت لوالدي الذي يتميَّز بالهدوء في مثل هذه الأمور وقام باتِّصال تليفوني قال بعده: "خبر الغزو صحيح، ولكن كان مبالغًا فيه فهو عبارة عن قلَّة من الإيطاليين عبروا الحدود"، وبدأتُ أبحث في محطَّات الرَّاديو، وكانت الإذاعة قد أقرَّت بالغزو ولكنَّ البعض من النُّقَّاد المصريين وجدوها فرصة لانتقاد بريطانيا، فها هو صدقي رئيس الوزراء السَّابق يقول: "إنَّ غزو الطّليان لمصر ليس مقصودًا به مصر، ولكن مقصود به دولة أخرى تحتلّ مصر"، فقال أبي: "ها هم المصريُّون دائمًا يؤيّدون المنتصر! علاوة على أنَّهم ملّوا من احتلالنا لهم".

جاء خبر عاجل من الرَّاديو عن غارتين إيطاليتين على الاسكندريَّة، وأصبح القلق باديًا على سيرين، وهل نخبر جريج أم لا. قرَّرت أنْ أذهب للفيلَّا وأترك لجريج رسالة، ولكن وجدته هو شخصيًّا هناك؛ لأنَّ المباراة التي كان من المفترض أنْ يلعبها في نادي الجزيرة مع ضبَّاط الجيش تمَّ إلغاؤها واستدعاء الضّبَّاط، وكان يتكلَّم في التّليفون وعرفت أنَّ على الخطِّ

الآخر سيرين، وكلّ ما سمعته هو ردود جريج، والتي قرَّر بعدها أنْ يذهب للاسكندريَّة لكي يحضرها نظرًا لعدم وجود قطارات. أيضًا لم يكن من المتاح أنْ يسافر بالسَّيَّارة بسبب منع المرور للمركبات المدنيَّة ولكنِّي اقترحت عليه أنْ أذهبَ بسيَّارتي، حيث عندي تصريح بالتَّنقّل وآخذه معي ونأتي بسيرين.

طلبَ منِّي جريج أنْ يقود السَّيَّارة فوافقت لمعرفتي أنَّه يقود بمهارة أعلى منِّي، ولكن طلبتُ منه ألَّا يتجاوز السُّرعة حيث الطَّريق مليء بالشَّاحنات العسكريَّة، وبالفعل أخذنا طريقنا من عند سفح الهرم للطَّريق الصَّحراوي الذي هو عبارة عن شريط من الحصباء محاط بالرَّمْل وطرق جانبيَّة للحيوانات أو التَّجاوز.

كان المرور العسكريّ أقلّ مما تخيَّلت وما كان هناك إلَّا قلَّة، ولم يقابلنا إلّا قافلة واحدة استطاع أنْ يتفاداها جريج من الطَّريق الجانبي وهو يسير بسرعة تتراوح بين الثَّمانين والتِّسعين، توقّفنا في الرِّست هاوس لنتناول بعض المشاريب، ثمَّ استأنفنا سيرنا، وما أنْ تجاوزنا وادي النّطرون حتَّى رأيت هالة من الغبار أعلى منحدر، وسربًا من الجمال قادمًا من جانب الطَّريق، فتبيَّنت أنَّها سيَّارة قادمة بأعلى سرعة، ولما أرادتْ أنْ تتفادى قطيع الجمال اتجهت نحونا فصرخت لجريج أنْ ينحرف للطَّريق الجانبيّ ولكن كان قد فات الأوان.

٢٤

لم أدرِ كم من الوقت ظللتُ وأنا فاقد الوعي، ولكنِّي أفقتُ قليلًا لأتحسَّس بيدي كتلًا من المعدن، الرُّؤية غائمة والإدراك ضعيف، فما شعرتُ إلَّا بباب سيَّارة حاولت الخروج منه، وبالكاد استطعتُ الوقوف على قدمي ملوِّحًا للقافلة التي سبقناها.

ما إنْ وصلت القافلة حتَّى سقطت على الأرض، وبالكاد سمعتُ أحدهم يقول: "إنَّها حادثة صعبة". لقد تناثرت أجزاء من المعدن على الطَّريق، وهناك جمل قد ماتَ وآخران أصيبا، وتبيّنت من خلال الغمام الذي على عيني سيَّارتين محطَّمتين أمام سيَّارتي. سألني واحدٌ من القافلة العسكريَّة عن هويّتي فعرفت نفسي، وما أن استطعت نطقَ الكلمات حتَّى صحت: "أين أخي، أهو بخير؟".

فأجابني: "نحاول إخراجه من السَّيَّارة"، ثمَّ طلب منِّي الرّقود على الأرضِ، فأعدت سؤالي مرَّة أخرى: "أخي"، فردَّ: "هو بخير وإنْ كانت الإصابة خطيرة"، فأعطيتهم عنوانَ أبي ليتَّصلوا به. فقال لي: "استرح حتَّى تأتي سيَّارة الإسعاف"، وكانت السَّيَّارة التي اصطدمتْ بنا من النّوع الحديث، فانقسمت إلى نصفين حتَّى جعلتها سيَّارتين، وفي مدَّة قصيرة ظهر أناس من حيث لا أدري يذبحون الجمل الذي لقى حتفه ويقطعون لحمه قبل أنْ تأتي النّسور وتأكله.

في هذه اللحظات جاءتْ سيَّارة الإسعاف ونزل منها طبيبان شابَّان وسمعتهما يتهامسان: "إنَّه رائد في المخابرات"، وقال الثَّاني: "إنَّها صدمة

متأخّرة، سأعطيه حقنة تهدِّئه، خذه للإسعاف وسأذهب لأساعد في إخراج الرَّجُل الثَّاني".

بالكاد أدركتُ أنَّهم مزَّقوا القميص ونظَّفوا جسمي بالماء وشعرت بوخز الإبرة ولم أشعر بشيء من حولي، لم أفكِّر في جريج ولا في السَّائق الآخر، ولم أفكِّر فيمَن حولي ولم أشعر إلَّا أنِّي قلت: "آه، سيرين سأظلّ أحبّك للأبد". في المرَّة الثَّانية التي فتحتُ فيها عيني رأيتُ حولي أثاثًا متواضعًا، وحيطان مطليَّة بالجير وأسرَّة بلا مخدَّات ولا بطاطين وملايات قذرة.

في السّرير المجاور كان هناك رجل ملقى على ظهره ورجله مرفوعة فظننتُ أنَّه جريج، ورأيتُ رجالًا في جلاليبهم كأنَّهم أشباح ومعلَّقة أعضاؤهم التَّناسلية فى مباول، وبعض الممرّضات يحاولنَ معهم أنْ يتبوَّلوا، قال أحد الرِّجال وهو يشير للرَّجل الذي ظننته جريج، وهو يقول: "هذا هو الرَّجل الذي قتل أربعة مصريين منهم طفلان، إنَّه انجليزيّ".

علمت أنَّ هذا المكان هو دار مسنّين، وبعد أنْ سددتُ أذني لكي لا أسمعهم، وأغلقتُ عيني، جاءتْ ممرِّضة وأخرجت كلَّ الرِّجال من الغرفة، ثمَّ فتحت عيني بالكاد لأرى أمامي أبي فشكرته أنَّه جاء، وسألته كيف جاء، فقال إنَّه استغلَّ سلطته، وسألته عن جريج، فأخذ يربت على كتفي ويدلِّك شعري وقال لي: "رتَّبت لسيَّارة إسعاف خاصَّة لتنقله لمستشفى الأنجلو أمريكان، فحالته سيّئة، لقد كان هو السَّائق، أليس كذلك؟ ولقد انحشرتْ رجلاه في عجلة القيادة وحدث كسر فظيع في فخذيه"، وكاد أبي يبكي وهو يحكي لي، وسألته: "هل باقي جسمه

سليم؟"، فردَّ والدي بحزن: "ارتجاج بسيط في الدِّماغ وجرح قطعي في رأسه تمَّ خياطته وكسر في ذراعه اليسرى"، فقلتُ له: "وهل أمِّي تعرف هذا؟"، فقال: "لكي أخفِّف عنها قلت لها كسر في ساقيه، وسيخرج في غضون أسابيع".

دار في خلدي وأكيد خطر على بال أبي التَّساؤل نفسه وهو هل جريج ممكن أنْ يمشي على قدميه مرَّة أخرى أم لا؟ قال أبي مقاطعًا تساؤلي: "لا نملك إلَّا الرَّجاء والدُّعاء"، ثمَّ أردف لقد جاءت سيَّارة الإسعاف وهي خاصَّة ليس بها مكان لاثنين، فهل تستطيع أنْ تركبَ معي"، فأومأت، وقمت من على السّرير متكأ على أحد الممرّضين المصريين.

وفي طريقنا سألني أبي عمَّا حدث وكيف تركت جريج يقود السَّيَّارة فأجبته وحكيت له ما حدث، وسألته عمَّا إذا كانتْ سيرين تعرف أم لا، فأجابني بأنَّهم أرسلوا لها رسالة سريعة وسيَّارة لتحضرها، وقال لي: "لقد حجزنا لك سريرًا مع أخيك"، فقلت له: "لستُ في حاجة لسرير"، فقال: "على الأقل لكي نطمئنَّ عليك".

بعد أنْ قضيتُ الليلة استيقظتُ في الصَّباح بشهيَّة مفتوحة، كان أوَّل شخص رغبت أنْ أراه جريج، فصحبتني الممرِّضة لغرفته. اعتقدتُ أنِّي سأجد جريج وحيدًا في الغرفة، ولكن وجدت عنده طبيبًا متخصصًا ووجدتُ سيرين التي بادرتني: "أحببتُ أنْ أزوركَ ولكنَّهم رفضوا"، وأضافتْ هامسة: "سأذهب لأسأل الدّكتور عن شيءٍ ما وأعود".

لقد كان جريج في حالة سيِّئة ولكنَّه تحسَّس يدي بيده السَّليمة: "كان من المفروض أنْ أتركك تقود السَّيَّارة"، فقلتُ له بابتسامة محاولًا أن أكون بشوشًا: "لا تقلق سوف تعود لنا سريعًا سالمًا". كنتُ أتحدَّث مع جريج

ولكنَّ أذني مع سيرين وهي تتحدَّث مع طبيبين فرنسيين بحدَّة وصوت عالٍ: "من حقِّي أنْ أناقش ما يخصّ زوجي، ولقد قلتُ لك إنِّي أمنعك يعني أمنعك"، قال لها أحد الطَّبيبين: "ليس أمامنا غير ذلك"، فوضعتْ يدها على وجهها وهي تعضّ أصابعها والدّموع في عينيها: "هذا صعب، شيء فظيع"، فردَّ عليها الطَّبيب: "إنَّ الحياةَ صعبة يا مدام".

بعد أنْ خرج الأطِّباء جاءتْ ممّرضة انجليزيَّة أنيقة وطلبت منَّا بلطف الخروج من الغرفة لبعض الوقت، فجلسنا في الطُّرقة وسألت سيرين عمَّا حدث مع الأطّباء فقالتْ وهي تقريبًا تبكي: "الأطِّباء الفرنسيُّون جزَّارون، يريدون أنْ يبتروا ساقيه الاثنين"، فقلتُ متلعثمًا: "ساقيه الاثنين؟".

لقد كان تفكيري أنْ يمشي جريج بعصا أو أعرج ولكن أنْ تُبتَر ساقاه! فقلتُ: "يالكِ من مسكينة يا سيرين ويالكَ من مسكين يا جريج، كان لابدَّ من إعطائه فرصة فعظامه يمكن أن تجبر"، فقالتْ: "أنا قلتُ هذا للأطّباء ولكنَّ الطَّبيب الفرنسيّ أخبرني أنَّه يفعل أفضل ما يمكنه للمريض، وأنَّ أيَّ فرصة ممكنة خير من لا شيء".

نعم، هؤلاء الفرنسيُّون يحبُّون اللعب بالمشارط؛ لذلك اتَّفق أبي مع طبيب بريطانيّ متخصِّص في العظام، يُعتبر أفضل طبيب أوروبيّ أرسل للشَّرق الأوسط. بعد الفحوصات المبدئيَّة قرَّر الدّكتور كولن إعادة رسم الأشعات، وبعد أنْ نسَّق الرّسومات معًا حاول دكتور كولن أنْ يشرح لنا الوضع بالتَّفصيل بأنَّ هناك تسعة كسور ضخمة في الفخذين غير الكسور العاديَّة البسيطة.

بعد أنْ سألته سيرين عمَّا يمكن عمله، قال الدّكتور كولن بتردّد: "أنا شخصيًّا ضدّ البتر قبلَ أنْ نقوم بكلِّ شيء ممكن عمله"، فصاحت سيرين منفعلة: "شكرًا لله" وقلت معلِّقًا: "وما هو الممكن يا دكتور؟"، فقال: "العظام نتيجة الصَّدمة القويَّة تحوَّل بعضها من مكانها وحدثَ لها تقصير. وكلّ ما نريد أن نفعله هو سحب العظام ووضعها في مكانها، هذا يتطلَّب إرادة قويَّة ومجهودًا جبَّارًا"، فقالتْ سيرين: "وماذا عن قلبه؟" فطمأنها الطَّبيب أنَّ هذا لا يؤثِّر على القلْب لدرجة خطيرة، وقال إنَّه يجب أن يبدأ بسحب العظام بعد تنويمه، ثمَّ بعد ذلك يتطلَّب الأمر تحمّل من قبل جريج ونوم على الظَّهر، وستأتي ممرِّضة بوضع أصيص للتّواليت يوميًّا.

فسألته سيرين عن المدَّة فقال: "حوالي خمسة أشهر"، فقالتْ صائحة: "آه، إنَّه نشيط يا دكتور ولا يتحمّل هذا"، فردَّ عليها دكتور كولن: "لذلك أنا قمت باختبار شخصيَّة وقلت الأمر يحتاج إرادة قويَّة".

قلتُ للدّكتور: "وبعد الخمسة شهور؟"، فقال: "لا أكذب عليك إن لم أقل إنَّ هذا يمثِّل خمسين في المائة"، فقلتُ: "جريج قويّ وسيساعد على العلاج" فقال: "وعلى هذا يعتمد العلاج، وعلى الأسرة أنْ تساعده أثناء نوبات الألم".

بعد أنْ خرج الدّكتور أخذتُ سيرين وأوصلتها للفيلَّا وفي الطَّريق سألتها عمَّا سيحدث لنا فقالت: "لا أدري بالرَّغم ما عرفت أنَّه حدث شيء غريب بالأمس"، فقلتُ متسائلًا: "أمس؟"، فقالت: "نعم، بعد أنْ قام أطبَّاء الإسعاف بعملهم سألوا أين سيرين، فجئت لهم، وقالوا لي إنَّ زوجك لم يصب بشيء خطير، وأخبرني بما قلته أنت في الطَّريق، وقال كم هو جميل أنْ يكون زوج وزوجة بهذا الحبّ.

٢٥

بعد شهرين أو ثلاثة من نوم جريج على السّرير، شعر برغبة جنسيَّة، فكما قالتْ لي سيرين إنَّه في يوم من الأيَّام بعد الظّهر وبعد أن تناول جريج وجبة الغداء طلب منِّي أنْ أجلس أمامه وأعرِّي نفسي، وعندما حاولت الرَّفض ألحَّ بطريقة جعلتني أفعل ما يريد حيثُ جلستُ على الكرسي ورفعت الجونلَّة وفتحت ساقيَّ، ولكن فجأة دخلت الممرِّضة فاعتدلتُ سريعًا وأنا مرتبكة.

قلتُ له بعد أنْ ذهبت الممرِّضة إنَّ هذا الفعل غلط وضار بالنِّسبة له ولكنَّه شخط، وقال: "وهل سأبقى للنِّهاية في مستشفى مجانين؟"، وأضاف بسخرية قائلًا لي: "ماذا تقترحين؟"، فقلت له: "في بيتنا نكون لوحدنا ولا نخشى أحدًا"، فردَّ بعصبيَّة: "أنا رهن لهذا السّرير، وشيء جيّد أنَّ يدي اليمنى لم تكسر لكي أفعل بها ما أريد، وكلّ الذي أريده منكِ أنْ تساعديني، أنْ تثيريني، ما المشكلة في ذلك؟"، فرددت عليه: "الممرِّضات يا جريج يدخلنَ ويخرجنَ دون إذن، ولو رأوني"، فقاطعني: "مالي ومال الممرِّضات لا أهتمّ بهنَّ إطلاقًا"، فقلتُ له: "وأنا؟"، فقال محتدًّا بصوتٍ عالٍ: "أنت؟ ألم تفكِّري فيَّ أنا، ثمَّ ماذا كنت تفعلين اليوم؟"، فجاوبته: "أنتظرك، وأشغل وقتي بالرَّسم مع بابتس".

فقال بطريقة غريبة: "هذا العجوز الشَّاذ؟"، وهنا تملّكني الغضب فقلت له: "إنْ كنتَ تريد أحدًا يثيركَ، فهناك بنات سفنكس"، فقال: "سأفعل على الأقلّ لن يرفضوا"، فقلتُ له بعصبيَّة: "لا تنسَ أنْ تمضي على الشَّهريَّة" وتركته. كان هذا المصطلح سائدًا في القاهرة في بيوت

الدَّعارة عندما يذهب رجل للمتعة وليس معه نقود يتعهَّد بالدَّفع عندما يقبض الراتب الشَّهري ويمضي على ورقة للوفاء بهذا العهد.

بعد أنْ حكتْ لي سيرين عن مشادتها مع جريج، قالتْ وهي تبكي: "شيء مقزِّز، الذي أغضبني أكثر أنَّني كنتُ أساعد جريج في كلِّ شيء قبل الحادثة".

في الحقيقة أنَّه قبل أن ينفذ جريج كلامه عن البنات، كانت مجموعة من بنات سفنكس يأتين بملابس مثيرة يزرنَ جريج، ولم يكن أحد يعرف عنهنَّ شيئًا. كانت هناك بنت هنديَّة اسمها ياسمين مع أخرى سياميَّة اخترعتا اسمًا كوديًّا للممارسة عن بعد وهو "رسالة الرَّاحة". وكما قال لي ستيفنسون: "تصوَّر أنَّ هناك متعة أكبر في رسالة الرَّاحة عن الفعل الحقيقيّ وخصوصًا عند الوصول للحظة الذُّروة". لم أدرِ أنَّ ستيفنسون من مشجِّعي سفنكس إلَّا أنَّه قال لي: "من أين تعتقد أنني أحصل على المعلومات".

لم تستمر الزِّيارات لجريج في سرِّيَّتها فروَّاد سفنكس عرفوا أنَّ البنات اللاتي يزرنه من سفنكس، وبالتَّالي القاهرة كلّها عرفت ذلك الموضوع ما عدا شيفون التي ذهبت ذات مرَّة لجريج فرأت ياسمين وهي لا تعرف حقيقتها، ولكنَّها قالتْ عنها إنَّها من طبقة عالية، وجريج كان بحالة جيّدة نتيجة لزيارة هذه السَّيّدة له.

سألني أبي في يوم دعاني لمكتبه: "هل صحيح أنَّ البنات اللاتي يزرنَ جريج في المستشفى من سفنكس؟"، فقلتُ له: "جريج طريح الفراش ونائم على ظهره"، فقال لي: "لم تجب عن السّؤال".

فقلت: "جريج في حالة سيّئة"، فسألني: "وهل سيرين تعرف هذا؟"، فجاوبته: "نعم، فبعض البنات اللاتي في سفنكس فرنسيَّات"، فردّ بلهفة: "من فرنسا! جميلة"، فرددت: "مثيرة أكثر من أنَّها جميلة"، فسألني عن اسمها فقلت: "سوزان"، فسألني كيف أعرف كلّ هذا فأجبته ضاحكًا: "شغلي في المخابرات"، فطلب منِّي أن آخذه معي فوعدته بذلك. شرحتُ له ما يدور في البار الخلفي لسفنكس، فقال لي: "سأذهب لجريج وأمنعه من هذا الفعل التَّافه الذي يقوم به"، فقلت: "لا، إنَّه يعتقد أنَّ هذا سرٌّ، لا تظهر له أنَّكَ غضبان منه أو متضايق". فقال فجأة: "وماذا عن سيرين وجونوثان"، فقلتُ له: "تتكلَّم وكأنَّكَ تتوقَّع الطَّلاق، ولا أحد فيهم يفكِّر في ذلك".

اعتادت سيرين أنْ تزور جريج، وطبعت نفسها على الواقع وأصبحا متفاهمين على ذلك. كنتُ أتساءل إذا كان جريج يعلم أنَّ القاهرة كلّها تعرف ما يفعله أم لا. في إحدى المرَّات النَّادرة التي كنَّا نتقابل فيها أنا وسيرين بمفردنا قالتْ لي: "لولاك أنت وجونوثان لقتلت نفسي"، ثمَّ نظرت لي بحزن: "آه لو لنا مكان نتقابل فيه لوحدنا لكي نمارس الجنس، ونكون معًا بمفردنا". بدأتُ أفكِّر في الحصول على شقَّة رغم أنَّ الضّبَّاط شغلوا معظم الشّقق الميسرة، ولكن فجأة خطر على بالي تيدي فهو قادر على ترتيب كلِّ شيء.

لقد باح لي بأنَّه تزوَّج إنجيلا جراي في بيروت، وعرَّفني بأنَّ هذا سرّ ويجب ألَّا أخبر به أحدًا؛ وذلك لأنَّ كلًّا منهما يعمل لدولة مختلفة، وأخبرني أنَّه يعيش في الشَّقَّة السِّرِّيَّة التي قابلت فيها عبد النَّاصر حينما يلتقي بها وإن كانتْ في الفترة الأخيرة تعيش في شقَّة منفصلة بمفردها،

وقال لي تيدي يمكنني بالطَّبع استخدام الشَّقَّة في أيّ وقت إذا كان معي صديقة.

عندما أخبرتُ سيرين عن حلِّ مشكلة الشَّقَّة رحّبت بهذا الحلِّ، ولكنِّي قلتُ لها: "إنِّي قلقان من أن يكتشف أمرنا شخص ما"، فردَّت عليَّ بصوت فيه نبرة غضب: "انظر مارك، أنت تقلق من أشياء تافهة، ولكن انظر موضوعيًّا للأمر، فأنا تزوَّجتُ من جريج بناءً على طلب أبي والعادات المصريَّة، وها جريج عاجز، وأنتَ تزوَّجت من بارمي وحدث بينكما ما حدث، فما المشكلة إذا أردنا أن نتمتَّع قليلًا، ونبحث عن سعادتنا؟".

قلتُ: "ماذا عن خطورة الموقف لو أنَّنا انكشفنا؟"، فردّت: "ليس هناك أيّ خطورة، أنا عارفة أنَّك تخشى أنَّ تيدي بعد كاس أو أكثر يفشي السِّرَّ، أنا متأكِّدة أنَّه لن يحدث هذا". فقلتُ: "أخشى أنْ يرفدوني من العمل"، فقالتْ: "لن يرفدوكِ، ولو حدث فالجيش لن يستغني عنكِ لمجرَّد أنَّك متعت نفسك، وضع في اعتبارك أنَّ تيدي موقفه أخطر هو وإنجي؛ فكلاهما تزوَّج سرًّا وكذب على الجيش، يعني سينفصلان ولن يعيشا في بلد واحد".

لذلكَ بلّغت تيدي بأنَّنا سنذهب للشَّقَّة معترفًا: "أشعر بأنّي وغد، أمعَ أخي؟ ولكن للأمانة لم يكنْ زواجها إلَّا ظاهريًّا، على أيّ حال لن أشغلك بمشاكل الأسرة"، فقال: "فاكر ما قلته لك قبل ذلك في شبرد وراهنتك عليه؟".

رغم أنَّ وقتنا في الشَّقَّة كان محدودًا إلَّا أنَّنا عملنا على ألَّا نستعجل في استمتاعنا بوقتنا، كنَّا ننتظر على الكنبة وأتحسَّس ساقها فتضغط على يدي

وتصعد بها إلى أعلى، حتَّى المناطق السَّاخنة، أحيانًا كنَّا نمارس الجنس على الكنبة، ونرتدي ملابسنا ونذهب.

كنَّا نزور جريج بانتظام، وكذلك أصدقاؤه، وبرغم ذلك كان يشعر بالملل من المستشفى، ولكم حاولتُ أنْ أسأل الدّكتور كولن عن مدى تحسُّن حالته، ولكنَّه قال لي: "مستر هولت، ليس هناك سبب يجعلني لا أخبركَ بشيء أعلمه عن حالة أخيك، ولكن من البداية أخبرتكم أنَّ عمليَّة سحب العظام نسبتها ٥٠٪، وعلى أيّ حال هناك بعض العظام استجابتْ لعمليّة السَّحب والبعض مازال يحتاج وقتًا، فأمامنا ستّة أشهر وبعدها أعطيك تقريرًا كاملًا عن الحالة".

كان جريج قد أنشأ في غرفته رفًّا عليه متنوِّعات من المشروبات وكأنَّه بار، وجاء سرِّي باشا في إحدى الزِّيارات بزجاجة من الخمر هديَّة لجريج لكي ينعش بها نفسه لكي يخرجه من حالة الاكتئاب التي كان يعيش فيها، فالحياة في القاهرة صارت متنافرة بسبب الطَّبيعة التي انقلبت رأسًا على عقب بعد غزو موسوليني المفاجئ لمصر وأخذه السَّلّوم في يوم الأحد شديد الحرارة من أغسطس، والذي ظنَّ النَّاس أنَّ الغزو سيستمرّ أيَّامًا، إلَّا إنَّهم احتلُّوا سيدي برَّاني.

لم تكن السَّلُّوم وسيدي برَّاني إلَّا نقطة صغيرة على الخارطة، بعض الأكواخ الطّينيَّة المتناثرة بطول خطّ السِّكَّة الحديد الوحيد والسَّاحل المتَّصل من ليبيا لاسكندريَّة. بلا مبرِّر استقرَّت القوَّات الإيطاليَّة في سيدي برَّاني للرَّاحة، ممَّا جعل القوَّات البريطانيَّة تتقدَّم لمرسى مطروح وتتَّخذ قاعدتها الشَّماليَّة، لربَّما كانت القوَّات البريطانيَّة تفضّل القاهرة أو

اسكندريَّة، ولكنَّها تمتَّعت بأجمل شاطئ في أفريقيا، حيثُ أخذت كلوبترا أنطونيو ليستحمَّ في البحر الذي انعكست عليه كلّ ألوان قوس قزح.

في أوائل ديسمبر استطاعت سرِّيَّة ميكانيكيَّة بريطانيَّة وقوَّات فرنسيَّة من استرداد سيدي برَّاني، وفي منتصف ديسمبر أعادوا السَّلُّوم، وبذلك أصبحت مصر آمنة مرَّة ثانية، في غضون أسبوع استردَّت قوَّاتنا حوالي أربعمائة كيلومتر مربّع وأسرتْ ثلاثين ألف جندي مقابل سبعمائة جندي من الحلفاء قتلوا وسبعمائة أصيبوا.

تحرَّكت قوَّاتنا غربًا حتَّى برقَّة ووضعت يدها على المنطقة إلَّا طبرق التي استطعنا أنْ نستخدم ميناءها. بعد أنْ أرسلنا الطَّليان بفترة قصيرة صادفت عليًّا فسألته: "أليس أنتَ الذي قلتَ إنَّ صديقك عبد النَّاصر في العلمين؟"، وفي الحقيقة كنتُ أجرجر الحديث عن السَّادات الذي لم أذكر اسمه أوَّلًا، وأردفت: "أليس صديق عبد النَّاصر الشَّاب الذي بشارب أسود ثقيل ويدخِّن دائمًا بايب"، فقال: "آه تقصد السَّادات، إنَّه في المنطقة" فكذبت عليه قائلًا: "رأيته مرَّة واثنتين مع اللواء المصريّ"، فنظر مستغربًا: "هلْ تعرف اللواء المصريَّ؟"، فأجبته: "ليس للدّرجة، ولكن بقدر ما أنتَ صديق له وهو صديق للمصري أرى أنَّه كلَّما قلَّلت من رؤية السَّادات، كان أفضل".

في ذلك المساء ذهبنا، تيدي وإنجيلا وسيرين وأنا لسهرة في جروبي بمناسبة احتفال أقامه بابتس لسيرين نتيجة لتفوّقها في الرّسم وتجاوزها تأثير أستاذها في فنّ الرَّسم، فهو يراها فنَّانة ترى ما لا ترى العيون، فكثير من رسوماتها له تأثير مذهل؛ لذلك عقد جليري لافونت معرضًا لسيرين كان رائعًا وبيعت فيه كثير من لوحاتها، كانتْ سيرين توقِّع على اللوحات

باسم سيرين سرِّي وجليري فونت، أنا شخصيًّا اشتريت منه لوحتين، لوحة شخصيَّة لسيرين ولوحة لجونوثان.

عبَّرتْ شيفون عن إعجابها بقولها: "هذه اللوحات لم أرَ مثلها إلَّا في الليزمود"، وكانتْ مدام سرِّي في غاية الفرحة لنجاح المعرض. أمَّا سرِّي باشا فأبدى إعجابه بتحفّظ بقوله: "إنَّ الرَّسْمَ المجازي لم يرحّب به المسلمون لفترة طويلة، وإن تقبَّلوا الرّسومات الشَّخصيَّة لحدٍّ ما، بالطَّبع أنا غير مسلم ولكن أتمنَّى ألَّا يغضب أصدقائي المسلمون".

بدون سابق إنذار حضر الملك فاروق المعرض، لم أرهُ منذ مدَّة، لقد تغيَّر كثيرًا عن ذي قبل، زاد وزنه وتغيَّر شكله الذي كان يميل للأنوثة والوسامة لرجل كثيف الشَّعر في أصابعه وعلى فكّيه، كان يأكل في وقت ارتدائه الملابس، حسب ما يقول سرِّي باشا، أكثر من عشرين بيضة وعشرة بكاوي من الشيبس وحوالي نصف جالون من المياه الغازيَّة.

عندما دخل المعرض حيَّا الجميع، وكان بلا شكّ يسير وراءه الجنرال صادق، قال الملك ببشاشة: "أنا هنا بصفتي زائرًا وليس كَمَلِك". بدأ الملك جولته في تفحُّص اللوحات وقرَّر أنْ يشتري واحدة منها، فقال: "سأشتري هذه، وسيقوم الجنرال صادق بإتمام الإجراءات"، وأشار على لوحة سيرين الشَّخصيَّة، وهنا قالت سيرين: "جلالتك وجود تيكيت أحمر صغير على الإطار يعني أنَّها مباعة"، فضحك الملك واقترب من اللوحة ونزع التيكيت قائلًا: "الآن ليست مباعة"، ولكنَّ سيرين اعترضتْ، فقال لها: "سأدفع ضعف ثمنها، بل ثلاثة أضعاف، بل أضعاف أضعاف"، ولكنَّها رفضتْ، فسأل الملك عمَّن اشتراها، فقلتُ

وقد بدا عليَّ بعض الغضب: "أنا"، فقال: "حسنًا سيّد هولت"، وأردف: "هذه رغبة ملك"، وهنا تكلَّم بلهجة الملك لا الزَّائر.

نظر حوله وقال لسرِّي باشا: "اشرحْ للسَّيّد هولت بروتوكول الملكيَّة"، وانصرف، هنا أخذتْ سيرين في البكاء: "لن أجعله يأخذها، ليس هكذا تصرّف الملوك"، ولكن سرِّي باشا وجَّه لي الكلام: "الملك له قانونه الخاصّ"، فرددت عليه: "لن يستطيع أنْ يلمسني، أنا حاليًا في الجيش البريطانيّ"، فقال سرِّي باشا: "ولكن ممكن أنْ يفعل مع والدك أو والدتك". وأضاف: "على الأقلِّ يستطيع أنْ يرغمني كمصريّ أنْ أبيع له منزلكم، وبذلك يتمّ طرد والديك، لقد فعل ذلك من قبل مع أحد المسئولين الانجليز، ألم تسمع بما حدث من يومين، لقد عرض على إحدى الزَّوجات أنْ يوصلها، كان زوجها ضابطًا وكان حينها في الخدمة، ولكنَّها اعتذرتْ بأدب، فقال لها إنَّ هذا أمر، وبعدما ركبتْ في سيَّارته الكادلاك السّوداء، كتغيير عن سيارته السّتروين، وبعد أنْ سار لمسافة، وفي إحدى النَّواصي توقَّف بالسَّيَّارة وعلا صراخ المرأة، فأسرع لها رجل الشُّرطة، ولم يتعرَّف على الملك إلَّا عندما شهر سلاحه، وهنا استطاعت المرأة أنْ تهرب في ملابسها الممزَّقة، وانطلقَ الملك وهو يقول لرجل الشُّرطة خذها لزوجها وبلِّغه تحيَّاتي"، لقد أخبرني سرِّي باشا من قبل إنَّ الملك يحبّ الزَّوجات المجهولات فذلك يزيده متعة.

في نهاية الأمر لم يحصل أيٌّ منَّا على اللوحة، فقد جاء بعد عدَّة أيَّام الجنرال صادق لفيلَّا زلفي ليعلن عن تنازله للوحة بشرط ألَّا تباع وتعلَّق في الفيلَّا، وفي الوقت نفسه حدَّد موعدًا لزيارة الملك وهو يوم الجمعة. بعد

أنْ غادر صادق الفيلَّا قالت سيرين: "لما أفكّر في السُّلطة التي يمارسها هذا الخنزير أجدني أتعاطف مع أصحاب عليّ الذين يريدون أنْ يطيحوا به".

تساءلت إذا كان نهم فاروق في الأكل وراثة أمْ لا، فكلّ العائلة المالكة لديها نهم في الأكل، وإنْ كانوا ليس بقدر فاروق، ولكنَّهم في مصر يربطون بين السِّمنة والفحولة.

قلت للدّكتور فيليب في تلك الليلة: "ربَّما كانت السِّمنة غطاءً لنقص الفحولة"، فشرحَ لي أنَّ الوضع عند فاروق هو نتيجة لخلل في الغدد النّخاميَّة، حيثُ تفرز مزيدًا من مادَّة الكورتيزون؛ مما يسبب السِّمنة، والغدد الكظريَّة التي تفرز مزيدًا من هرمون الاندروجين الخاصّ بالجنس ويسبِّب إنبات الشَّعر، وأيضًا هذا نتيجة لتعامل أبيه فؤاد معه، حيثُ كان يعامله كمخنَّث، ولم يعامله أبدًا كرجل ولم يعطه الفرصة ليكون رجلًا.

فكَّر ستيفنسون في أنْ يجعل سيرين تدعو فاروقًا لحفلات أخرى، حيثُ كان دوره أنْ يجمع معلومات سيّئة عن الملك وخصوصًا لياليه الحمراء وعشيقاته، فواشنطن في شوق لمعرفة هذه الأخبار. في البداية تردّدت سيرين ولكن أخيرًا أقنعها ستيفنسون مستغلًّا كراهيتها حينئذٍ لفاروق.

وعندما طلب منِّي المشاركة قلتُ له لابدَّ أنْ أستشير مكتبي، وعندما فعلتُ ذلك رحَّب المكتب بهذا.

الملاحظ أنَّه زادت خلاعة فاروق بعد زواجه في ١٩٣٨، وبدأت زياراته لفيلَّا زلفي كلّ ليلة مع فتاة جديدة، وكان كثيرًا ما يطلب من سيرين أنْ ينفرد بأي سيّدة تعجبه. وفي خلال عملي بتمثيل دور الجاسوس جاءتني رسالة مختصرة من سامية "تعال" وهي اختصار لأحضر فورًا لكباريه سفنكس للضَّرورة.

٢٦

كان كباريه سفنكس مزدحمًا. البنات في اليشمك والملابس الرَّقيقة يقدِّمنَ الخمور، والموسيقى الخلفيَّة عبارة عن أغاني عربيَّة تعيش من خلالها سامية الجوَّ القديم، وكان جوّ الكباريه ملبّدًا برائحة الدّخان التي تدوم مع المراوح البطيئة، بمجرَّد أنْ لمحتني سامية انسلّت لطاولة وحجزتها لي، ما إنْ جلست وارتشفتْ بعض الشَّامبانيا حتَّى قالتْ: "سنتكلَّم في المكتب، ولكن اجلس للشَّكل العام، ثمَّ ادخل البار الخلفي"، ثمَّ أردفت "البالون صعد، ولم يحضر هنا ولكن ذهب للقنطرة".

ماذا يفعل فريدمان الجاسوس الألمانيّ في القنطرة آخذًا موقعًا في قناة السّويس، وأضافت سامية: "رجع عباس حاتم، تتذكَّره؟ والجنرال المصري أيضًا في المنطقة ومعهم شخص آخر، عليّ سرِّي". غمزت لي بعينيها وأشارتْ لي بأن أدخل البار الخلفيّ كأنَّني أريد متعة، فسألتها وأنا أقوم: "هل البنت الهنديَّة موجودة؟"، فردَّت: "لا، لقد سافرت الهند، على عجل".

بعد أنْ دخلت المكتب بادرتني: "هناك خمسون جملًا أحضرها فريدمان للذَّبح في مصر عن طريق القنطرة يوم الخميس، حوالي عشرة منها طبع عليها حرف دلتا الإغريقي".

قالتْ سامية وهي تنفث دخانًا كثيفًا: "فريدمان لا يهرِّب حشيشًا في هذه القافلة"، فسألتها: "كيف عرفت ذلك؟"، فاستأنفت: "عبَّاس دائمًا يسكر، وكان يقول كلَّ شيء للبنت التي يظنّ أنَّها ألمانيَّة لدرجة أنَّه طلب

منها أنْ تعمل معه"، فقلت لها: "ياليتها تفعل، بالمناسبة ما اسمها؟"، فردَّتْ: "اسمها آنا وهي من بولندا، أبواها قُتِلا في وارسو، وكلّ الذي استطاعت أنْ تعرفه منه أنَّ هناك سمكة كبيرة في طريقها للتَّعاون مع الألمان"، وأخذت نفسًا عميقًا من السِّيجارة وأضافتْ: "هل تعتقد أنَّ هذه السَّمكة ممكن أن تكون الجنرال المصري، سمعت أنَّه يتقابل مع السَّادات كثيرًا في هذه الفترة".

ــ ممكن، ولكن نبَّهت على أن يبتعد عن السَّادات، ما علاقته بالموضوع؟

ــ اشترى سيارة بيك أب، وباعها بعد أسبوعين تقريبًا للسَّادات.

ــ شكرًا لك يا سامية على هذه المعلومات.

وأعطيتها قبلة سريعة.

كان جرجسون واحدًا من أعظم الخبراء في الجيش في التّقنيَّة، وكان قد توصَّل لجهاز يكتشف المعادن في الأجزاء الخفيَّة، سألته عمَّا إذا كان الجهاز يمكن أنْ يكتشف المعدن في معدة الجمل، فنظر مستغربًا فشرحت له الوضع وأجاب بأنَّ الجهاز يمكنه ذلك.

ذهبنا جرجسون وأنا لمكان بيع الجمال في بورسعيد القادمة من القنطرة وتظاهرت بشراء جمل، وأخذ جرجسون يتفحَّص بجهازه الجمال حتَّى عثرنا بعد جهد على الجمل الذي سمعنا رنينه الضَّعيف عند تمرير الجهاز عليه.

وأخذنا الجمل للسَّلخانة واستطعنا أن نستخرج منه الكبسولة المعدنيَّة والتي كانت تحتوي معلومات، صوَّرتها بكاميرا صغيرة، وأعدناها مكانها مرَّة أخرى وأعدنا الجمل حتَّى لا يكتشف أي شيء. أخذت المعلومات

وأسرعت لمكتب الرِّئاسة، كانت الرِّسالة عبارة عن عبارة تقول: "السبت الثَّالث من شهر س موعد رحلة الجنرال م، ستهبط طائرة إيطاليَّة بعلامة الحلفاء في الفجر في ممر بقرب جبل روزا قرب طريق سيوة غرب منخفض القطَّارة، سيتقدَّم الجنرال في سيَّارة بيك أب أعطاها له شخص يُدْعى س، وسوف تطير الطَّائرة لبيروت"، واستمرَّ القائد مونسون في قراءة الرِّسالة"، كلّ التَّرتيبات سيقوم بها س"، فسأل أحد الموجودين عن س فأجابه آخر بأنَّه السَّادات.

قال القائد إنَّ السَّادات كان تحت المراقبة وتمَّ إبلاغ الجيش فنقله لمرسى مطروح، فسأل أحدنا: "وهل نفذ النَّقل؟"، فكانت الإجابة أنَّه ادَّعى المرض ونقلوه لمستشفى الجيش وهو هناك تحت الرِّقابة.

كانت التَّعليمات تقول "سيتَّجه الجنرال المصري للإذاعة في بيروت ويبثّ برامج تحريض ضدّ البريطانيين، ثمَّ يذهب لشمال أفريقيا ليقوم ببثّ تلك البرامج".

كانت التَّعليمات تنصّ على خطَّة وخطَّة بديلة، وكانت التَّرتيبات سيقوم بها قائد سرِّيَّة خيَّالة اسمه حسين صبري، سيقوم بسرقة طائرة من قاعدة قرب الفيوم، حيثُ المعظم هناك يكرهون البريطانيين. قال مونسون استطرادًا للرِّسالة: "هناك كثير من الضّبَّاط في القوَّات الجويَّة المصريَّة منشقُّون وممكن يساعدوننا"، وكانت التَّعليمات تنصّ أيضًا على جاسوس جديد له اسم كودي خوفو، قلتُ للقائد بأنِّي سأسأل سامية عن خوفو.

نظرًا لوجود السَّادات في المستشفى كان على عليٍّ أنْ يقودَ السَّيَّارة البيك أب بدلًا منه لكي يذهب بالجنرال المصري، كان عليٌّ تحت المراقبة دون أن

يتمَّ القبض عليه، وذهب أحد المسئولين وأبلغ سرِّي باشا عن وضع علي، ولكن من حسن الحظِّ أنَّ "سرِّي" لم يعرف بدوري في هذه العمليَّات.

في يوم الاثنين التَّالي ذهب صبري والمصري للممر، وبمجرَّد أنْ قاد الطائرة لمسافة قصيرة نفد الوقود فاصطدمت الطَّائرة ووقعت، وتمَّ القبض عليهما، وكذلك تمَّ القبض على السَّادات، ولكنَّه لعدم وجود أدلَّة تمَّ الإفراج عنه.

لمدَّة أسبوعين كنتُ أعمل في السِّرِّ فيما سُمِّيت قضيَّة المصري، وفي هذه الفترة اتَّصلت بسيرين وعرفت منها أنَّ جريج أنهى السِّتَّة أشهر وسوف يسير قليلًا على دعامات وعكاز، وبناء على تعليمات الدّكتور كولين لا يسمح لجريج أن يتحرَّك دون العكَّاز وأن يقلِّل من الشُّرب بقدر الإمكان ولو أقلع نهائيًّا عن الشُّرب لكان أفضل.

ولكن بعد مدَّة وصلتني من سيرين أخبار سيّئة وهي أنَّ جريج خالف التَّعليمات، ففي أحد الصَّباحات وجدوه ملقيًّا على الأرض والدّعامة مفكَّكة، وتمَّ استدعاء الدّكتور كولين الذي أبلغ سيرين بالخبر السَّيِّئ وهو أنَّ جريج أضاع كلَّ المجهود الذي تمَّ، وبالتَّالي لن يستطيع المشي على ساقيه أبدًا، وسيقضي باقي حياته على كرسي.

٢٧

لم يستطع جريج أنْ يغادر المستشفى إلَّا بعد ثلاثة أشهر وعلى كرسي، وفي هذه الأثناء حدثتْ تطوّرات خطيرة في الحرب في الشَّرق الأوسط حيثُ تحوَّلت صيحات النَّصر إلى هزائم متكرِّرة. لقد حقَّقت قوَّات الحلفاء انتصارًا كبيرًا بمنتصف فبراير ١٩٤١، فقد حطَّموا القوَّات الإيطاليَّة، ١٣٠٠٠٠ أسيرًا، وتحطيم ٣٠٠ دبَّابة، و١٣٠٠ مدفع مقابل ٥٠٠ قتيل من الحلفاء، و١٣٧٣ مصاب، و٥٥ مفقود. ولما ذهبت لدهرادون وجدتُ أكوامًا من البيجامات الحرير والملاءات والمعاطف وغيره. في القاهرة كانت الفرحة تعمّ، لدرجة أنَّ سامية وزَّعت مشاريب مجانًا للجنود.

في ربيع العام، أي بعد شهرين تقريبًا تغيَّر الحال تغييرًا دراميًّا، وبالتَّحديد يوم ٢٧ مارس قرأتُ في الصُّحف المصريَّة أنَّه حدثت تخفيضات في جراية الجنود، وسمعت عن روميل، الجنرال إروين روميل الذي قاد كتيبة مدرَّعات التي وصل بها لنهر ميس بفرنسا. سألت مونسون هل روميل سيأتي هنا؟ فأجابني: "لن يصل، بل هو هنا بالفعل، ولكن كيف المدرَّعات عبرت لشمال أفريقيا دون علمنا؟". وأخذ مونسون يشرح كيف أنَّ حكومة جلالته ترغب في ألَّا تفسد العلاقات الحالية مع إيطاليا، هذه التَّعليمات لم يتم إلغاؤها حتَّى دخلت إيطاليا الحرب، فلذلك لم نستطع أن نزرع أيّ عملاء في إيطاليا أو امبراطوريَّة إيطاليا في شمال أفريقيا حتَّى أعلن موسوليني الحرب. لذلك اختار روميل التَّوقيت والمكان، وبالتَّالى لم نعرف إلَّا بعد أنْ وصلت القوَّات الألمانيَّة".

وصلت العلمين في سيَّارة عندما شنَّ روميل هجماته في ٣١ مايو. كانت الأوامر أن أتقدَّم ببطء، ولذلك لما تذكَّرت أنَّ عبد النَّاصر أرسل للعلمين فكَّرت بأنْ أزوره وأعرف ردَّ فعله في الانتصارات.

لقد كان متحمِّسًا في قوله: "ولكنِّي لا أحبّ الطّريقة التي يتبختر بها رجالك وكأنَّهم يمتلكون بلدنا، وبرغم ذلك أحييهم كمقاتلين. ربَّما لا يثقون في قدراتنا". فقلتُ له: "ماذا تعني بهذا؟". فقال: "رئيس وزرائك، مستر تشرشل أمرَ بأن يخرج جميع المصريين من دائرة الحرب، وهذا إهانة لنا". لم تكن هذه هي اللحظة التي يمكن أنْ أخبره بأنَّ تشرشل لا يريد المصريين إذا اشتدَّت الحرب؛ نظرًا لموقف المصريين المعادي لبريطانيا.

فسألته: "ألديك فكرة إلى أين سيرسلونك؟"، فأجاب: "أتمنَّى القاهرة حتَّى أستطيع أنْ أقابل أصدقائي من الضّبَّاط دون أنْ يتجسَّس علينا الضّبَّاط الانجليز"، فقلت متذكِّرًا الاسم: "الضّبَّاط الأحرار؟". قال لي: "لا تضحك يا ميجور هولت، هذا مجرَّد حلم في هذه اللحظة، ولكن الأحلام عادة ما تتحقَّق، لقد وضعنا الأساس، أنا أخبرك بذلك لأنَّه حقيقة ولأنِّي أحبّك، لقد ساعدتني، وأنا أحبّ والدك وأحترمه"، فقلت له: "والسَّادات؟ هل تعلم أنَّه نجا من السِّجن بأعجوبة"، فردَّ قائلًا: "لقد علمتُ بهذا، ربَّما يكون عنيفًا بعض الشَّيء، ولكنَّه مصري حقيقي، لقد سمعت عن دوره في قضيَّة المصري".

فحذَّرت عبد النَّاصر بقولي: "خلِّيه يحترس، وإلَّا المرَّة القادمة سيذهب للسِّجن"، فقال: "السَّادات يستطيع أنْ يهتمَّ بنفسه، فهو يمكن أنْ ينتهي بالسِّجن أو رئيسًا للجمهوريَّة المصريَّة الجديدة"، فتساءلتُ ضاحكًا:

"أيُّهما؟"، فقال ضاحكًا بدوره: "ربَّما الاثنان". فقلتُ له ضاحكًا: "أنتظرك في القاهرة في منزلي، عندنا وليمة".

في هذه اللحظة جاءتني إشارة من القيادة بالذّهاب إليها فورًا، وعلا في اللحظة نفسها نفير يعلن بأنَّ قوّات العدو هاجمت بنغازي. ودعت عبد النَّاصر سريعًا. ما عرفته مساء الاثنين قبل ذهابي للقاهرة أنَّ روميل اقتحم الدِّفاع البريطانيّ في قرية مرسى دريجا بقرب العجيلة، فانسحبت القوَّات البريطانيَّة تاركة خمسين مدرَّعة وثلاثين دبَّابة خفيفة.

لقد عاشت القاهرة في الأيَّام التَّالية حالة رعب، فروميل أخذ بنغازي وتقدَّم فأخذ السَّلُّوم وكاباتزو.

في خلال تلك الأيَّام المليئة بالهزائم كنتُ أقابل سيرين في الشَّقَّة السّرِّيَّة، ولكن نظرًا لمصادرة النَّصراني لتحويلها قاعدة عسكريَّة، كانت اللقاءات تقلّ شيئًا فشيئًا؛ لأنَّ سيرين كانت تذهب باستمرار مع سرِّي باشا للنَّصراني لإحضار المتعلّقات الشَّخصيَّة، وأيضًا كنوع من تعويض جريح كانت تقضي معه معظم الوقت. بالإضافة لذلك هو ترقيتي لرتبة كولونيل لدوري في قضيّة المصري، وكان مونسون يعوِّل عليَّ كثيرًا، ونتيجة لترقيتي انضممتُ للمطبخ السِّياسي حيث تكون المعلومات السِّرِّيَّة.

بانتشار أنباء الانسحاب نشرت الكآبة جناحها على كلِّ سوق وكلِّ حارة في القاهرة، ولكن سرِّي باشا أخبرنا أنَّ الملك فاروق أعلن انبساطه لانتصار الألمان، وأنه سيكون أكثر انبساطًا لو أنَّ الألمان طردوا الانجليز، وأخبرنا سرِّي باشا أنَّه نزل لمهمَّة أقلّ في القصر قائلًا: "لقد فعل عليٌّ شيئًا ما أغضب الملك فعاقبني أنا". ليس عند سرِّي باشا أي خبر أنّني كنت مهتمًّا بقضيَّة المصري وبالتَّالي عليّ والسَّادات.

لقد أصبح سرِّي باشا أكبر من عمره، ففي عام ١٩٤١ كان ٦٣ سنة، ولكنَّ حيويّته ونشاطه انزوى، لقد ذهبت أيَّام البهجة والمرح في نهايات الأسبوع في جزيرة النّصراني، حتَّى مدام سرِّي تغيَّرت، فقد قالتْ ذات مرَّة لشيفون: "أعلم أنَّ هذا لن يغيِّر علاقتنا، ولكن كيف يمكن أنْ يكون البريطانيُّون بهذه الوحشيَّة ليقتلوا كلَّ هؤلاء الفرنسيين في أوران؟ إنَّها لم تنسَ هجوم البحريَّة البريطانيَّة على أوران التي قُتِل فيها ألف فرنسيٍّ تقريبًا لما تحطمت دنكركي.

فقالتْ شيفون: "لكن فكري في الرَّائع ديجول الذي أحبَّ فرقة الفرنسيين الأحرار في القاهرة تلك المدينة التي انطبعت بالطَّابع الفرنسي منذ نابليون، أنا أحبّ ضبَّاطها، روعة، ويحبُّون الرَّقص، وديجول"، فقالتْ مدام سرِّي بصوت غاضب: "غطرسة"، لم تكن ضدّ الانجليز بالضَّبط، ولكنَّ كثيرًا من الفرنسيين يكرهون الانجليز في القاهرة نظرًا لغرورهم وتعاليهم ويتمنُّون لو أنَّهم خسروا الحرب، فقد قال أحدهم: "لن ينسى الفرنسيُّون أبدًا إهانة الهزيمة، ولكنَّهم لن يغفروا أبدًا لو لم يهزم البريطانيُّون".

إنَّ سيرين هي التي عانتْ في تلك الفترة، وستعاني مع جريج عندما يعود على كرسي ونوبات غضبه المتكرِّرة. ولقد عانتْ سيرين من الحالة التي يمرّ بها والدها، وكيف أنَّ الملك فاروق وضعها صريحة على لسان صادق في أنَّ كلَّ شيء ممكن يتغيَّر لو أنَّها... وهناك أيضًا عليٌّ الذي أصبح أكثر صعوبة، كلّ هذا وموقفي أنا بالنِّسبة لها، فلم أعد قادرًا على مقابلتها بصفة مستمرَّة، فلقد أُسْنِدَ إليَّ مهمّة لمدَّة شهر في منطقة القناة لزرع عملاء

لنا هناك، وأيضًا ترتيب لمتفجّرات تكون جاهزة لتفجير المنطقة بأسرها في حالة هجوم الألمان للمنطقة.

بعد أنْ عدتُ من تلك المهمَّة قابلتُ سيرين في الشَّقَّة السِّرِّيَّة، وذلك قبل خروج جريج من المستشفى بيومين. لقد كانتْ ليلة حبّ ورقَّة؛ لأنَّنا كنَّا نعلم أنَّها آخر ليلة قبيل عودة جريج، بينما كانت سيرين بين أحضاني قالت لي: "لا تحزن يا حبيبي سنجد طريقة"، وبدأت تتقلَّب على السّرير، وتضغط جسدها بجسدي، "جميل أنْ تكون فوقي وبداخلي أريد أنْ أشعر ونحن نصل للذروة معًا"، وفعلتُ كما قالتْ وكان فمي في صدرها حتَّى سقطت نائمًا عليها وصحوت في الوضع نفسه.

في الصَّباح بينما كنتُ أصنع القهوة قالت سيرين: "لابدَّ أن نجد طريقة، يبدو أنَّ عملي سيكون وقتًا كاملًا لخدمة جريج، لقد صار عصبيًّا لدرجة كبيرة وأصبح يستخدم يده كتعويض عن ساقيه بعنف لدرجة أنَّه ضغط على يدي مرَّة، فكاد يكسرها.

في صيف وخريف ١٩٤١ كانت الحرب في شمال أفريقيا متأرجحة، ورغم ذلك لم يقترب روميل من اسكندريَّة. وبدلًا من أنْ كانت أخبار الحرب في شمال أفريقيا متصدِّرة الصُّحف أصبحت متراجعة؛ لأنَّ غزو روسيا والذي هجم فيه أكثر من ثلاثة ملايين ألماني جبهة بطول ألف ميل تقريبًا كانوا في نوفمبر على بعد خمسين ميلًا من موسكو.

وحدث أيضًا أنَّه قبل الكريسماس مباشرة قامت اليابان بضرب ميناء بيرل بحوالي ٣٥٠ قاذفة قنابل، ولم يكن الأمريكان مستعدِّين لهذا؛ مما تسبَّب في خسائر جسيمة فحوالي ٢٠٠ طائرة تمَّ تدميرها وقتل حوالي ٢٤٠٣ أمريكي، وفي خلال ساعات هاجمت القوَّات اليابانيَّة هونج كونج

وسنغافورة والفليبين. رغم أنَّ هذا الهجوم كان مأساة إلَّا أنَّ مونسون رأى وجهًا إيجابيًّا له وهو أنَّ أمريكا ستدخل الحرب، وبالتَّالي تكون قوَّة مع الامبراطوريَّة لا تهزم.

أثناء شهور ١٩٤١، لما عاد جريج للمنزل بذل سرِّي باشا كلَّ ما في وسعه ليساعده، فمهَّد له طريقًا منحدرًا للفيلَّا، وأقام مصعدًا للدور الأوَّل. أرسلت المستشفى أيضًا ممرِّضًا رجلًا مع جريج يقوم على خدمته، وعندما طلب جريج أنْ يكون له حمَّام خاصّ وغرفة نوم خاصَّة وافقت سيرين.

ولكم عانتْ سيرين من هذا الوضع؛ لأنَّ جريج كان يحاول دائمًا أن يخفي عجزه أمام النَّاس. كان في الولائم يجلس قبل الجميع ويغطِّي رجليه بملاءة. في إحدى المرَّات همست لي سيرين أنَّه يشكو من كلّ شيء وأنَّه أصبح عصبيًّا بشكل فظيع، لقد حاول مرَّة أنْ يصفعها ولكنَّها تفادت الصَّفعة، فقلتُ ربَّما كان يغلي من الغيرة والغلّ، واقترحتُ على سيرين أنْ أتكلَّم مع جريج، فبهتت من الاقتراح وقالتْ لي: "لا يا حبيبي أرجوك"، فقلتُ لها: "جريج يتقبَّل النَّقد منِّي، سيتفهّم الأمر"، فقالت بحزن: "نعم، سيسمع ويتفهّم، ولكن أمامك فقط وبعد أنْ تذهب يخلص كلّ شيء منِّي، وربَّما يتهمّني بأنِّي أشكو لك من ورائه، ولربَّما اتَّهمني بأنِّي على علاقة معك"، فقلت لها: "لو فعل ذلك أنكري"، فقالتْ: "لا أعرف أكذب، وعلى أيَّة حال هو في حالة عصبيَّة شديدة لربَّما يتهجَّم عليَّ، فأرجوك لا تتكلَّم معه، أوعدني بهذا"، فوعدتها.

٢٨

بحلول ديسمبر ١٩٤١ أرسلت الحكومة مكتوبًا رسميًّا لسرِّي باشا بأنَّه سيتمّ مصادرة النَّصراني عن طريق الجيش في الأسبوع الأوَّل من فبراير، لذلك رتب سرِّي باشا زيارة أخيرة للنَّصراني يوم السَّبت ٣١ يناير قبل مجيء الجيش فيها.

لم يرغبْ جريج في الذِّهاب لصعوبة ذلك بالسَّيَّارة، وكان عليٌّ مشغولًا مع أصدقائه الضُّبَّاط، وأبي أبدى رغبته للذّهاب لولا استدعائه المفاجئ للسّفارة بشأن تصاعد موقف فاروق ضدّ الانجليز وكيفيّة الرَّدّ الدّبلوماسيّ.

لقد كنتُ مسرورًا في نفسي لهذا لأنِّي سأستطيع أن ألتقي بسيرين بدون وجود جريج وعليٍّ ولربَّما ذهبنا لسقَّارة. قبْل الذّهاب للنَّصراني جاءتني رسالة من سامية تفيد بأنَّها تريدني لأمر مهمٍّ يوم السَّبت، فاضطررتُ أنْ أذهب للنَّصراني لأوصل سرِّي باشا وشيفون وسيرين وجونوثان بسيَّارتي وأعود للقاهرة، ثمَّ أذهب لهم صباح الأحد.

لما عدتُ للقاهرة ذهبتُ لمنزلنا وقابلتُ أبي الذي شرح لي سبب عدم ذهابه للنَّصراني وسألني بدوره عن سبب عودتي من النَّصراني، فقلتُ له إنَّ سامية تريدني وسأذهب لها في سفنكس، فطلب منِّي أنْ يذهب معي رغبة في الفتاة الفرنسيَّة، ونوعًا من الحرص عليه ارتدى جلابيَّة مثل المصريين.

عندما دخلنا سفنكس لم تتعرَّف سامية في البداية على أبي، ولكن بعد ذلك عرفته ودعتنا للجلوس على طاولتها، وطلبت منَّا بعد ذلك أن ندخل البار الخلفي كأنَّنا زبائن، رغم أنَّها قالتْ لي: "ما أريد أنْ أخبركَ به لا

يستغرق دقيقتين"، وبعد أنْ قدّمت أبي للفتيات جاءتْ فتاة عارية الصَّدْر وحيَّته بالتَّحيَّة المصريَّة: "أهلًا وسهلًا"، فردَّ عليها أبي: "أهلًا بكَ"، نظر أبي حوله فرأى الرِّجال يجلسون على الطَّاولات وبعض الفتيات يجلسنَ على حجورهم بأوضاع مختلفة، فهمس لي أبي: "مكان رائع، أنا مبسوط لأنِّي جئت معك، أين سوزيت؟".

كانت التَّعليمات لسوزيت أنَّها ستقوم بصحبة مصريّ غير معروف، فجاءت عارية الصَّدر، بل كلّها عارية ما عدا قطعة صغيرة أعلى ركبتها. تركتُ أبي مع سوزيت وذهبتُ لسامية في مكتبها، وبينما أخبرتني عمَّا تريدني من أجله وهو ما يخصّ الجاسوس خوفو وعمليَّات التَّهريب، صاحت فجأة وهي تنظر من خلال المرآة التي في مكتبها: "يإلهي، مارك، أخوك جريج يدخل باب الكباريه"، فقلت لها بلهفة: "أبي هنا، تصرَّفي بسرعة".

قالت سامية: "سأروح للباب الخارجي وأشغله، واذهبْ أنتَ وأبلغ سوزيت لتصعد بأبيك للدّور العلويّ في إحدى غرف النّوم وألَّا تتركها حتَّى يذهب جريج".

سألت سامية عمَّا إذا كان جريج يصعد للدّور العلوي، فقالتْ لي: "كلّ ما يفعله يشرب شامبانيا ويمرح في البار الخارجيّ ويذهب، لعلمك الكلّ هنا يحبّه".

رأيت من خلال المرآة جريج وهو على الكرسيّ المتحرِّك ويحاول الدُّخول، وسامية تقدَّمت له ودعته لكاس شامبانيا. أخبرت أبي بأنَّ هناك شخصًا يجب ألَّا نراه ولا يرانا وأنَّه يجب عليه أنْ يصعد مع سوزيت حتَّى يرحل هذا الشَّخص. وصَّلتُ أبي للسلّم وأخبرته أنَّ سامية سترسل له

سيَّارة خاصَّة توصله للمنزل عندما يحين الوقت، ووقفت حتَّى صعد مع سوزيت ورجعت لمكتب سامية.

رتَّبت أنْ أذهب للنَّصراني في الصَّباح الباكر، فاستيقظتُ السَّاعة السَّابعة، وأبلغني زولا أنَّ أبي يريدني أنْ أفطر معه، فمررتُ عليه وكان يلتهم البيض المقليَّ التهامًا، وطلبَ منِّي الجلوس لأتناول معه الإفطار، وصف لي أبي ما حدث معه قائلًا: "لقد تركتُ الكباريه السَّاعة الخامسة صباحًا، وأحضرتْ لي سامية وجبة دسمة وشامبانيا والتفَّتْ حولي البنات بنصف ملابسهنَّ وكلّ واحدة طلبت منِّي أن... أنت تعرف ما أعني"، وضحكنا معًا وكأنِّي نسيت أنِّي أتحدَّث مع أبي وأنْ زوجته هي أمِّي، ولكن حسبي أنَّ كلَّ ما حدث كان بنيَّة طيّبة ولم نخطّطْ له.

٢٩

وصلتُ النَّصراني في موعد الغداء، وبرغم أنّنا حاولنا أنْ نكون مرحين إلَّا أنَّ جهلنا بوقت انتهاء الحرب جعلنا نشعر بأنَّنا نودِّع أقارب لنا للأبد. لقد بدت الحرب وكأنَّها ستدوم سنين طويلة وأنَّ العالم سيتغيَّر.

إنَّ الحكومة متى وضعت يدها على قطعة أرض لا تتركها أبدًا.

بعد وصولنا لأرض النَّصراني الخصبة بعد الطَّريق الصَّحراوي شعرنا بأنَّنا وصلنا بيتنا؛ لأنَّ النَّصراني ارتبطت بحياتنا بكلِّ ما فيها من أبراج حمام، وأشجار النَّخيل التي تحيط غيطان الفول، وأشجار الورد التي كان يبيعها سرِّي باشا للعطَّارين، لقد كان سرِّي باشا يمتلك أكثر من خمسمائة فدَّان من النَّخيل مرصوصة كالجنود ولها ارتفاع محدّد بسبب الضّرائب المفروضة على ارتفاع النَّخيل، كان محصول النَّخيل من البلح وفيرًا جدًّا، وكان الجريد يُسْتَخْدَم في الأسقف والأسرَّة والمراوح والسّلال.

قلتُ لسيرين حينما أوقفنا السَّيَّارة لكي ينزل جونوثان ليلعب في حقول البرسيم: "ماذا سيفعل سرِّي باشا بعد أخذ النَّصراني؟"، فقالتْ: "لا أستطيع التَّفكير في هذا، النَّصراني تعتبر قلب بابا، ثُمَّ ماذا سنفعل مع هؤلاء العمَّال الغلابة؟".

كان الفلَّاحون من حولنا، كبارًا وصغارًا، يعملون في حقول الطَّماطم والبطاطس والخيار والبطّيخ والأناناس، يعزقون الأرض بالجاروف والمسَّاحَات.

ونحن في السَّيَّارة قالت: "العالم من حولنا ينهار"، فقلت: "ماذا لو أنَّ الألمان كسبوا الحرب؟ أين المفرّ لي، فجريج متزوِّج من مصريَّة"، فقالتْ

بمرارة: "أمريكا، آه يا عزيزي أنا قلبي معك، لو أنَّك غير متزوِّج لكنت جازفت وتطلَّقت، ولكن بارمي!"، فقلتُ: "بالمناسبة وصلني منها خطاب"، فقالتْ بلهجة غاضبة: "لم تقل، لماذا؟"، فوضعتُ يدي على يدها: "لم أقرأه، لقد وصل فقط بالأمس، كما تعرفين نحن متزوِّجان في كلِّ شيء إلَّا الورق، لذلك افتحيه واقرأيه بصوتٍ عالٍ". وضعت الخطاب في شنطتها وقالت: "لما نصل المنزل".

بينما كنتُ أشرب الويسكي والصّودا بعد الغداء بدأت سيرين في قراءة الخطاب: "عزيزي مارك، لقد مرَّ وقتٌ طويل لم نلتقِ، أعلم أنَّ الحرب لها آثار سلبيَّة، ولكنَّ أمريكا بلد غني، إنَّها تمدّ بريطانيا بالمؤن، فإذا كنت تريد أي شيء يمكنني إرسالها لك. أتمنَّى بعد انتهاء الحرب أن نلتقي مرَّة ثانية، الزَّمن يداوي كلّ الجراح". ردَّدتْ سيرين جملة "الزَّمن يداوي كلَّ الجراح"، وهي تسخر قائلة: "ربَّما فارقها صديقها؛ لذلك تريد أنْ ترجعَ لك"، فضحكت: "مستحيل، هيَّا بنا سنذهب سقَّارة".

لم تتغيَّر منطقة سقَّارة، ولكن لم يكن معنا أي مشروب، قبّلتها بلطف وحاولتُ أنْ أتكلَّم بدون اشتهاء: "هنا بدأنا، تذكرينَ ١٩١٩، ولما أصبنا بالتَّيفود معًا".

جلسنا على السّلّم الخشبيِّ في الرِّست هاوس، والنَّخيل يلقي بظلاله واستأنفتُ: "لقد وعدتكِ بأنَّه مستحيل أنْ أعود لبارمي، ولكن أريد منكِ شيئًا"، فسألت: "وما هو؟"، فقلتُ بحزم: "طلِّقي جريج"، فردَّتْ: "طلاق؟! لا أجرؤ، أسرتنا".

فرددتُ عليها بعد أنْ جلستُ أمامها وأمسكتُ بيدها: "لازم، أنا جاد، لابدَّ أنْ تطلِّقي جريج، وبعد فترة مناسبة نعيش معًا على المرأى،

نتزوَّج أمام الله"، فقالتْ: "وأسرتنا؟"، فقلتُ: "في البداية سينهارون ولكن بعد ذلك سيقبلون"، فهمست: "لن يقبلوا ولن يسامحونا أبدًا"، فقلتُ: "سيقبلون، لا تنسى أنِّي محامٍ وعملت في قضايا مشابهة وكسبتها، يجب أنْ تقومي بالطَّلاق الآن". قالت: "لماذا الآن؟"، فقلتُ لها: "لأنَّكِ تعيشينَ في حالة يُرثى لها، والحجج الآن أقوى ضدّ جريج".

فقالتْ بمسحة حزن: "لكَ حقٌّ، لقد قلت ما كنت أريد أنْ أقوله من مدَّة، وخصوصًا الأسبوع الماضي"، فسألتُ مستهجنًا: "لماذا الأسبوع الماضي، هل ضربكِ؟"، فقالتْ بابتسامة حزينة: "ليس بالضَّبط، ولكن أهانني، تصوَّر اتَّهمني أنا و"فاروق" بأنَّنا على علاقة"، فانفجرتُ ضاحكًا :" أكيد مجنون"، فقالت: "وأنا أيضًا ضحكت، ربّنا يعلم كم حاول فاروق. لكن بعد ذلك نزل جريج بالمصعد وفي يده مقصّ"، فقلتُ منزعجًا: "هاجمك؟ هلْ كان سكرانًا؟"، فقالتْ: "نعم، كان سكرانًا، ولكن لم يرد أنْ يهاجمني، بل مزَّقَ البورتريه الخاصّ بي الذي أراد أنْ يشتريه فاروق، اللوحة التي كانت لك، وصرخ في وجهي المرَّة القادمة أريه ما فعلت، يا عاهر".

كانتْ لاتزال تبكي فملتُ عليها وقبَّلتها: "دعيني أخبر جريج"، فقالتْ: "لا، أنا سأقول له، أنا لستُ جبانة، وسأحذر حكمت من أيِّ عنف ربَّما يحدث إذا سكر جريج"، وكانت حكمت بنت مربية سيرين تعمل في فيلَّا زلفي منذ أنْ سكنوا فيها.

بعدما رجعنا للنَّصراني كان البيت كلّه مظلمًا فهمست لها: "سأرتدي روب النّوم وآتي لغرفتك"، فهلّلت فرحًا. الآن بعد أنْ قرَّرت سيرين الطَّلاق شعرنا بأنَّ عبئًا ثقيلًا انزاح من علينا، نمنا معًا وقد حضنَّا بعضنا

البعض، وكان آخر شيء سألتها عنه هو موعد تنفيذ قرارها فقالت: "بمجرَّد وصولنا القاهرة، سنغادر من هنا الثُّلاثاء، فالأربعاء سأقوم بالتَّنفيذ"، وأضافتْ مازحة: "سأكتبُ في يوميَّاتي التي لن تراها أبدًا، الأربعاء ٤ فبراير طلَّقت جريج وسأعيش مع مارك للأبد".

٤ فبراير! هو يوم مشهود ليس لنا فحسب، بل لفاروق وعبد النَّاصر ولكلِّ مصر.

٣٠

استيقظتُ يوم الأربعاء بشعور غريب عن أخبار سيِّئة في الطَّريق رغم أنِّي لم أحدِّد ما هي بالضَّبط.

بعد أنْ أحضر لي زولا قهوة الصَّباح أخذتُ أتصفَّح الجازيت، فلمحت احتلال اليابان لمانيلا وغزوها لبورما، وأنَّ سنغافورة في طريقها للاستسلام، وأنَّ العنف الألمانيَّ في القرم ضدّ الجيش الرُّوسي مستمر بلا هوادة. ياله من يوم كئيب!

أخذت دوشًّا وارتديت ملابسي بسرعة واتجهت لمركز القيادة وطلبت مقابلة القائد مونسون لمدَّة ثلاثة دقائق. كنتُ أريد اليوم إجازة لكي أتواجد مع سيرين، ولكن القائد مونسون اعتذر عن هذا اليوم شارحًا الأسباب بأنَّ هناك احتمالًا قويًّا لضرب القاهرة بما فيها قصر عابدين، ولكن عندما شرحتُ له وضع سيرين اقترح عليَّ أنْ أظلَّ في المنزل، ولكن تحت أهبة الاستعداد في أيِّ لحظة يتَّصلْ بي، وألَّا أذهب لسيرين ما لم تتَّصِل هي بي، وأعطيته رقم التّليفون الخاصّ بفيلَّا زلفي.

جاء صوت التّليفون مزعجًا فأسرعت لكي أردّ، فإذا بصوت حكمت يأتيني "مصيبة"، فوضعت سمَّاعة التّليفون بسرعة وانطلقتُ بسيَّارتي السّيدو، والكلاكس لا ينقطع وأخذتُ أراوغ السَّيَّارات والعربات الكارو والحمير حتَّى وصلت فيلَّا زلفي. ما رأيتُ كان مروِّعًا، جريج يحتجز سيرين وحكمت بالدَّاخل أمام بئر السّلّم ويمنع سيرين من النُّزول بكلِّ ما أوتي من قوَّة وهو يصرخ بصوتٍ مرتفع: "أنتِ تريدين الطَّلاق من هولت يا عاهر".

كان جريج في حالة هياج شديدة، حتَّى أنِّي لم أستطع الاقتراب منه، وكلَّما حاولتُ أنْ أساعد سيرين للنّزول من السّلّم الذي يسدّه بالكرسي فشلت، وعندما حاولت حكمت أنْ تشغله بالمكنسة استطاع أنْ يأخذها منها ويضربها بها حتَّى أنَّها انكسرت.

حاولتُ أنْ أهدئه فكان يصيح: "ابعد عن طريقي"، فرأيتُ أنْ أستفزّه وأغيظه لكي ينصرف عن سيرين وينشغل بي: "أنت سكران"، فردّ: "لازم تسكر لو أنَّ زوجتك تزني مع مصري حقير"، فصحت: "اتركها لشأنها"، فاشتدَّ به الغضب: "اخرج من بيتي"، وكأنَّه لا يدري مَن أنا.

حاولتُ أنْ أبعده عن طريق سيرين، ولكن أثناء ذلك خبطت رجله المريضة، فهاج من الغضب أو الألم لا أدري، وبدأ يدفع بكرسيّه باندفاع نحوي وكنتُ أروغ منه، وأثناء ذلك استطعت أن أمكِّن سيرين من النّزول من السّلّم فاستدار جريج بالكرسي بجنون وكانت أصابعه تفقد توازنها في التَّحكُّم بالكرسي.

في لحظة رأيتُ الكرسي يتأرجح ويتساقط من درابزين السّلّم، واختلط صياح جريج بصوت ارتطام الكرسي.

لا أتذكَّر مَن كانَ الأسبق لجريج الذي صار كومة من عظام، الخدم كلٌّ خرج من مكانه، وسيرين لا تتوقَّف عن الصِّياح والهيستريا: "أنا السّبب"، فحاولت أنْ أهدِّئها وأنا أغالب الدّموع، إنَّه جريج الشَّاب الرِّياضي سيِّئ الحظّ الذي واجه الحادث في طريق اسكندريَّة، وأصبح قعيدًا، بالإضافة لمتاعب قلبه فلا عجب أنْ لجأ للزّجاجة ليدفن فيها همومه.

طلبتُ من سيرين أنْ تذهب بعيدًا في حجرة الرَّسم لكي أبعدها عن منظر الدَّم والجسد المسجّى ولكي أنتهي من بعض المكالمات. رغم التَّدريب الذي أخذته للتَّعامل مع حالات الموت المفاجئ نتيجة الحوادث إلا أنَّني لم أستطع أن أفعل شيئًا فإنَّه أخي.

اتَّصلت بالدّكتور فيليب وأبلغته بما حدث، واتَّصلت بأبي وقلتُ له: "جريج سقط من أعلى السّلّم، والقدر، هل تستطيع أنْ تبلغ شيفون؟"، فسمعتُ صوته متحشرجًا ومخنوقًا بالدّموع: "سأبلغها".

جلستُ مع سيرين أواسيها وأفهمها في الوقت نفسه أنَّه قد يتمّ استدعائي في أيّ لحظة فالمفروض ألَّا أكون هنا.

طلبتُ من أحد الخدم زجاجة براندي، حاولتُ أنْ أنفرد بسيرين في الحديقة، ولكن لم أجرؤ أنْ أبتعد عن التّليفون، بعد أنْ تجرَّعت الكاس الثَّانية استطعت أنْ أقول لسيرين: "ما حدث رحمة لجريج، بصرف النَّظر عنَّا فبالنِّسبة لأبي وأمّي فهو أيضًا رحمة بدلًا من أن يصبح مدمنًا، وربَّما أسوأ. المفروض أنَّ الكلَّ يعرف أنَّ ما حدث كان حادثة ولا تذكري أبدًا أنَّكِ طلبتِ الطَّلاق، فمن السّخرية أنَّه إذا جهل أهلنا الحقيقة فإنَّ الأمر بيننا سيكون سهلًا"، وقبل أنْ تنطق بكلمة رنَّ جرس التّليفون وكنتُ متأكّدًا أنَّها القيادة.

أخذتُ سمَّاعة التّليفون وقلتُ: "نعم، يا فندم، سأكون حالًا في القيادة"، وطوّقت سيرين بذراعي وقلت لها: "تماسكي ولا تفكّري في الماضي، ولكن فكّري في المستقبل فهو أملنا الوحيد".

٣١

في خلال خمس دقائق من وصولي القيادة دعا مونسون خمسة من المساعدين المقرَّبين في القيادة لغداء عمل. نظر لي أحد الموجودين نظرة استغراب وكأنِّي كنتُ أبدو لافتًا للنَّظر، فيدي كانت عليها آثار دم مسحته بمنديلي، وربطة العنق كانت مفكوكة، وكان يبدو عليَّ الأرق والقلق.

لما جاء القائد مونسون أبلغته وجميع الضّبَّاط الموجودين بما حدث لأخي، فواساني وقال لي: "وجودكَ ضروريٌّ جدًّا ولو الأمر في يدي لجعلتك تذهب، ولكن الأمر فعلًا في منتهى الخطورة"، فقلت: "تحت أمرك سيِّدي"، وكنتُ أعلم أنَّهم فكَّروا في أنَّ وجودي معهم أفضل من الذّهاب لموقع الحادث.

شرح لنا القائد مونسون ما هي المهمَّة السِّرِّيَّة المسندة لنا، وما هي الأخبار التي ننتظرها قائلًا: "ما سأقوله سرِّي جدًّا لا يتعدَّى أذنكم، فالأمر أنَّنا سنحيط في ساعة الصّفر قصرَ عابدين ونجبر جلالته على التَّنازل عن العرش، فالسَّفير أعطى الملك مهلة لغاية السَّاعة التَّاسعة مساءً اليوم، فإمَّا يشكِّل حكومة برئاسة النَّحَّاس باشا، وإمَّا سيتنازل عن العرش وإذا استلزم الأمر ستدخل الدَّبَّابات البريطانيَّة قصر عابدين".

لقد كانت مصر مملوءة بالمتعاطفين مع أنصار المحور؛ فالطَّلبة يسيرون بلافتات "يعيش روميل"، وأخرى "نحن جنودك يا روميل". كان فاروق، ٢٢ سنة، يريد تعيين مناصر للألمان بشدَّة، علي ماهر، رئيسًا للوزارة، ولكنَّ السَّفير البريطانيّ، سير ميلز لامبسون، حذّر فاروق وأبلغه

بضرورة تعيين رئيس الوفد، النَّحاس باشا، رئيسًا للوزارة، رغم أنَّ "فاروق" كان يكره النَّحَّاس، وإلَّا يتحمَّل العواقب.

رفض فاروق التَّحذير بفتور، ولكن لما أيقن أنَّ ميلز لا يخادع وأنَّه جادٌّ حاول أنْ يصدر تعليمات بتشكيل حكومة ائتلافيَّة برئاسة النَّحَّاس باشا آملًا أنْ يُرضي هذا بريطانيا، ربَّما هذا يُرضي بريطانيا، ولكنَّه لم يرضِ النَّحَّاس الذي كان يصرّ على أنْ تكون الحكومة كلّها من حزب الوفد.

قال لنا مونسون: "لاشكّ أنَّ النَّحَّاس هو الوحيد القادر على بسط السَّيطرة على مناصري الفاشية، ويخدم مصر من خلال خدمة بريطانيا، وبالطَّبع هو يمثل خطرًا على فاروق مثلنا تمامًا". بعد ذلك أخذ مونسون يشرح لنا تفاصيل الخطّة، فهناك إحساس بالفطرة أنَّ الخطر سيُداهم مصر في الفترة المقبلة، وزادتْ مسيرات الطُّلاب حول قصر عابدين يرفعون لافتات "فليسقط الانجليز"، "يعيش الملك".

قبل ساعة الصِّفر بنصف ساعة وهي التَّاسعة، أحاطت كتيبة من الجنود المسلّحين قصر عابدين. وهناك أربع دبَّابات جاهزة للتَّحرّك لميدان عابدين. وصل السَّفير للقصر مصطحبًا سريَّة من الضّبَّاط شاهري مسدّساتهم، وكان لابدَّ من مصاحبة المخابرات فتمَّ اختيار اثنين من الضّبَّاط ليصحبا السَّفير، أنا وأحد الضّبَّاط، وقال لي مونسون أنَّ سبب اختياري هو معرفتي للملك والسَّفير ولمعرفتي التَّحدُّث باللغة العربيَّة جيّدًا وأيضًا لأنَّ فاروق يعرفني شخصيًّا.

انطلقنا في سيَّارتنا المدرّعة المموّهة وراء أربع دبَّابات أمريكيّة الصُّنع اتجهت من الشَّارع الخلفي لتواجه بوَّابات القصر، وانتظرنا لحين وصول السَّفير.

في تمام السَّاعة التَّاسعة وصل السَّفير لبوَّابة القصر مسبوقًا بسيَّارة مدرَّعة انتظرت حتَّى يتمَّ فتح البوَّابة، بعد أنْ دخلت السَّيَّارة تبعناها حتَّى باب القصر الدَّاخلي. لم يقم الحرس بأيّ مقاومة وتمَّ نزع السِّلاح منه بسرعة.

حينما وصل لامبسون لبداية الممرّ المؤدِّي لمكتب الملك استوقفه حاجب الملك، وسمعته وهو يترجَّى السَّفير وكاد يبكي: "لا سيّدي السَّفير، ليس بالجنود".

كان لامبسون ضخم الجسم، وكان يكره "فاروق" فلم يكلِّف نفسه بالرَّدِّ على الحاجب ودخل مباشرة لمكتب فاروق، حجرة كئيبة مصطفَّة بالكتب الجلديَّة، واللون البنيّ الغامق هو السَّائد مع وجود بعض التّحف تملأ الفراغات في الأرفف، هذه هي اللحظة الحاسمة التي ستحدِّد مستقبل مصر لعدّة سنين.

كان فاروق جالسًا خلف مكتبه الضَّخم، بادره السَّفير لامبسون بنظرته العدوانيَّة: "جئت لأعرف ردَّ جلالتكم". نظر فاروق حوله وأعطاني ابتسامة خفيفة، وبدأ لامبسون يقرأ من ورقة سبق صياغتها متَّهمًا الملك بانتهاك معاهدة ١٩٣٦، وذلك بتشجيع السّياسيين المعادين لبريطانيا والذين يعلنون مناصرتهم للألمان بتولِّي المناصب العليا، وأضاف لامبسون: "إنَّكم أسأتم للدّيمقراطيَّة بعد تعيين الحكومة التي تحظى بشعبيَّة جارفة مما يسبّب خطورة على أمن مصر".

لعلَّ لامبسون استشعر بالتَّردّد من جهة فاروق، فلم يقدِّم له صيغة التَّنازل بأدب، ولكنَّه رمى بالورقة على المكتب باحتقار، لقد كانت الصِّيغة

مخطوطة بكلمات مونكتون الذي خطَّ وثيقة مشابهة للملك إدوارد الثَّامن والذي تصادف وجوده في القاهرة في ذلك الوقت.

تناول فاروق الوثيقة باشمئزاز، ونظر ليبدي ملاحظة عجيبة لا تتناسب مع الظُّروف: "ما هذه الورقة القذرة؟". في الوقت نفسه تناول قلمًا ليوقِّع على الوثيقة التي ستنهي فترة حكمه، فجأة غيَّر رأيه وكأنَّه شعر بالإهانة لمعاملة لامبسون له، ورمى بالقلم وقال ببرود: "سأرسل للنَّحَّاس لتشكيل الحكومة باختياراته، انتهت المقابلة".

نظر لامبسون باندهاش، ولم أمتلك إلَّا الإعجاب بجسارة فاروق وهو يدير لنا ظهره تاركًا الحجرة دون أنْ يلتفت، ولم يمتلك لامبسون إلَّا الخروج ونحن وراءه، لقد تصرّف برغم أنَّه ٢٢ سنة تصرّفًا بكرامة لم أصدّق أنَّه ممكن أنْ يفعل ذلك.

لم يكن، من وجهة نظري، لامبسون مناسب لتلك الفترة، فقد صار في الفترة الأخيرة أكثر ترهُّلًا، وسهل على الصُّحف التي تكرهه أنْ تنتقده، لقد أحسست كما فعل سرِّي باشا بأنَّه كان من الأفضل أنْ تأخذ يد فاروق بالأدب بدلًا من أن يصفع على الملأ، وهذا ما لن تغفره مصر أبدًا، فهي نقطة تحوّل.

لقد لخص عبد النَّاصر ما حدث عندما قابلته بعد عدَّة أيَّام، وكان قد ترقَّى لرتبة نقيب وانتقل للقاهرة، حيثُ واتته الفرصة بأنْ يختار الضّبَّاط المتعاطفين معه، إذْ إنَّه قال لي: "أعرف أنَّ تفهم العقليَّة العربيَّة وماذا تفعل في الحرب، ولكن الطَّريقة التي تعامل بها لامبسون المترهّل ليست لائقة، أليس كاتبك توماس كارليل القائل بأنَّ السّلوك هو الرّجل؟ إنَّكم لن

تفلتوا بعد أنْ بصقتم على رأس الدَّولة"، وأضاف بتهكُّم"، حتَّى لو كان مجرَّد عربي فهو لازال ملكًا".

بعد بضعة أيَّام من مواجهة عابدين استقرَّ عبد النَّاصر على اسم الضّبَّاط الأحرار" وقال لي: "لقد أعطانا لامبسون الفرصة على طبق من فضَّة، فإذا، بل عندما يتولَّى الضّبَّاط الأحرار حكم مصر سنتقدَّم بالشّكر للامبسون. فكلُّ واحد في مصر يعرف كيف أهانَ ملك مصر، يعني مصر، وهذا أعطانا الشَّرارة التي نحتاجها"، وأضاف بابتسامة نادرة: "يومًا ما سنستعيد قنالنا، والفضْل يرجع للامبسون الحقود الذي أعطانا الحياة".

٣٢

مرَّت الشُّهور ودخلنا في صيف ١٩٤٢، وفي يوليو احتلَّ روميل العلمين، على بعد ساعتين من اسكندريَّة، وقد اقتربت دوريَّة من برج العرب أقرب لاسكندريَّة. كانت القوَّات المدمّرة على استعداد لضرب المواقع في الميناء بعد أنْ ذهب الأسطول البريطانيّ بحثًا عن مواقع أفضل في البحر من اسكندريَّة التي أصبحت مهدّدة.

لقد كانت الصّورة على المستوى العالميّ قاتمة، فلو وقعت اسكندريَّة ستقع مالطا، وبالتَّالي مواقعنا في البحر المتوسِّط، وبتحكّم الألمان في قناة السّويس أصبحت الهند مهدّدة من اليابان في الشَّرق ومن الألمان وإيطاليا من الغرب.

عاشت القاهرة مرَّة أخرى في رعب، ولم يستطع البوليس أنْ يحافظ على نظام الشَّارع الذي صار مكتظًّا باللاجئين، فمعظم العائلات الانجليزيَّة بدأت تنزح لمصر. رأيت على بعد أعمدة الدّخان تتصاعد من السِّفارة البريطانيَّة حيثُ كانوا يحرقون المستندات السِّرِّيَّة.

فجأة كانت هناك فترة هدنة، والسَّبب أنَّ روميل لم يستطع الاستمرار في مواصلة الحرب نتيجة للإرهاق النَّاجم عن هجومها السَّريع المتواصل رغم أنَّهم كانوا يستطيعون دخول اسكندريَّة في يومين. لقد أعطتنا هذه الهدنة الفرصة لالتقاط الأنفاس ولتستعيد بريطانيا قوّتها. إنَّ سقوط اسكندريَّة الوشيك لم يتحقَّق، وعاد الهدوء للقاهرة وفتحت المحلَّات أبوابها مرَّة ثانية.

لم أواجه أيَّ معاناة في شراء هديَّة لعيد ميلاد سرِّي باشا، وهي عبارة عن خمسين سيجار هافاني من محلّ عمار في قصر النِّيل، لقد تمَّ تخفيض أسعار عشاء القدَّاس في نادي الواترلو والخاصّ بضبَّاط المفوَّضيَّة. ويمكن بعد العشاء أنْ ترى همفاري بوجارت في "كله خلال الليل" في متروبول.

بدأت الجازيت تنشر إعلانات عن المحلَّات، فهناك إعلان عن وصول الدّكتور ليفي لينز كبير أخصائي جراحة التَّجميل من الخارج، وهناك إعلان عن محلَّات أوروسيدي باك للمفروشات والأثاث في شارع عبد العزيز.

مازال موت جريج المأساوي في الذَّاكرة، وأكثر ألمًا بالنِّسبة لأبي وشيفون عنها من سيرين أو أنا؛ لأنَّنا على الأقل نعرف حقيقة ما حدث. كان العزاء الوحيد لهم أنَّ جريج ارتاح من عذاب العجز الذي أصابه وحياته على الكرسي المتحرِّك.

خلال هذه الشُّهور كنَّا نتقابل أنا وسيرين أحيانًا في الشَّقَّة السِّرِّيَّة وأحيانًا في فيلَّا زلفي التي أصرَّت على الاحتفاظ بها، وحيث كان كلّ الخدم يبيتون خارج الفيلَّا ما عدا حكمت التي صارت مربّية لجونوثان.

في الليلة التي كنتُ أريد خلالها أنْ أذهب لسيرين متأخِّرًا كانت ترسل حكمت وجونوثان لجدّته، وكنَّا نلجأ لهذا بسبب استدعاء تيدي للاسكندريَّة وخوفي من الذّهاب للشَّقَّة في عدم وجوده لكي لا يراني أحد من الجواسيس الذين صاروا في كلّ مكان.

أحيانًا كانت سيرين تمكث هي وجونوثان وحكمت في منزلنا، وكنَّا نحاول استبعاد الذِّكرى المؤلمة بالعمل المتواصل، وبالنِّسبة لها بالرَّسم المستمرّ. كنَّا ننتظر الأيَّام لنعلن تواجدنا معًا، وكانت تقول: "إنِّي أشتاق

لهذا اليوم أكثر منك، ولكنَّ الانتظار كما يقول الشَّاعر "الألم اللذيذ"، وفي الوقت نفسه إنْ شعرت بها لم يقل الشَّاعر، بالإثارة، فهناك دائمًا فيلَّا زلفي".

كان لسرِّي باشا همومه الخاصَّة به، فخسارة النَّصراني بالنِّسبة له كبيرة جدًّا، ليس من النَّاحية الماليَّة فحسب، رغم أنَّ المحاصيل كانت تعطي أكثر من مائة ألف جنيه سنويًّا، ولكنَّ الأفدح الخسارة المعنويَّة المتمثِّلة في التَّاريخ، وإنْ كانوا وعدوه برجوع النَّصراني بعد انتهاء الحرب، إلَّا أنَّ الوعود لا تتحقَّق عند السِّياسيّين نظرًا لتغيرهم وتمزيق الاتفاقيَّات.

الأسوأ من هذا حسب ما قاله سرِّي باشا: "من أيَّام جدِّي لم نضطر أنْ ننزل ونشتري خضرواتٍ ولحومًا وسمكًا".

كان في إمكان "فاروق" أن يتدخَّل، بل سمعتُ أنَّ "صادق" شجَّع الملك للموافقة على المصادرة.

إنَّ مواجهة عابدين غيَّرت الملك كثيرًا، فصار يتصرَّف بتوتُّر وأكثر غضبًا. فكان في بعض الأوقات يسير بسيَّارته السّيتروين حول ميدان الأوبرا وبوق سيَّارته المقلِّد لنباح الكلب يعلو لدرجة أنْ يسمع في دار الأوبرا.

في مرَّة من المرَّات كان مدعوًّا في شقَّة في الزَّمالك، فخرج في الشُّرفة المطلَّة على النِّيل بعد أنْ طلب من أحد الخدم أنْ يأتي له بالكابات الخاصَّة بالانجليز، وأخذ يطلق عليها الرّصاص كأنَّه يصطاد دُمًى من الحمَّام، وفي مرَّات أخرى كان كما يقول هو: "مفعم بالمتعة والحيويَّة كما كنت في انجلترا".

في مناسبة من المناسبات كان أربعة من الضّبّاط يسيرون بسيّارتهم متّجهين لسفنكس، فتعطّلت بهم السّيّارة، فمرَّ عليهم فاروق بسيّارتهم، وكانوا لا يعرفونه، فعرض عليهم أنْ يأخذهم معه، وفي الطّريق سألهم عن رأيهم في البلد والملك، فعبَّروا عن هذا بأغنية قصيرة على لحن شعبيّ يردّد في المعسكرات من السّاحل للسّودان؛ فاروق "فاروق" الملك ــ نصّاب دنيء ــ وهو يسير في بدلته التي تساوي خمسين شلنًا، أمَّا الملكة فريدة سعيدة لأنَّها في طريق الوضع. لما وصلوا جميعاً لسفنكس دخل الضّبّاط أوّلًا ثمَّ دخل هو وطلب من إحدى الفتيات أنْ تقدِّم لهم زجاجة شامبانيا، فقدَّمتها لهم: "تحيَّة لكم من جلالة الملك!".

في بعض الأحيان كان يبدو مجنونًا حينما يقود سيَّارته ليلتقط البنات من الشَّوارع في الليل كانت تحدث كوارث عندما لا يتعرَّف عليه النَّاس، في أحد المساءات هاجمه قطَّاع الطُّرق في طريق الجيزة بعد أنْ قتلوا امرأتين، وعندما جاء عليه الدّور قال زعيم العصابة: "دعوا هذا الخنزير المرهل يمرّ، فهو لا يستحقّ رصاصة"، ونجا فاروق من الموت، في غضون ساعة كان البوليس قد جاء بالعصابة وتمَّ إطلاق النَّار عليهم في الحال ما عدا الزعيم الذي جلدوه مائة جلدة لشتيمته للملك، ثمَّ أعطاه وهو ينزف فاقدًا للوعي ألف جنيه لأنَّه أنقذ حياته.

طلبَ سرِّي باشا من سيرين أنْ تترك القاهرة وتعيش في أسوان، حيث الهدوء، وبعيدًا عن نزوات الملك التي يعرفها سرِّي جيّدًا، وسألني ونحن على الغداء: "ألا تتَّفق معي؟ فأنت تعرف ماذا فعل الملك ساعة اللوحة"، فقالتْ سيرين: "هذا الأمر انتهى، فمنذُ أنْ مات جريج من حقِّي أنْ

أعيش حياتي الشَّخصيَّة"، فقالتْ مدام سرِّي: "إنَّه ينصّ على قوانين خاصَّة به، أليس هذا خطرًا؟".

فأومأت موافقًا؛ لأنَّ سرِّي باشا محقّ؛ لأنّه إذا استمرَّ الملك في دعوة سيرين لقصر عابدين سوف تتعرَّض لمشاكل وإذا أصرَّت في الرَّفض ربَّما تصل المشاكل لعائلتها ولاسيَّما في وجود صادق، وفي الوقت نفسه سفر سيرين لأسوان سيكون صعبًا عليَّ؛ لذلك قلت مضيفًا: "لا أظنّ الملك سينزل لهذا المستوى"، فضحكتْ سيرين: "شكرًا جزيلًا" متعمّدة عدم الفهم، فقالتْ مدام سرِّي: "هذا الخنزير ممكن يفعل أيّ شيء"، وزجر سرِّي قائلًا لي: "أتمنَّى أنْ تكون على حقٍّ".

بعد ثلاثة أسابيع ذهبت اسكندريَّة لعدَّة أيَّام، ولما عدتُ اتصلتُ بسيرين لنذهب للشَّقَّة، ولكن عرفتُ أنَّ تيدي سافر للقنال، فاقترحتُ عليها الذّهاب لشبرد قائلًا: "افتقدتكَ جدًّا"، فاعتذرت قائلة: "اليوم عيد ميلاد ماما ١٠ يوليو ووعدتها بتناول العشاء، وأنت ستأتي"، فقلتُ: "أنا تعبان، وكنتُ أودُّ أنْ أنام في حضنك، سأتناول العشاء في الميس وأقابلك غدًا"، فقالت والفرحة على وجهها: "لا أستطيع أنْ أنتظر لغد فلست وحدك الذي تشتاق للآخر"، فسألتها: "هل لديك رغبة؟ إذًا سأحضر"، فقالتْ: "لا، جاءتْ لي فكرة حلوة، سأترك العشاء مبكِّرًا، وأترك جونوثان وحكمت هناك وأذهب للفيلَّا، وأنت معكَ المفتاح، سنلتقي هناك، حوالي السَّاعة العاشرة والنِّصف".

كلّ شيء جاء على غير المتوقّع، فقد استدعتني القيادة أثناء تناولي للعشاء في الميس، عندما عدت كانت السَّاعة تجاوزت منتصف الليل، فذهبت للفيلَّا ورننت الجرس ولكن لم يرد أحد، فهل سيرين نائمة؟ وإن

كان فنومها ليس عميقًا، أم أنَّها لاتزال عند والدتها؟ أيضًا هي ليست من النّوع الذي يأتي متأخِّرًا. إذًا ماذا حدث؟ يجب أنْ أفتح بالمفتاح، فلمَّا فتحت كانت هناك مفاجأة لم أتوقَّعها.

لقدْ كان جالسًا على الكرسي في المدخل رجلٌ في زيٍّ رسميٍّ وفي يده مسدَّس، إنَّه عثمان صادق، بادرني بهدوء: "اخرج بهدوء كما دخلت في هدوء"، ووجَّه المسدّس في وجهي، تقدّمت خطوتين: "ماذا تفعل هنا؟ وأين سيرين؟"، هزَّ مسدّسه ووجهه أكثر: "تتمتع مع الملك، واشكر الحظّ أنَّ الباب مانع للصّوت، اخرج وإلَّا أطلقتُ عليكَ الرَّصاص".

كنت متيقِّنًا أنَّه لن يطلق الرَّصاص خوفًا من الفضيحة التي يمكن أنْ تحدث، ولم أعتقد للحظة أنَّ الملك يغتصب سيرين وإلَّا صرخت، نعم، الباب مانع للصّوت ولكن ليس لدرجة الصّراخ، ربَّما تروِّضه وتعامله كطفل.

أخذتُ أفكِّر ماذا أفعل، وهل يعرفون عنِّي وعن سيرين والشَّقَّة السِّرِّيَّة شيئًا، وهل كانوا يراقبونني في المجيء للفيلَّا أو يعرفون شيئًا عن المفتاح السِّرِّي؟ كلّ هذه الأسئلة خطرت على بالي.

لما انفتح باب المكتب ظهرتْ سيرين في فستانها الحرير الأزرق المفضَّل لي، وسمعتُ صوتًا في الدَّاخل لرجل تبيَّنت أنَّه فاروق، وكنت منتظرًا أنْ يغفل صادق لحظة لكي أسلبه المسدّس.

لمحتني سيرين فغمزتْ لي بإشارة من فمها تعني اختبئ، وحانت الفرصة لحظة نظر صادق لسيرين فأسرعتُ وأسقطتُ منه المسدّس، ولكن خفتُ أنْ يسمع الملك صوت الارتطام ويخرج فيراني، ولستُ أدري ماذا

سيحدث ولاسيَّما عندما لمحتُ في نظرات سيرين الرُّعب وهي تتَّجه للدّولاب الموجود داخل الغرفة.

عندما سقط المسدّس حاول صادق أنْ يقوم من الكرسي المنخفض بصعوبة لكي يستعيد المسدّس من الأرض، ولكنَّ سيرين اندفعت وداستْ على يده التي كانت ممتدَّة لتناول المسدّس، فلمَّا صرخ سمعت صوت الملك من الدَّاخل وهو يشخط، فراحتْ سيرين تمزِّق أعلى فستانها وعرَّت كتفها، ومزَّقت السّتيان فظهر صدرها وبسرعة صرخت والتقطت المسدّس، وهنا صاح الملك: "ماذا يجري هناك؟".

في لمح البصر صوَّبتُ المسدّس على صادق وأطلقتُ الرّصاص وهي تصرخ، وكنتُ في نفس اللمحة مختبئًا في المكان الذي أشارتْ لي عليه وأنا مذعور من الدَّهشة.

خرج الملك من الغرفة للصَّالة، وسمعتُ سيرين تصطنع الصَّرخة وهي تصيح: "أنقذني جلالتك، لقد مزَّق ثوبي وهدَّدني بالمسدّس"، وكان صادق يئنّ وهو يحاول أن يتكلَّم، وبمجرَّد أن نبسَ بكلمة هولت، قال الملك: "نعم، يا صادق ماذا عن مسز هولت؟ ماذا حدث؟"، ولكن لم ينطق صادق بكلمة، وبدلًا منه قالتْ سيرين: "صوَّب المسدّس على جلالتك ومزَّق فستاني وأراد أن... فلم أدرِ كيف أمسكت بالمسدّس وكيف انطلقت الرّصاصة"، فصاح الملك: "ياإلهي، لقد قتلتيه"، فردَّتْ بصوتٍ منكسر: "دفاع عن النَّفس".

أشعل الملك سيجارًا بعد أن استجمع قواه: "أنا وأنتِ فقط نعرف ما حدث، أنا لن أتكلَّم، وأنتِ أيضًا، سآخذ سيَّارتي وبعد عشر دقائق من مغادرتي تكونين قد رحلتِ من هنا"، ثمَّ أردف: "أعطني مفتاح الباب

الخارجي، خلال ساعة سيأتي مَن يهتمّ بالأمر"، ثمَّ نظر لجثَّة صادق المسجاة: "كنتُ أحبّه، ولكم مرَّة نبهته ألَّا يتدخَّل مع حريمي"، ثمَّ نظر حوله "هذه السِّجَّادة تلطَّخت بالدَّم، سيتمّ تنظيفها تمامًا، وأنتِ لا تأتي هنا لمدَّة شهر".

فقالتْ سيرين وهي تجهش بالبكاء: "أين أذهب، وملابسي؟"، فردَّ: "بيت والديكِ أو أيّ مكان، أمَّا الملابس نشتري غيرها، سيقوم بولي بترتيب كلّ شيء"، وبولي هذا إيطالي، خادم كلّ المهام لفاروق وهو أحد الحكَّام الفعليين لحياة الملك.

سمعت خطوات الملك تقترب منِّي وأنا مختبئ في الدّولاب في الغرفة، ثمَّ خرج، وهو يقول: "إيَّاكِ وكلمة تخرج، وإلا لن ترينَ القاهرة أبدًا". خرجتُ من المخبأ وهرعتْ سيرين لحضني وهي منهارة: "ياإلهي، المكان نفسه الذي قُتِلَ فيه جريج، إنَّه مكان ملعون"، فأخذت أخفِّف عنها وأواسيها وقلت لها: "هيَّا بنا الآن من هنا".

خرجنا من الفيلَّا، ومازالتْ سيرين ترتعش حتَّى وصلنا لسيَّارتي، حيثُ بدأت أعصابها تهدأ قليلًا، ولكن لازالت ترتعش حتَّى وصلنا منزل هولت، بينما الكلّ في نوم عميق تسلَّلنا لحجرة الجلوس وصببتُ كاسين وجلستُ مطوِّقًا كتفها حتَّى ارتاحت تمامًا بعد تناول الكاس وسألتها: "احكي لي ما حدث بالضَّبط".

فبدأتْ تشرح: "بعد أنْ تركت العشاء وذهبت للفيلَّا في تمام العاشرة والنِّصف حسب الاتِّفاق بمجرَّد أن فتحتُ الباب ودخلتُ الفيلَّا سمعتُ جرس الباب فظننتُ أنَّه أنتَ ففتحتُ، ولكن اندهشت لما وجدتُ الملك وخلفه صادق، طلب منِّي الدّخول، بالطّبع رحّبت به ولم أعلم سبب

المجيء، وهنا دخلنا المكتب وبدأ يتكلَّم معي على أنَّه يحبّني وإن استدعى الأمر أن يطلِّق زوجته ويتزوَّجني. لما قلتُ له إنّني في حالة احترام لذكرى زوجي قال لي زوجك أم أخو زوجك؟ وتجاهلت الكلمة وهو مستمرّ في كلامه عنّي وعن حبِّه لي.

ولما أغلقنا الباب وكان صادق يجلس خارجه خفت أنَّك تجيء في أيّ لحظة، ولربَّما رننت الجرس ولم نسمع، ولكن بعد فترة ورغم أنَّ الباب مانع للصّوت سمعت بعض الحركة، فاستأذنتُ من الملك وخرجتُ لكي أراكَ وأرى "صادق" والمسدّس الذي التقطته خوفًا من أنْ يقتلكَ، ولما كنتُ أعلم أنَّ "فاروق" يجلس على كنبة منخفضة، وسيأخذ وقتًا حتَّى ينهض أشرتُ عليكَ أنْ تختبئ، وأخذتُ أمزِّق في ملابسي متعمِّدة ثمَّ حدث ما حدث".

صببتُ كأسين مرَّة أخرى، وقلتُ لها بعد أنْ هدأت تمامًا: "هذا يكفي، اذهبي نامي، وإذا استلزم الأمر خذي حبوب منوّم، وأنا سأفكِّر في قصّة أقولها لوالدينا، ولا تقلقي"، فراحت تبكي وهي تقول: "لو أنِّي لم أذهب..."، فقلتُ لها: "دعكِ مما حدث، أنتِ محتاجة مدَّة كافية لترتاحي"، أخذتُ أمرِّر يدي في شعرها وأهدِّئ من روعها: "خلال الشُّهور القادمة سنعلن للجميع أنَّنا سنعيش مع زوج وزوجة، هلْ تستطيعينَ أن تنتظري تلك المدَّة؟"، فراحتْ هامسة: "إذا اضطررت لذلك".

٣٣

في بادئ الأمر لم تكنْ هناك أيّ مشاكل، فرجال الملك أخذوا جثَّة صادق ومعها كلّ دليل مادِّي مثل السّجَّادة، تمَّ دفن صادق عسكريًّا، وكما قالت كلّ الصّحف إنَّه مات بسكتة قلبيَّة مفاجئة.

انتقلتْ سيرين لمنزل أبيها، وتمَّ الإعلان عن بيع الفيلَّا بحجّة أنَّ سيرين لم تحتمل البقاء فيها بعد موت زوجها المأساوي.

بدأت الشَّائعات بعد ذلك تنطلق حتَّى وصلتْ نادي الجزيرة، وإنْ كانت في البداية بعيدة عن سيرين، فالضّوضاء التي حدثت وصوت الرّصاص وزئير السّيَّارات والمجيء لأخذ سجَّادة كبيرة ملفوفة، كلّ هذا جعل الجيران ينظرون من خلف السَّتائر، حتَّى أنَّه لما عاد تيدي من اسكندريَّة قال لي: "سعيد بأنَّ سيرين بخير"، فقلتُ متسائلًا: "لماذا تقول هذا؟"، فقال لي: "سمعتُ في اسكندريَّة أنَّه كانت هناك محاولة لقتل سيرين في الفيلَّا وأنَّ البعض رأى سجَّادة ملفوفة حملتْ خارج الفيلَّا".

لم يربط أحد سيرين بالحادث، فالكلّ عرف أنَّ سيرين قضتْ تلك الليلة مع أهلها، وأنَّه ربَّما حاول البعض سرقة الفيلَّا أثناء غيابها، ولم تؤكِّد سيرين هذه القصّة ولم تنكرها.

هناك كثير من الأسئلة تحتاج لإجابات، أسئلة من امرأة بعينها، أرملة صادق، لم أرتح لها بوجهها المتجهِّم الخالي من التَّعبيرات ولسانها اللاذع، وروحها الانتقاميَّة غير المتسامحة، لم تستطع أرملة صادق مواجهة الملك علنًا، فالملك ضاعف لها معاش زوجها، ولستُ أدري ماذا قالوا لها عن دفن زوجها سريعًا وإنْ كان هذا جعلها تتشكَّك في الأمر.

الشَّائعات التي انطلقتْ وانتشرتْ عن فيلَّا زلفي لم تكن لها علاقة مبدأيًّا بموت صادق حتَّى دعاني سرِّي باشا مرَّة لنادي التَّجديف وبادرني بمقدِّمة: " أعلم أنَّكَ صديقٌ حميمٌ لسيرين ولولا ذلك ما كنت سأسألك، ولكن"، ارتعدت مفاصلي وشعرت بأنَّ هناك مواجهة ستخجلني، ولكنَّه استطرد: "أنا لا أصدِّق، ولكن هل سيرين على علاقة مع الملك"، فضحكتُ ساخرًا: "ما الذي جعلك تقول هذا، لا، أبدًا يا سرِّي باشا"، فقال: "الشَّائعات تملأ السّوق، ويُقال إنَّ أرملة صادق تقول إنَّ "صادق" كان مع الملك في فيلَّا زلفي ليلة موته المفاجئ"، فقلتُ له مستنكرًا: "استحالة، ليستْ سيرين مَن يفعل ذلك"، فارتاح سرِّي لردِّي.

جرت الأحداث بسرعة، ولكنْ فجأة ظهر خبر في إحدى الصّحف المصريَّة: "يُقال إنَّ جلالة الملك الذي كان يتناول عشاء خاصًّا في فيلَّا زلفي بين الحين والآخر مع سيرين هولت، الصّديقة الحميمة، قد توقَّف عن زيارتها بعد الشَّائعات الأخيرة، الأمر الذي دفع سيرين هولت لبيع الفيلَّا التي في الزَّمالك".

رأتْ سيرين هذا الخبر وقالتْ لي: "هلْ من حقِّي أنْ أقاضي هذه الصَّحيفة؟" فقلتُ لها: "أنتِ تعلمين أنَّ فيها جزءًا كبيرًا من الحقيقة، ولن تعتمدي إلَّا على أكاذيب، وأنتِ أمام امرأة عنيدة، لقد تتبَّعناها وعرفنا أنَّها تسأل الجيران وكلّ مَن له اتّصال بفيلَّا زلفي عن الحادث"، "لم يكن من المفروض أنْ تدعو سيرين الملك للولائم من البداية"، هذا ما قاله لي أبي بعد ساعات من نشر الخبر، وسألني سؤال سرِّي باشا نفسه، فلم أمتلك جوابًا غير: "هذا سخف".

كان الخبر الأكثر إثارة ما قاله لي ستيفنسون، وكان قد انضمَّ لمنظَّمة جديدة للخدمات الاستيراتيجيَّة، في نادي الجزيرة: "أرملة صادق تتَّهم "فاروق" بقتل زوجها؛ لأنَّه يعرف الكثير عن علاقته بسيرين، هذا كلام فارغ ولكن الإشاعة في كلِّ مكان"، فقلتُ له وأنا مندهش: "أنت السَّبب في كلِّ هذا حينما اقترحت ورتَّبت لزيارة فاروق لفيلَّا زلفي أوَّل مرَّة، الآن ليس أمامنا شيء نفعله"، فقال ستيفنسون وهو ينتقي كلماته بعناية: "يا مارك هناك رائحة غير مريحة في الموضوع، جثَّة بالليل؟ وأرملة لا ترى جثّة زوجها قبل الدَّفن، وسكتة قلبيَّة في مكان خاصٍّ، وكشف يتمّ عن طريق أطبَّاء الملك؟ صادق لم يمتْ بسكتة قلبيَّة، قتل بالرّصاص".

فقلتُ مستغربًا لهذا الرَّجل الذي يضع أنفه في كلِّ كبيرة وصغيرة: "ما الذي يجعلك تقول هذا؟".

فقال: "سأقول لك في الوقت المناسب، ولكن أيضًا أريد أن أحذِّرك"، فقلتُ كاذبًا: "ليس لي علاقة بهذا الموضوع"، فقال: "طبعًا"، ولا أدرى إذا كان كاذبًا مثلي أم لا، ثمَّ أردف: "ستصلك تعليمات من القيادة لمقابلة الملك فاروق في زيارة غير رسميَّة"، فدارتْ في رأسي آلاف الأسئلة كلّها تجمّعت في سؤال: "هل فاروق يعرف؟"، وكأنَّ ستيفنسون يعرف ما دار في خلدي من هواجس قال لي: "لا تقلق، فالسَّفير الأمريكي الكسندر كيرك أخبرني لأبلغلكَ بأن الملك غضبان جدًّا، ليس منك، ولكن يريد إيقاف هذه الشَّائعات فورًا، وأنَّ أيَّ شائعة ستضرّ بسيرين".

فقلتُ غاضبًا: "وما علاقة السَّفير الأمريكي بهذا؟ إنَّه شأن مصريّ"، فقال ستيفنسون: "اهدأ يا مارك، إنَّك تعلم تمامًا أنَّ "فاروق" يحبّ كيرك، وأنا المسئول عن هذه العلاقة، وعامَّة لا تغضب، فكلّ ما فعلته أنَّني

أبلغتك بما سيحدث، ولعلمك فاروق هو الذي طلب النَّصيحة من السَّفير"، فقلت: "ولماذا لم يطلب فاروق مقابلة سيرين؟"، فقال: "أيّ مقابلة في خضمِّ هذه الشَّائعات ستثير مشاكل، ولعلمي فاروق يعتقد أنَّكَ أنسب واحد لهذا، ويعرف كم تحبّك سيرين منذ حادث البورتريه، ولأنَّك صريح، كما يقول المثل العربي "كتاب مفتوح".

تقابلت مع سيرين بعد ثلاثة أيَّام في الشَّقَّة السِّرِّيَّة، وكنت متوترًا فلم أستطع أنْ أخفي انفعالاتي، وقضينا الأمسية في قلق؛ لماذا يريدني فاروق، وهل يعرف شيئًا، وهل يشك فينا؟

عندما جاءني أمر القيادة من خلال مونسون لأقدِّم نفسي لقصر عابدين أعطاني مونسون الأوامر بأنْ أذهب بحراسة خاصَّة. وصلت لقصر عابدين في الوقت المحدَّد للزِّيارة، ومرَّت سيَّارتي من البوَّابة بدون تفتيش، وصعدت مع الخدم حتَّى مكتب الملك الذي كان جالسًا على مكتبه الضَّخم وخلفه صورة للملك فؤاد.

بادرني الملك بأسلوب مهذَّب: "سعيد لرؤياك يا كولونيل عن آخر مرَّة رأيتك مع هذا الوغد الذي جاء ليقتحم القصر بدبَّاباته، عندي بعض الأخبار التي قد تزعجك، فلقد علمت أنَّ السَّيّدة هولت في مشكلة، والشَّائعات كثيرة"، فقاطعته قائلًا: "أنتَ فوق الشَّائعات يا سيّدي"، فنظر لي بعبوس وهو يقلب وقال: "طبعًا، ولكن السَّيّدة هولت إنسانة عزيزة عليَّ صداقتها، وأنت تعلم أنَّها دعتني قبل ذلك لتناول العشاء في فيلَّا زلفي".

فقلتُ باحتراس: "كثير من السَّيّدات يعجبن بجلالتك ويتمنّين صداقتكم"، فأومأ مستطردًا: "كما تعلم الجنرال صادق مات بسكتة قلبيَّة

مفاجئة بعيدًا عن القاهرة، والمهمّ أنَّ السّيّدة هولت دعتني لأزورها وحدي"، كنت أتميَّز غيظًا، فسيرين كانت تتعشَّى مع أسرتها، وهممت أنْ أقول له هذا ولكن حجمت لساني، واستمرَّ فاروق بأسلوبه النَّاعم: "الشَّائعات تولِّد شائعات، وأرملة صادق لسانها سليط، وسمعتُ توًّا أنَّ "صادق" كان يحتفظ بأجندة يوميَّات"، إذًا هذا هو سرّ الشَّائعات فتساءلت: "جلالتك ممكن حذف الصَّفحات المعنيَّة".

فقال فاروق: "لقد اختفت، لقد فتَّشنا المنزل في كلِّ مكان أثناء الجنازة، في الوقت نفسه لا نريد الضَّغط على أرملته المكلومة"، فقلتُ له: "هل يمكنني المساعدة يا سيّدي؟"، فقال: "نعم، لقد قرَّرنا لمصلحة الجميع أنْ تبتعد السَّيّدة هولت عن مصر لفترة، لقد تمَّ ترتيب كلِّ شيءٍ مع السَّفير الأمريكي، لقد قرَّرنا ذهابها لأمريكا".

فشهقت: "أمريكا! إنَّها بعيدة، والمخاطر"، فقال: "السَّيّد كيرك أكَّد لي أنَّها ستكون في أمان"، فقلت: "وما دوري جلالتك"، فقال: "سرِّي باشا، لا أريد أن أتورَّط معه، وأريد أنْ يبقى اسمي بعيدًا، وأنْ تتمَّ العمليَّة في سرِّيَّة تامَّة"، ثمَّ أضاف: "أنا أحبّك يا سيّد هولت، ولولا أنَّك في الجيش لجعلتك تسافر معها، أنا أعرف كلَّ شيء بينكما، لقد أخبرني صادق بكلِّ شيء قبل موته بعدّة أسابيع".

فأصابني الذّهول وتساءلتُ في نفسي هل يعرف كلَّ شيء، وأردف: "عليك أنْ تخبر السَّيّدة هولت هذا المساء، وطبعًا أنتَ تعرف ستيفنسون، فهو سيسافر معها، ثمَّ يعود للقاهرة في أسرع وقت"، فقلتُ له: "ولكن ماذا سأقول لسيرين، وماذا سأقول لسرِّي باشا، سأكسر قلبه"، فقال: "كسر قلبه ولا كسر كرسي العرش، وعامَّة قلْ ما يحلو لك".

لما عدتُ للمنزل كانت الأفكار تتصارع في دماغي، هل ألجأ للسَّفير أمْ رئيسي في القيادة، طبعًا لا، فالأمر كلّه مصري ولا شأن للأجانب به، هل ألجأ لسرِّي باشا، لا، فهو لا حولَ له ولا قوَّة في تلك الآونة. لو أنِّي ليس في الجيش لكان الأمر مختلفًا، ولو أنَّ سيرين بالفعل غير متورّطة لتغيّر كلّ شيء، ولكن في النِّهاية سفرها أهون من بقائها وتعرّضها للمحاكمة. فاروق أيضًا لن يسمح لها أن تذهب للمحكمة وتشدّ اسمه، فله أكثر من بولي عديم الضَّمير يستطيع أن يدبّر حادثة ضحيّتها سيرين.

قلتُ لسيرين: "في الحقيقة يا عزيزتي أتعجَّب لماذا لم يدبِّر فاروق حادثة لاغتيالكِ، وبأمانة كنتُ أريد أنْ أقنعكِ حتَّى قبل الحادثة أنْ تتركي مصر لسلامتك".

لا أستطيع وصف ما حدث في الأيَّام الثَّلاثة قبل سفرها؛ لقد رفضت شيفون جميع الدّعوات، وأبي أغلق على نفسه المكتب ولم يتكلَّم مع أحد، ومدام سرِّي لازمت الفراش، وسرِّي باشا لم يستطع إخفاء دموعه حتَّى أنَّه في أحد المساءات قال لي: "لو أنَّ الحرب انتهت وكان لايزال معي ثروة كافية سأدعوكم جميعًا لزيارة أمريكا، دعنا نأمل أنْ تنتهي الحرب قريبًا"، فقلتُ له بهدوء: "أنتَ تعلم أنِّي أحبّ سيرين"، فقال: "أعلم ذلك، ولقد ارتكبنا غلطة أنا وأبوك عندما قرّرنا حياة الآخرين حسب رغبتنا".

رفضتْ سيرين رفضًا قاطعًا أنْ أذهب لأودِّعها في المطار قائلة: "لقد نضبت دموعي، ولو أنَّك حضرت سأجعل من نفسي أضحوكة، فأنا أحبّك من كلّ قلبي، فكِّر في هؤلاء الجنود الذين يتركون زوجاتهم في أيَّام الحرب، وها أنا بدلًا من الجنود أتركك لحين تنتهي الحرب".

3

الفَصْلُ الثَّالِثُ

١٩٤٢ـ ١٩٥٢

٣٤

لقدْ علمتُ أنَّ سيرين ستستغرق يومين حتَّى تصل نيويورك.

في طريقي لمنزل سرِّي أخذتُ أفكِّر أنَّ سيرين في هذه اللحظة تمرّ فوق المحيط، وكنتُ أفكِّر يا ترى هي تفكِّر فيَّ كما أفكِّر فيها، وكنتُ أفكِّر فيما حدث وكأنَّ ما مرَّ كابوس أستفيق منه. يجب ألَّا أغرق في حالة الاكتئاب، فالأمر، حقيقة، لا يكمن في ابتعادنا عن بعض، ولكن في الدّور القميء الذي قام به الملك فاروق، وكنتُ أواسي نفسي بأنَّ سيرين فعلًا قتلت رجلًا.

كان سرِّي باشا يعرف أنَّ شيئًا رهيبًا قد حدثَ وجعل سيرين تفكِّر في السَّفر المفاجئ، ولكنَّه لم يربط هذا بموت صادق، وكان يعرف أيضًا شعوري تجاه سيرين. لما طلب منِّي أنْ أصبّ لنفسي كاسًا قال لي: "في الحقيقة لم أكن أفكِّر في سيرين، بل في عليّ، إنَّه يقضي وقتًا طويلًا خارج المنزل، وما يقلقني أنَّه ذكر مرَّة عفويًّا كلمة شقَّة، أتمنَّى ألَّا يكون مقيمًا مع عصفورة"، لقد ذكَّرني بذلك بأيَّامي السَّعيدة في شقّة تيدي السِّرِّيَّة. ابتسم لي سرِّي بعاطفة حقيقيَّة وقال: "بالمناسبة، سيرين تركت لكَ لفَّة، لا أعلم ما فيها"، قام سرِّي باشا من الكرسي بصعوبة وراح وجاء باللفة وهي عبارة عن كتب صغيرة، ومن المؤكَّد أنَّها تحتوي على يوميَّات سيرين، قلتُ له: "مجرَّد كتب كنَّا نقرؤها معًا، سأفتح اللفة في البيت".

لما وصلتُ للمنزل أخذتُ أتصفَّح المذكّرات وأقرأ ما فيها فتوقّفت أمام إحدى الصَّفحات التي كتبت فيها بخطِّ يدها الجميل "الآن لا أريد من الحياة أكثر من ذلك"، ففي هذه الليلة كنتُ أحضن مارك بين ذراعيَّ، نقبِّل بعضنا البعض، وهو يتحرَّك بداخلي، لم أستطع التَّوقّف عن التَّحرُّك

حتَّى شعرت بقمّة النَّزوة، فأخذتُ أبكي حتَّى بدأ مارك يشرح لي أنَّه ليس من الخطأ أن نصل للقمَّة معًا. لم أكن أشعر باللذة نفسها مع جريج، فقد كان يصل لمتعته ويتركني محبطة، أتذكَّر أنِّي في تلك الليلة أنِّي لم أتخذ الاحتياطيَّات التي كنتُ أتخذها مع جريج أثناء الممارسة، وأذكر أنِّي ادَّعيتُ أنِّي متعبة لكي أذهب سقَّارة مع مارك".

فعلًا أذكر أنَّها بكت ليلتها في سقَّارة وظننتُ أنَّها تبكي من المتعة. إنَّه الشُّعور بالتَّقصير، كأيّ امرأة مصريَّة ممتازة؛ لأنَّها لم تنتظر حتَّى يتمتَّع رجلها؛ لذلك تساءلت لما أنجبت الطِّفل قبل موعده. ورحتُ أتصفَّح اليوميَّات بحثًا عن تأكيد، فوقعت عيني على يوميَّة "ذهبتُ مع جريج للرقص في نادي الجزيرة، ثمَّ أخذنا جولة بالسَّيَّارة ومارسنا الجنس في السَّيَّارة. كانت لحظات قصيرة، هلْ كنتُ شريرة لما أغمضت عينيَّ وتخيَّلتُ مارك؟ لقد كان شعورًا قويًّا حتَّى أنّني بعد أنْ وصلت البيت نمتُ على السّرير عارية، وتخيّلتُ أنَّ مارك بجواري حتَّى وصلت للذَّة".

ورحتُ أتصفَّح كثيرًا من الصَّفحات ليس فيها اسمي، عن الرَّسم والكتب أو الملابس، ولكن توقَّفتُ عندما برز اسمي "بروفة أوَّل فستان لحفل عابدين، يا ترى سيعجب مارك؟". واستمريتُ في البحث عمَّا أريد فوجدتُ في أسفل يوميَّة "هلْ أعيشُ متعتي على كذبة تسعدني، سوف أعيش عليها للأبد". ثمَّ تصفّحتُ حتَّى وجدت "بعد الاختبار فرحت جدًّا هلْ أرسل لمارك؟".

رجعتُ أتصفَّح صفحات سابقة تتحدَّث فيها عن الأيَّام التي أصيبت فيها بالحمَّى، وعن الزِّفاف الذي شهدته في مركب قسمت، وعن النَّصراني، وكيف أنَّها في الطّفولة صفعتها أمّها؛ لأنَّها قضمت أظافرها

بأسنانها، وقرأت أيضًا عن معاناتها مع جريج عندما كان عاجزًا عن ممارسة الجنس.

أخذت اليوميَّات وجلستُ في الفراندا لأقرأ المزيد عنَّا، لاحظتُ الشَّمس وهي تغرب، ومرور الغسق على النِّيل، وتملَّكتني كلمة واحدة "جونوثان" لي أنا وسيرين، ولماذا تشاركني هذه الفرحة من أوَّلها؟ وتذكَّرت جونوثان عندما كان يلعب ولما كان يشبّ ليقبّلني، وكيف لي أنْ أكون عمًّا لمن أصبحت حبيبتي، وعمًّا لطفلي، ويا ترى ماذا قالتْ سيرين لجونوثان، هل أبوه مات؟ راحت الأفكار تتسارع وتتصارع، واسأل هل لأنَّ شخصيّة سيرين مصريَّة فهي تفصل بين الزّواج والحبّ، وكيف لامرأة أنْ تخفي ذلك عن الرَّجل الذي جعلته يخون أخاه، وأنْ يمارس معها المتعة وقوفًا تحت شجرة الكاتدرائيَّة، وفي شقَّة سريَّة، لماذا تسلك هذه الطّرق الملتوية؟

مرَّت عشرة أيَّام قبل أنْ أكتشف الإجابة عندما رجع ستيفنسون من نيويورك للقاهرة ومعه خطاب لي من سيرين، سألته عن سيرين فأخبرني أنَّها تسكن في شقَّة صغيرة ولكن تكفي لها أن تقيم فيها حامل الرَّسم، وبها حمَّامان وغرفتان نوم، وأنَّ هناك امرأة سمراء تقوم على خدمتها وأضاف بجدّيَّة أكثر: "يجب عليها أنْ تعتاد على العيش هناك، فلنْ تستقيم الأمور حتَّى يهزم اليابانيُّون وهتلر وهذا سيستغرق وقتًا طويلًا، فقد ذهبت للبنتاجون وما سمعته يشيّب رأس الطّفل، ففي أوروبا هناك بصيص من النّور ولكنّ اليابان قطعة من الجحيم، فالحلّ الوحيد لكي ننهي هذه الحرب هو إبادة تامَّة لهؤلاء الأوغاد، فهم شرسون وسيقاتلون لآخر رجل

منهم". سألته: "معنى ذلك أنَّ سيرين لن ترجع؟"، فأجاب: "المدّة طويلة ما لم يغيّر فاروق رأيه".

رحتُ أقرأ الخطاب الذي أرسلته سيرين والذي تقول فيه:

"حبيبي مارك، رغم أنَّ ما بيننا المحيط وأنَّ جونوثان مشغول في عربته المتنقِّلة فإنّني أشعر بأنّي لك وأنك لي، وأتوقَّع أنَّكَ ستدخل عليَّ من الباب بقامتك المنتصبة وعيونك البنيَّة الثَّابتة، ثمَّ أنظر للباب فلا أجد إلَّا الحلم وقد أغرقته الدّموع، فيشعر بي جونوثان ويأتي ليحضنني. لقد كان من السّهل أن نتغلَّب على المشاكل التي واجهناها معًا، ولكن هناك مشكلة واحدة لم أشارك فيها أحدًا حتَّى أنت، وهي جونوثان، فهو ابنك، وعليكَ أنْ تعرفَ ذلك من مراجعة التَّاريخ. يجب أنْ أشعر بالذَّنب، فهي خطيئة لن تغفر لي وكأنَّ "فاروق" صار نبيًّا وأنزل عليَّ العقاب، لا لم تكن خطيئة أنْ أحمل طفلك، ولما تزوَّجنا لم أستطع أنْ أبلغ أحدًا حتَّى أنتَ.

لما مات جريج تخيَّلت ما دار في تفكيرك وهو لماذا لم أخبرك، فعلًا كنت أنوي أنْ أخبرك، ولكنَّ الأحداث حالت بيني وبين هذا، فانتظرتُ الوقتَ المناسب، ولما أخبرتني بأنَّك ستعلن تواجدنا معًا قلت أخلِّيها لك مفاجأة، ولما حدثت مصيبة صادق وقرّروا أنْ أترك مصر قلت أترك لك مساحة راحة، والآن والحرب تدور رحاها وإلى أنْ تنتهي سيكون جونوثان غلامًا يافعًا، وإذا ظللتَ تحبّني بعد تلك المدَّة، فيا ترى كم من الوقت سيمضي؟ كم أنا وحيدة الآن وكم أحتاج لك أكثر من أيّ وقت مضى، أحتاج للعون المعنويّ من الرَّجل الذي أحبّه أكثر من الحياة نفسها. سوف أكتب لك دائمًا يا حبيبي مارك".

"سيرين".

٣٥

خلال السِّنين التي مرَّت منذ أنْ تركت سيرين مصر كانت خطاباتها مصدر سعادتي، وبعد مرور عدّة أسابيع وصلتني منها صور، عرفت منها كيف تعيش وكيف أصبح جونوثان، وصداقاتها الجدد، وأنَّها كانت تعمل بجهد في الرَّسم، وأنَّ هناك صديقًا جديدًا سيقيم لها معرضًا عندما ترسم صورًا كافية.

لقد قالتْ لي في أحد الخطابات "إنَّه ثري جدًّا، في السِّتينيَّات من عمره يُدعى بروس كينج، طلَّق ثلاث مرَّات، أصيب بأزمتين قلبيّتين، ولكن برغم مرضه إلا أنَّه حيوي ونشيط، قدّمني لكثير من النَّاس المهمّين، وهو رجلٌ كريم يدعو الكثير من أصدقائه لأفخم المطاعم، لا تقلق ولا تشعر بالغيرة، فهو يسافر دائمًا بطبيبه الخاصّ الذي قال إنَّه لو تعرَّض لأزمة ثالثة ستكون القاضية، كلّ حبّي لزوجي ولابني".

لقد أرسلتْ لي قصاصات من الصّحف التي نشرت أخبارًا عنها، وفي إحداها صورة مع كينج وهما يضحكان. لقد كان كينج طويلًا، أصلع ووجهه نحيف وعيونه غائرة، ولكن رغم ذلك كان شخصيَّة جذَّابة، كانت تسألني في خطاباتها عن أسرتينا.

لقد ظهر العمر على شيفون قليلًا، وإنْ لم يكد يظهر على هولت، أمَّا سرِّي فكان يظهر أكبر من عمره، سألتُ أبي عن سبب ظهور الكبر على سرِّي وعدم ظهوره عليه، فقال: "إنَّ الرَّجل العادي المصري أقصر عمرًا من الرَّجل العادي الانجليزيّ؛ لأنَّه يبذل كلّ طاقته في البدايات، ألم تسمع

الشعر الحلمنتيشي الذي يقول، من السَّهل أنْ تبدأ، ولكنْ هل أنتَ مثابر، من السَّهل أنْ تبدأ عملًا ولكن من الصَّعب أنْ تستمر".

فضحكتُ وقلتُ: "هل سيستمرّ فاروق؟"، فقال: "لا أظنّ، فدكتور فيليب يقول إنَّه سيموت قبل أنْ يكمل الأربعين"، فقلتُ بِغِلٍّ: "ياليت"، وكنتُ أسأله أحيانًا عن عليٍّ فكان يقول: "هو غير مثابر أيضًا، ولكن جريج! دعنا نتكلَّم في شيء غير ذلك، هل تراسلك زوجتك؟". فقلت له: "تراسلني مراسلة عاديَّة، وقالتْ في أحد خطاباتها إنَّها بعد الحرب ممكن تعود للقاهرة"، فسألني أبي: "تتمنَّى ذلك؟"، فقلتُ: "لا قدَّر الله، ليس بعد ما فعلته، بالإضافة إلى أنَّني مشغول في عملي".

في الحقيقة كنتُ أبذل كلَّ جهدي لحلِّ لغز الجاسوس الألماني الذي اسمه الحركي خوفو، والذي مثله مثل المصري حاتم على علاقة بآنا البولنديَّة، التي تتظاهر له بأنَّها ألمانيَّة وتأخذ منه معلومات وتنقلها لسامية، وقد تعقَّدت الأمور بعد وقوع طبرق في يد الألمان في يونيو ١٩٤٢ ومقتل ١٥٠٠٠ بريطاني، وفقد ٤٥٠٠٠ أسير من الحلفاء قبل شهور من تمكّن مونتجومري من إحراز أوَّل نصر في شمال أفريقيا.

قال لي القائد مونسون: "يجب أن نبدأ بضربتنا فخوفو يرسل رسائل ونريد أن نوقف هذا، فهل تستطيع أنْ تحصل على شيء من تلك الفتاة، اعمل معها شيئًا ما"، وكان يقصد سامية.

قرَّرتُ أنْ أقابل سامية فاتَّصلت بها ولكنَّها حذَّرتني بأنَّ سفنكس مراقب ولا يصلح للمقابلة، واقترحتْ أن نتقابل في جروبي فأخبرتها أنَّ جروبي أيضًا مراقب ليل نهار فاتَّفقنا أن نتقابل في منزلنا.

وصلت سامية للمنزل، وكانت لا تزال تحتفظ بجاذبيّتها وإنْ كانتْ زادتْ في الوزن قليلًا، وقبل أن نتكلم في العمل جاء أبي وشيفون لتحيّتها، وبعد أن تناولنا العشاء جلستُ مع سامية وعرفتُ منها معلومات مهمَّة جدًّا نقلتها فيما بعد لمونسون على هيئة ملاحظات، "كان خوفو ابن امرأة ألمانيَّة من زوج ألماني، فلمَّا تطلّقت تزوّجت من مصري حينما كان خوفو ١١ سنة، غير اسمه من هانز وينر إلى حسين عبود وحصل على جنسيتين، وكان يتكلَّم العربيَّة والألمانيَّة بطلاقة، بالإضافة للانجليزيَّة. الذي دفعه للجاسوسيَّة هو أنَّ زوج أمِّه طرده من المنزل فاتجه للخمر والنِّساء، وتحوَّلت كراهيته لزوج أمِّه المصري إلى حبٍّ لألمانيا، وقع هانز في حبِّ آنا التي أقنعته أنَّها تقبل الجاسوسيَّة بناءً على تعليمات سامية".

اكتشفنا عن طريق آنا مسكن هانز، وفي إحدى زياراته لسفنكس فتَّشنا سكنه بعد أنْ أبلغتنا آنا عن وجود راديو في قبو المسكن، والمفاجأة أنَّنا وجدنا جهازين أحدهما لا يعمل والآخر جديد صنع أمريكي حصلوا عليه في سويسرا، وكانت سويسرا تعمل لصالح ألمانيا في مصر غير المنحازة، وكان بالفعل الاتِّصال بينهم وبين روميل قد انقطع، وفي زيارة أخرى لمسكنه وجدنا أنَّ الجهاز اختفى.

علمتُ كلَّ هذا من سامية، وفي الوقت نفسه كانت هناك تحرُّكات غامضة ربطتها المخابرات بهانز، أهمّ هذه المعلومات أنَّ حركة الضّبَّاط الأحرار بقيادة عبد النَّاصر قرَّرتْ أنْ تتَّصل بروميل وتعرض عليه اتفاقيَّة بتنظيم مظاهرة في القاهرة ضدّ البريطانيين لو أنَّ روميل ضمن في المقابل استقلال مصر إذا كسب روميل الحرب.

من المؤكَّد أنَّ حركة الضّبّاط الأحرار مجنونة لو كانت فعلت ذلك، فالألمان لن يحترموا الاتفاقيَّة المزعومة، ومَن ذا الذي سينظّم ذلك وعبد النَّاصر انتقل منذ شهور لجنوب مصر، أي على بعد مئات الأميال من منطقة الحرب. كيف سيتَّصلون ببعضهم البعض والرَّاديو الخاصّ بهم لا يعمل، وأين اختفى الآخر، خطر في بالي لما كان صديق عبد النَّاصر، أنور السَّادات، انتقل لسلاح الإشارة، فهل يكون هو مَن أخفى الجهاز؟

إنَّ لغز الطَّيَّار الذي غيَّر اتجاهه أثناء التَّدريب وذهب لمجال الألمان وانفجرتْ به الطَّائرة والذي قال عنه قائدنا إنَّه رجلنا، ربَّما الاتفاقيَّة احترقت معه، ولكن مضمونها من المؤكّد وصل لهم عن طريق الرَّاديو، فأين الرَّاديو؟

تمَّ القبض على السَّادات وهانز بتهمة التَّجسّس وإخفاء راديو للتَّجسّس، كلاهما أنكر التّهم المنسوبة، ولما لم يفسِّر هانز سرَّ عملة الخمسة جنيهات المزيَّفة أرسل للسِّجن، أمَّا السَّادات فانفجر غاضبًا لهذه التّهم وكيف وهو رجل في الجيش توجّه له هذه التّهم، وأمَّا بخصوص الرَّاديو فقال فتِّشوا مسكنه، وبالفعل تمَّ التَّفتيش ولم نجد شيئًا، ورغم براءته من كلِّ شيءٍ إلَّا أنَّنا كنَّا نشكُّ شكًّا كبيرًا في تورّطه؛ فلذلك تمَّ الإفراج عنه مع وضعه تحت الرّقابة. قد تمَّ إثبات أنَّ عبد النَّاصر لم يكن مشاركًا في الاتفاقيَّة، وأنَّ رتبة في الجيش هو مَن دبَّر موضوع الطَّائرة والرَّاديو.

قرَّر تشرشل أنْ يقابل ستالين في موسكو في ١٢ أغسطس، توقّف في طريقه يوم ٥ أغسطس في القاهرة. وقابل بعض المسئولين، وعندما علم بالقبض على هانز وأنَّه أنكر كلَّ شيء، طلبه وخيَّره بين الإعدام بالرّصاص فورًا أو الاعتراف بمَن وراءه والعيش حياة آمنة حتَّى يتمّ إطلاق سراحه

بعد انتهاء الحرب. أقرَّ هانز بكلِّ شيء وسرد أسماء المتعاونين معه وكان من بينهم السَّادات.

في الصَّباح التَّالي تمَّ القبض على السَّادات ومثل أمام المحكمة العرفيَّة، وأسقطت عنه الرّتب وأرسل لسجن الحلفاء في الصَّعيد لمدَّة سنتين. كان سجن الحلفاء يستخدم لتهم التَّجسّس والفتنة، كان مريحًا فكلّ زنزانة بها سرير وبطاطين وكرسي ومكتب ولمبة كهربيَّة، وكان مسموحًا للمساجين بالتَّدخين. فور ما سمع عبد النَّاصر بسجن السَّادات أمرَ الضّبَّاط الأحرار بتوفير مبلغ عشرة جنيهات لأسرة السَّادات أسبوعيًّا طوال فترة سجنه.

أثناء تلك الفترة قمنا بحملة استهدفتْ شقَّة مجهولة في الزَّمالك مكوّنة من غرفة واحدة بها ثلَّاجة ومطبخ صغير، ويبدو من وضع الشَّقَّة أنَّه لا يعيش فيها أحد، وجدنا في وسط الشَّقَّة شنطة بها جهاز الإرسال. في تلك اللحظة أحسسنا بمفتاح يدور في الباب، فاستعدّينا لاستقبال الدَّاخل، كان الدَّاخل رجل وامرأة، المرأة صرخت واستطاعت الهروب، أمَّا الرَّجل فتمَّ إغلاق الباب عليه بمجرَّد دخوله، وللمفاجأة كان الرَّجل علي سرِّي، فصرخ في وجهي: "اللعنة، البريطانيّ الوغد، لكم حذَّرني السَّادات منك".

لما كان الجهاز غير مستخدم من قبل استطعتُ بنفوذي أنْ أبعد تهمة التَّجسّس عن عليٍّ وأنَّ الجهاز كان يخصّ السَّادات، وعلى ذلك تمَّ حبسه لمدَّة ستَّة أشهر.

في الأيَّام التَّالية أسند لي مونسون مهمَّة سرِّيَّة للشبونة، ففكَّرتُ في التَّوِّ واللحظة أنَّ البرتغال دولة محايدة ومصر أيضًا ولو على الورق، وإنْ كانت في الواقع معسكرًا لبريطانيا، ومن أجل ذلك من السَّهْل السَّفر منها وإليها.

فخطرتْ لي فكرة أن أجعل سيرين تأتي للشبونة في الفترة التي سأكون فيها هناك. طلبتُ من مونسون إعطائي إجازة بعد انتهاء المهمَّة فوافق، فاتَّصلتُ بستيفنسون وطلبتُ منه أنْ ينظِّمَ سفر سيرين للشبونة كخدمة لي، وتركته يتدبَّر الأمر.

بعد عدَّة أيَّام اتَّصل بي ستيفنسون وأخبرني أنَّني سأصل لشبونة يوم الاثنين، وأنَّ سيرين ستصل يوم الخميس، وأضاف قائلًا: "لشبونة مزدحمة في هذه الفترة بالمدنيين الذين يتمتَّعون بوقتهم، ولكن لم أستطع أنْ أطلب من السِّفارة أنْ تحجز لسيرين غرفة مزدوجة، ولكن تمَّ ترتيب إقامة لكما في كاسكيس قرب لشبونة "، فقلتُ له: "شكرًا، أنتَ منظّم عظيم"، فقال لي: "لا فضلَ لي في هذا، سيرين هي التي نظَّمتْ كلَّ شيء، فصديق لها اسمه بروس كينج وفَّر لكما فيلّته لمدّة أسبوعين هناك".

رغم أنَّ مهمَّتي كانتْ سرِّيَّة إلَّا أنَّني قررتُ أنْ أخبر سرِّي باشا بأنَّني سأقابل سيرين، قابلته في ممرّ منزله، فجلستُ معه في الفراندا، وكان قد تغيّر كثيرًا، ظهر عليه العمر وظهرت التَّجاعيد في وجهه وصارت ملابسه أوسع منه.

قلتُ له: "سرِّي باشا، أنتَ تعرف أنَّ عملي في منتهى السِّرِّيَّة، ولكن سأخبرك بسرّ أرجو ألَّا تخبر به أحدًا حتَّى أسرتي، سأذهب لمهمّة وسأقابل سيرين"، فكاد يبكي من المفاجأة وقال لي: "كم أنا سعيد بهذا الخبر، بلّغها تحيَّاتي، وعندما تعود خلّيني أعرف أخبارها"، فوعدته بذلك وضغطت على يده وأنا أودّعه عائدًا لمنزل هولت.

٣٦

وصلتْ سيرين للشبونة بعد ثلاثة أيَّام من انتهائي من مهمّة تحقيق شخصيَّة الجاسوس مالكوم وأصبحتُ حرًّا، واستقبلتُها في مطار بورتيلَّا. كانتْ ترتدي "جاكت ليموني باهت"، وشعرها ملقى على كتفيها. وبمجرَّد أنْ لمحتني جرتْ نحوي وطوَّقتني بذراعيها وقبَّلتني، فقلتُ لها: "افتقدتكِ كثيرًا، كم من الوقت مرَّ ولم نتقابل!"، فقالتْ وهي تضحك: "سنعوّض كلَّ هذا الوقت"، ثمَّ سألتني عن والديها فأخبرتها بأنَّهما بخير وإنْ كان ظهر عليهما الكبر. سألتها عن جونوثان فقالت: "بخير، حاولتُ أنْ أحضره معي ولكن لم يكن من المتاح ذلك"، فقلتُ: "لا يهمّ، كلُّنا سنلتقي معًا عمَّا قريب، فالألمان ليس لهم وجود في شمال أفريقيا حاليًا".

اتجهنا لقرية كاسكيس، ووضعت سيرين يدها على ركبتي وأنا أقود السَّيَّارة تجاه تاجوس، التي يصطف طريقها بقلاع صفراء بنيت في القرن السَّابع عشر لتصدَّ غزو إسبانيا التي كانتْ تعتبر البرتغال مستعمرة لها، ثمَّ استدرنا وسرنا حتَّى وصلنا كاسكيس ذات البيوت المطلَّة على البحر الأزرق والتِّلال التي تناطح السّحاب وحيثُ القصور تكمن بين الغابات والأشجار العالية.

أخيرًا وصلنا لبوَّابة حديديَّة، حيثُ استقبلتنا امرأة قويَّة البنيان وأخذت شنطنا للفيلَّا التي على هضبة مستوية، وعلى اليسار ينتصب منزل بمبى يواجه البحر وتحيطه الخضرة الوفيرة من مساحات وأشجار، يقع في وسطها حمَّام سباحة محاط بالرّخام. بعد أن انصرفتْ مديرة القصر قالت سيرين: "هيَّا نسبح في حمَّام السِّباحة ثمَّ نعود للمنزل"، وبالفعل رحنا

الحمَّام وبدأتْ تقبِّلني ونتلامس ونرشّ على بعضنا الماء الذي كانَ كالكريستال دافئًا ولطيفًا، وراحت سيرين تطفو على سطح الماء بظهرها، وبدأنا نغوص تحت المياه، والتقينا عند النِّهاية المرتفعة من الحمَّام وتحسّستها في صدرها العاري ولكنَّها قالتْ: "لا، ليس هنا وفِّرها حتَّى نذهب للسّرير".

لم أصدِّق أنَّنا معًا مرَّة ثانية، نتعانق وننام في أحضان بعضنا البعض، تلاصقنا وشفاهنا متعانقة وصدري في صدرها، نستمتع بكلِّ لحظة، لما انتهينا طلبتْ منِّي أنْ أظلَّ فوقها حتَّى نعستْ، وأردتُ أنْ أنزل وأنام بجوارها ولكن شعرت بالرَّغبة تعود لي، فبدأتُ في إشباعها وكانتْ هي تتحرَّك وكأنَّها في حلم لذيذ وعليها ابتسامة نائمة.

استيقظنا في السَّاعة الثَّامنة، فألقتْ بذراعيها على صدري وهي تفتح عيونها الخضراء: "حلمتُ بأنَّك كنتَ تمارس شيئًا ما بينما كنتُ نائمة، فهلْ كان ذلك حلم أم حقيقة؟"، فقلتُ لها: "نوعًا ما".

بعد أنْ حلَّ الظَّلام أخبرنا الخادم أنَّه وقت الذّهاب لأوكازيون السّمك، فذهبنا إلى الشَّاطئ متشابكة أذرعنا والفوانيس تتلألأ فوق قوارب الصّيد، وبدأ المزاد وتمَّ بيع كلّ الطَّاولات المكتظَّة بمختلف أنواع السَّمك.

ذهبنا للمطعم واحتسينا القهوة، وعدنا وقد قالتْ لي: "هيَّا للسّرير"، فقلتُ لها ضاحكًا: "ليس الليلة"، فقالتْ: "أنتَ تريدني أنْ أذهبَ قبلك وأنام كأيّ زوجة مصريَّة، التي لا توجد إلَّا لكي يمتّع الزّوج نفسه بدون النَّظر للزّوجة".

كان أمامنا الكثير لنتكلّم عنه، وكثير من الوقت الضّائع لنعوِّضه، كنّا نبقى في السّرير لوقتٍ متأخِّر، ونذهب لحمّام السّباحة، ونتغدّى ونستمع للأغاني البرتغاليّة الشّعبيّة ونستمتع بمناظر الفوانيس التي تتراقص على قوارب الصّيد وهي بعيدة هناك في البحر.

رحنا نتفرَّج على الصّور الفوتوغرافيّة لجونوثان، لقدْ كان يشبهني لحدٍّ كبير، نفس العيون وشكل الوجه، وأضافتْ سيرين: "لقد أخبرته أنَّ أباه بعيد في الحرب واسمه جونوثان هولت يعني اسمك وهو حاصل على الجنسيَّة الانجليزيّة"، فقلتُ: "ولكنْ رسميًّا؟ نفترض حدث لي شيءٌ"، فقالتْ: "لا تسبق الأحداث".

أخذنا نتفرَّج على باقي الصّور، مع أصدقائها الأمريكان ومع بروس كينج فتوقَّفت عند صورته وقلتُ لها: "لا يبدو عليه الثَّراء"، فقالتْ متحمِّسة: "ليس الثَّراء في الملابس ولكن في العطاء، فهو يعطي العاملين معه الكثير، ولولاه ما كنَّا هنا"، فقلتُ: "كان من الممكن أن نذهب لفندق"، فردَّتْ: "ولكن هنا أفضل، أليس كذلك؟"، فأجبتها: "نعم"، لم أشعر بالغيرة من كينج نفسه، ولكن من الظّروف التي جعلته يصادق سيرين ويشغل جزءًا من حياتها، وبدأتُ أفكِّر في أيّام أنْ كنتُ أنا الوحيد الذي أملأ حياتها حتّى بعد أنْ تزوّجتْ.

راحتْ تسألني عن عليٍّ فقلتُ لها: "لا أقابله كثيرًا، فقد مُنِعَ من دخول نادي الجزيرة، وأصبح له سجلّ في الشُّرطة، وسامية وضعته في القائمة السّوداء"، فقالتْ: "لماذا؟ كلّ النَّصّابين والمنحلّين يذهبون سفنكس"، فقلتُ: "عليٌّ متورِّط سياسيًّا، وسامية حريصة على ألّا يأتي عليٌّ لسفنكس لكي لا يسبِّب متاعب لأبيك"، فردّتْ بتهكّم: "إنَّها إنسانة، طبعًا تراها

كثيرًا"، فقلتُ لها: "نعم، عمل"، فسألت: "هل لازالت مدمنة"، فأجبت: "لا، إنَّها تتناول الحبوب التي رفضتها من قبل، وإنْ كانت ظهرت عليها التَّجاعيد إلا أنَّها محتفظة بجاذبيّتها"، فقالتْ: "يظهر أنَّكَ تحفظها عن ظهر قلب"، فقلت: "من أجل العمل فقط"، ثمَّ انتقلت بالحديث لتسألني عن زوجتي بارمي فأجبتها: "إنَّها تراسلني باستمرار وتقول إنَّها بعد الحرب ستأتي لتزورني، إنّني سأهرب منها إلَّا في حالة الطَّلاق".

ذهبنا للشبونة لنتناول الغداء في مطعم أفيز، حيث كان مكتظًّا بالزَّبائن، وكان الجنود الألمان والبريطانيُّون يملأون المطعم، وبينما كنَّا جالسين ننتظر الغداء لمحت شخصًا ما من السِّفارة ينظر من الباب الخارجي وكأنَّه يبحث عن شخصٍ ما، عندما تلاقتْ عيوننا أشار لي فذهبتُ له وقدَّمت له نفسي، فأخبرني أنَّه ذهب في البداية لكاسكيس وعرفوه إنّنا هنا في أفيز، وقال لي: "حسنًا أنَّك جئت قبل مسز هولت يا سيّدي، ابنها أصيب في حادثة والحالة خطيرة"، وكأنَّ سيرين أدركتْ ما يقوله لي رأيتها تأتي بسرعة لنا وهي تصيح: "هل جرى أيّ شيء لجونوثان؟".

تلعثم الرَّجل في كلماته وكأنَّه يبحث عن كلمات مناسبة: "أخشى أنَّ هناك حادثة ولم أتلقَّ إلَّا رسالة مختصرة، آسف، إنَّه لقى حتفه". فانهارتْ سيرين على الفور وأغمى عليها، وحاولتُ أنْ أعدلها وأساعدها لكي تفيق، فرفعتها بمساعدة الرَّجل الذي معي وذهبنا لمكان قريب وطلبنا براندي وأجلسناها على الكرسي حتَّى أفاقتْ، كلّ ذلك وأنا أكتم مواجعي داخلي ولكن أحفظ توازني، قالتْ والألم على وجهها واضح جدًّا: "آسفة

لأنّي لم أتمالك نفسي، ولكن قلْ لي ما حدث بالضّبط؟"، فقال: "أثناء خروجه مع مربيته جرى للشَّارع المقابل فاصطدم بسيَّارة فمات على الفور". سألته: "مَن الذي أخبرك بهذا؟"، فأجاب: "السّيّد كينج، فهو رجل صناعة كبير وله اتّصالاته، اتَّصل بالسّفارة وفي الوقت نفسه رتَّب عودة السّيّدة هولت غدًا".

بعد أنْ رحل رجل السِّفارة جلسنا أنا وسيرين صامتين للحظة طويلة قالت بعدها: "لن أستطيع أنْ أعود لكاسكيس"، فقلتُ لها: "سنبقى هنا"، فردَّت قائلة: "أبقى، لقد رتبت لي غرفة في الفندق، أريد أنْ أبقى لوحدي"، فقلت لها: "هل ستتركينني وحدي؟"، فردَّت: "إنِّي أشعر بأنَّ ما يحدث لي عقاب"، ذكّرتني بالجملة نفسها التي قالتها بارمي عندما ماتت بنتنا، فرحتُ أستجديها: "لو سمحت، أنا في حاجة للمواساة مثلك تمامًا، أريد أنْ نفضي دمعنا معًا، إنّنا لا ندري متى نتقابل مرَّة أخرى"، فقالت: "هذا لا يعني أنِّي لا أحبّك، ولكنّي لا أستطيع، إنَّ كلَّ ما حدث هو عقاب ولن أغفر لنفسي أنّي تركت جونوثان مع مربية لكي آتي وأمارس معك المتعة، لو أنّي لم أحضر من أجل المتعة معكَ لما حدث له ما حدث؟ وهلْ لو أنجبنا طفلًا سأتركه في يومٍ ما لكي أمارس المتعة مع شخصٍ ما؟". وضعتُ ذراعي حولها فدفعتها بعيدًا وهي تقول: "من فضلك، اذهب، الآن لو سمحت، هذا أفضل".

ـــ وملابسك...

ـــ انسها، لا أريد أنْ أرى أيَّ شيءٍ من كاسكيس أبدًا، تخلّص منها، أرجوك اذهب.

ثم اتجهت للاستقبال بسرعة وطلبت المفاتيح، واستطعت أنْ أسمعها وهي تقول: "لا زوّار، لا تليفونات إلّا من السّفارة الأمريكيّة"، ذهبت للمصعد، آخر شيء رأيته منها ساقاها الرَّشيقتان وهي تدخل المصعد، في داخلي كنتُ أتوقّع تمامًا ما ستفعله عندما ترجع لنيويورك، وبالفعل بعد ستّة أسابيع أرسلت لي برقيّة تقول إنّها تزوّجت بروس كينج.

٣٧

كان الخطاب طويلًا ومشتتًا، أخذت أقرؤه بألم...

"عزيزي مارك... بقراءتك لهذا الخطاب أكون قد تزوَّجت من بروس كينج، وأريد أنْ أشرح السَّبب. قبل أنْ أفعل ذلك أودُّ أنْ أؤكِّد لكَ أنَّه لن يأخذ مكانك أحدٌ حتَّى إذا كنَّا لن نتقابل مرَّة أخرى، وأودُّ أنْ أفسِّر سلوكي الأخير معك، لقد كنتُ في حالة مزرية وغاضبة في الوقت نفسه؛ لأنِّي تركتُ جونوثان وحيدًا في مكان بعيد. أرجو أنْ تفهم أنَّ الزَّواج بالنِّسبة للمرأة المصريَّة هو فقط جزء من حياتها، وأعلم أنَّه لا يمكننا أنْ نتزوَّج بسبب زوجتك وتعصّبها الدّيني. أعرف أنِّي حطّمت حياتكَ، بل حياة هولت بأسرها بزواجي لجريج وما سببتُ له، وقتلي لجونوثان بسبب أنانيتي وإهمالي، والآن لا أستطيع أنْ أعيش وحيدة بكلِّ تلك الهموم، أريد كتفًا أستند عليه، رغم حبِّي لك. ليس الزَّواج بالضَّرورة حبّ وعاطفة، بل احترام وعشرة، وتلك الزَّواجات أحيانًا تكون أفضل. كلّ التَّقاليد في بلدي تقول إنَّ دور الزَّوجة هو أنْ تساعد الرَّجل. لذلك تزوَّجت رجلًا طيّبًا وكريمًا، لن يضربني، وأدعو أنْ أكون زوجة صالحة للرَّجل الذي يحاول أنْ ينقذني من الذِّكريات الأليمة عن جونوثان. لكن بالنِّسبة لك، أرى أنَّ زواجي سيجعلك تكسر السّلاسل التي تقيّدك. أتمنَّى لك السَّعادة، فأنا أحبّك. أرجو ألَّا تعتبرني امرأة سيّئة، أنا امرأة مصريَّة. رغم أنّنا افترقنا في حالة غضب فإنَّني لن أقول وداعًا، ولكنْ أقول كما قلت لكَ في أوَّل خطاب أرسلته لك من أمريكا. أحبك".

يا له من خطاب حزين! لكن السّلاسل التي تقيّدني هي روابط ربطتنا معًا، والزّواج لم يكسرها، ولكن بطريقةٍ ما بدتْ كأنَّها أزاحت حملًا من على ظهري. لقد وضَّحت سيرين بطريقتها المصريَّة أنَّ المحيط يفصل بين الحبِّ والزَّواج، فهل نزلتُ أنا لكي أصير عاشقًا عند الحاجة، إذا التقينا مرَّة ثانية؟ ومع ذلك مَن ذا يستطيع أنْ يغضب من سيرين؟ ورغم اعتقادي بأنَّنا لن نلتقي مرَّة أخرى فرباطها الوحيد بالماضي، ابنها، قد مات، ولكنَّها تحتاج سنين للتَّأقلم، فقد تربَّت في مصر على عادات وتقاليد مختلفة عن نيويورك، يالها من مسكينة.

كان ردُّ فعل سرِّي باشا أنَّه اندهش: "إنَّنا لا نعرف عنه شيئًا"، وكان ردّ فعل مدام سرِّي فرنسيًّا: "نعرف أنَّه ثري"، أمَّا شيفون فقالت: "أكيد جذَّاب، أتمنَّى لها السَّعادة كما كانت مع جريج، مسكينة الأوَّل جريج وبعدها ابنها". جاء دوري فقلت بشكل قاسٍ: "لن يستمرَّ الزَّواج طويلًا"، فنظر لي أبي باستغراب قائلًا بغضب: "مارك! ما الذي جعلك تقول مثل هذا الكلام السَّيِّئ؟"، فقلتُ بشراسة: "إنَّه رجل مريض، كما أخبرتني سيرين في خطاباتها قبل زواجهما، ولقد أصيب بأزمتين قلبيَّتين، وطلّق ثلاث مرَّات"، فاستغرب أبي وقال غير مصدِّق: "ثلاث مرَّات!؟"، وكان تعليق سرِّي باشا: "لا أفهم لماذا فعلت هذا"، فقلتُ وأنا أخفي مرارتي: "أكيد لم تحتمل موت ابنها ولم تجد مَن تلجأ إليه إلَّا هذا الرَّجل بروس كينج"، فقالتْ شيفون: "لم يكن من المفروض أنْ تسافر من البداية".

تركتنا مدام سرِّي لمقابلة، وتمشّيت مع سرِّي باشا عبر الحديقة حيثُ قال لي وهو يتنهّد: "كنتُ أتمنَّى أنَّكما أنت وسيرين..."، فقلتُ: "وأنا أيضًا"، فقال: "لو أنَّ ما قلته بأنَّه مريض، فيمكن تنتظر"، فقلتُ له: "وأصبح مكانه؟! ولا تنسَ أنِّي متزوِّج"، فتنهَّد قائلًا: "يا ليتني لم أطلب منك أنْ

ترعاها في أوَّل الأمر، وهلْ هي لا تريد الطَّلاق؟"، فأجبته: "أتمنَّى ذلك، ولكنَّها لم تظهر أيَّ شيء يوضِّح رغبتها في ذلك، وتعيد دائمًا نيَّتها للعودة للقاهرة".

في مرَّة من المرَّات التي كنتُ أخرج فيها مع شيفون لسينما مترو، إذْ إنَّها الوحيدة المكيَّفة في القاهرة، قرأت عليها جزءًا من خطاب بارمي "إنِّي أحاول العمل في إرساليَّة للرَّاهبات الكاثوليك التي ترعى اليتامى في الدُّول الأجنبيَّة، سأبلغك بما يحدث".

في طريقنا للسينما صاحت أمِّي فجأة: "انظر! ها هي البنت الهنديَّة، يجب أنْ أحيِّيها"، فسألتها: "مَن؟"، فأجابتْ: "البنت الهنديَّة التي من السِّفارة والتي قابلتها في المستشفى عند جريج". إنَّها ياسمين، أكيد عادت لسفنكس. قبل أنْ أوقف أمِّي كانت قد ربتت على كتفها وقال لها: "ألا تعرفينني، أنا السَّيِّدة هولت أم جريج، لقد تغيَّرت حالته بعد زيارتك له، أنا ممنونة لك.

وكأنِّي موعود بالمقابلات الصّدفة، فمرَّة بعد الظّهر قابلتُ "علي سرِّي" وهو يهمّ لركوب سيَّارة أمريكيَّة حديثة، فقلتُ له: "سعيد للقائك"، فردَّ بابتسامة صفراء: "أعلم أنَّه كان عملك ويجب أنْ تؤدِّيه، وأعلم أنَّك لم تكن تعلم أنِّي متورِّط في الأمر، فلا أحمل لك أيَّ ضغينة"، فقلتُ له: "أين تسكن هذه الأيَّام؟ في البيت؟"، فأجابني: "لا تقلق، في الشَّقَّة نفسها التي في الزَّمالك، ولكن من غير جهاز إرسال، إنّني أعمل عملًا مستقرًّا، لذلك كثير من البنات من حولي"، فلوَّحتُ له بيدي حيث بدأ التَّحرُّك وقلتُ: "حظّ سعيد".

بعد مرور بضعة أيَّام قابلتُ ستيفنسون وسألته عن عليٍّ فابتسم ابتسامته المعهودة: "نحن لا نهتمّ بهؤلاء الصِّغار، ولكنَّه مازال يقوم بأعمال غير مسئولة، ومازال على علاقة بعبد النَّاصر والإخوان المسلمين"، فقلتُ له:

"ولكنَّه قبطي لا يستطيع أنْ يكون عضوًا في الجماعة"، فقال لي: "طبعًا، ولكنَّه يعمل كضابط اتصالات، وأنا لن أثق فيه أبدًا".

بحلول عام ١٩٤٣ كانتْ مؤشرات الحرب قد تغيَّرت، فما زلنا بعيدين عن النَّصر، ولكنَّ الفيلق الخامس والثَّامن يحاربان في إيطاليا، والجيش الأحمر في الضّفَّة الشَّرقيَّة لنهر دنيبر، بينما في الهادي كان اللواء ماك أرثر قد أوشك أنْ يستردَّ غينيا الجديدة.

رغم أنَّ الفرصة تضاءلتْ أمام التَّجسُّس إلَّا أنَّ المخابرات مازلتْ مطلوبة خصوصًا أنَّ "فاروق" بدأ يثير القلاقل في منطقة القناة مما سبَّب عبئًا علينا لأنَّ آلاف الفرق والأسلحة تذهب لمحاربة اليابان في أقصى الشَّرق.

كنتُ مشتركًا في اكتشاف ما يبثّه فاروق من خلال مطبخه الإيطالي الذي يشمل الأربعة الإيطاليين بقيادة بولي الذي أصبح الذِّراع اليمنى لفاروق بعد موت صادق، فبولي صار القوَّة الفعليَّة خلف السّتارة.

أعددنا ـ مونسون وأنا ـ تقريرًا أرسلناه للسَّفير. قام لامبسون من مقعده غاضبًا: "لماذا لم يتم اعتقال هؤلاء الطَّليان؟ إنَّهم أعداؤنا، أنا سأخرسهم فورًا".

يتطلَّب الاعتقال عدَّة أيَّام لكي يتمَّ تنفيذه، وبناءً على ما قاله سرِّي باشا اشتاط فاروق غضبًا لما سمع ما يحدث، فصاح في سرِّي باشا: "اعمل أيَّ شيء، فهذا الرَّجل لامبسون ليس له سلطة للتَّدخُّل مع أصدقائي، قلْ له ذلك"، فتردَّد سرِّي: "لا أعتقد أنَّه بإمكاني سعادتك، فهم من الأعداء"، فقال فاروق بغطرسة: "لن يكونوا كذلك بعد الآن، لن أتملَّق لهذا الحقير لامبسون، أعد مرسومًا الآن بمنح أصدقائي الطَّليان الجنسيَّة المصريَّة والدِّيانة الإسلاميَّة، الآن، قبل العشاء".

بهذا المرسوم لم يستطعْ لامبسون أنْ يفعل شيئًا، فهم الآن مصريُّون مسلمون أي محايدون. من مواقف فاروق الهزليَّة أنَّه أخبر الطَّليان الأربعة أنَّهم طالما صاروا مسلمين فيجب أنْ يختتنوا، فأعطاهم مشروبًا به مخدِّر، ووجدوا أنفسهم في الصَّباح مختونين. بجانب ذلك لم تتوقَّف مواقف فاروق خارج القصر من ابتزاز ونساء ونهم.

اعتاد والد فاروق وأجداده أنْ يبتزّوا غيرهم، مثلما فعل فؤاد مع سرِّي باشا، ولكن "فاروق" ابتدع طريقة أخرى، حيثُ أقنع سرِّي باشا أنْ يبيع يخت "فاكهة البحر" الذي اشتراه أبوه بمبلغ ٣٠٠٠٠ "جنيه استرليني"، للحكومة المصريَّة كيخت لكبار الزوَّار الذين يحبُّون النزهة في النِّيل، وذلك نظير مبلغ ١٠٠٠٠٠ جنيه استرليني، وبعد أن اشترته الحكومة كلَّفها ٣٠٠٠٠٠ جنيه لتكييفه، ثمَّ صادره فاروق من الحكومة.

أمَّا مغامراته مع النِّساء فكانت، حسب ما قال سرِّي باشا، مخجلة، فكان يدعو البنات لولائم باهظة ثُمَّ يذهب معهنَّ لغرفة النّوم وتخرج كلّ واحدة بكيس ذهب دون أنْ يفعل معها شيئًا. إنَّ عجزه الجنسي لا يرتبط ارتباطًا مباشرًا باضطراب الهرمونات، ولكن كلَّما زادت سمنته زاد خموله وهذا يؤدِّي لعجزه الجنسيّ. لا شيء يمكن فعله تجاه نهمه في الأكل أو عجزه أو رغباته، فشهيّته في الأكل كانت تزداد.

حكى سرِّي باشا تفاصيل وليمة من ولائم فاروق، حيث إنَّه كان يبدأ طعامه بالمحار وسرطان البحر، فسمك موسى يتلوها شرائح لحم الضَّأن مع أربعة أنواع من الخضار وستّة أنواع من الفاكهة، ويختتم بالأيس كريم والمياه الغازيَّة، حتَّى إنَّ زوجة صادق كانت تشمئزّ من طريقة أكل فاروق، لقد قالتْ لي شيفون مرَّة إنَّها قابلتْ زوجة صادق وإنَّها لا تزال تؤمن بأنَّ زوجها لم يمتْ موتًا طبيعيًّا.

٣٨

لقد تنفَّستْ أوروبا الصّعداء بعد انتهاء الحرب، فحقيقة كان يوم نصر الحلفاء عام ١٩٤٥ يومًا مصحوبًا بالألعاب النَّاريَّة وجلجلة الأجراس وصلوات الشّكر. إنَّما في القاهرة كانت الألعاب كئيبة والأجراس تطقطق والصّلوات نفاقًا. ما رأيناه في قصر النِّيل أو في قصر عابدين لم يكن موكبًا أشاد فيه فاروق بفرحة الجماهير، بل شبيهًا بنهاية مباراة ملاكمة. إنَّ الفتور الذي ساد الاحتفالات في القاهرة له عدّة عوامل، الكراهية للبريطانيين ولفاروق، وازدياد الأغنياء ثراء وازدياد الفقراء فقرًا؛ مما ساعد في ازدياد شعبيّة الضّبَّاط الصّغار.

إنَّ وجود الضّبَّاط الأحرار مازال سرًّا، ولكن هذا السِّرّ امتلأ بالأمل في فترة جديدة لمصر، نفس الأمل الذي كان يوم اعتلاء فاروق العرش واليوم الرَّغبة في إنزاله من العرش.

إنَّ الأزمة الاقتصاديَّة بلا شكّ في صالح ناصر والسَّادات وصحبتهما.

لقد زاد عدد المليونيرات في مصر من ٥٠ مليونير في سنة ١٩٤٠ ليصل إلى ١٤٠ مليونيرًا خلال ثلاث سنوات، وزاد في الفترة نفسها رصيد البنك من ٤٥ مليون جنيه إلى ١٢٠ مليون، والفنادق تضاعف دخلها، وكذلك شركات القطن والسّكَّر والعقارات.

ارتفعت معدّلات القمار في نادي رويال القاهرة، الذي كان يرتاده فاروق بكثرة، وحيثُ كان أحيانًا يجلس في غرفة الحارس ليأكل المحار، أو يشارك في رأس السَّنة في وليمة تتكوَّن من ٣٥ صنف، لقد خسر في ذلك العام ٨٥٠٠٠٠ جنيهًا في القمار.

كلّ ما حدث كان في صالح الأغنياء، أمّا بالنِّسبة للفلّاحين فإنَّ الأجور لا تستطيع تغطية ارتفاع الأسعار، فالأسعار ترتفع قبل زيادة الرَّواتب، بل وبمجرَّد الحصول على الزِّيادات تكون الأسعار قد ارتفعت مرَّة أخرى. لم يكنْ يهمّ الغني إذا كانت الوجبة في شبرد تساوي جنيهًا أو اثنين، أمَّا بالنّسبة للفلَّاحين فالأمر كان سيئًا لدرجة أنَّ الحكومة أعفت ملايين المزارعين في عام ١٩٤٢ من الضّرائب.

بالنِّسبة للإخوان المسلمين، فالأمر ساعدهم لإشعال الفوضى، فهم في كلِّ مكان، يعقدون اجتماعاتهم ويزرعون عملاءهم في الآخرين.

كانت هناك مشكلات أخرى؛ فالمحلّات تضخَّمت، وبيوت الدَّعارة اكتظَّت، ومع ذلك فإنَّ السِّلع التي لا يستغني عنها الفلّاحون اختفت. كلّ زوجة في مصر لا تستغني عن وابور الجاز، ولكنْ فجأة اختفى الكيروسين، وهناك سبب آخر لزيادة المرارة؛ الهجرة من الرِّيف للمدن بسبب فرص العمل، حيثُ إنَّ الجيش البريطانيّ استخدم حوالي ٢٠٠٠٠٠ مدني قبل أنْ تنتهي الحرب، نصفهم تقريبًا مهرة وشبه مهرة، وهؤلاء كوَّنوا نقابة عمّال، وسرعان ما أضربوا ضدّ ساعات العمل الطَّويلة وانخفاض الأجور، وفي الوقت الذي أعلن فيه حقّ الإضراب أدرك الفلَّاحون أنَّه لو احتفظ البريطانيُّون بفاروق ملكًا لسحق الإصلاحات التي اكتسبها النَّاس؛ لذلك رجال مثل ناصر والسَّادات تيقَّنوا أنَّ الفكرة الأساسيَّة يجب أنْ تكون في طرد الانجليز وفاروق أيضًا؛ لذلك كانت كلّ القطاعات في الحياة المدنيَّة تتقدَّم نحو مهمّة الضّبَّاط الأحرار.

وكما قال أبي: "فاروق يرى اللمبة الحمراء هي كلّ شيء، ولكن في كلوت بك فقط، الرَّجل من الغباء الذي سيكلّفه العرش، إنَّه بليد وشهوانيّ".

أبي الآن بلغ السَّبعين من عمره وبدأ عمره يظهر عليه، وإنْ كان لا يزال يحتفظ بحيويّته ولازال القوَّة الفعليَّة في العلاقات الأنجلو أمريكيَّة. كان أبي يحبّ ارتباطه بمكتبه ويحبّ طاقم الخدم القديم وعلى رأسه زولا، الذي أحضر ابنه من النّوبة ليساعده ويحلّ مكانه، وكعادة أبي في مفارقاته أطلق اسم إميل على ابن زولا ليصبح إميل زولا.

العلاقة بين فاروق والرَّعيَّة ساءتْ أكثر، عندما طلَّق الملك فاروق الملكة فريدة في عام ١٩٤٨ وكان الشَّعب بأسره يحبّها، ولما سبَّبه الملك لمحبوبتهم من معاناة. لم يعد يتقابل الملك والملكة إلَّا في المناسبات الرَّسميَّة، بل وأعاد الملك نساءه للقصر، ولم يعد لفريدة أيّ قوَّة تواجه بها ما يحدث. لما تمَّ الطَّلاق رسميًّا عادتْ فريدة لاسمها القديم "صافيناز ذو الفقَّار" ورجعت للفيلَّا التي بنتها قرب الهرم.

في الفترة التي تمَّ فيها الطَّلاق بين فاروق وفريدة تمَّ الزَّواج بين تيدي وإنجيلا في بيروت، ثمَّ عادا ليقيما الطّقوس كاملة في الكاتدرائيَّة البريطانيَّة، وكنتُ أنا الإشبين. لقد طلبَ منِّي تيدي أنْ أرسل لسيرين لكي تحضر، ولكن لم أجرؤ لأفعل ذلك، ليس لأنَّها زوجة كينج، ولكن لما قالته شيفون عن زوجة صادق؛ فسيرين قتلتْ "صادق"، ومن الأفضل أنْ تظلّ بعيدة.

لم يعد العمل في المكتب مجديًا بعد الحرب، فلا الأغنياء ولا الفقراء عادوا يحبُّون الوقوف في المحاكم.

بين الحين والآخر كنَّا سيرين وأنا نتراسل ونعبر بين السُّطور عن العواطف التي لازالتْ بيننا، وكنتُ أستشفّ أيضًا تغيّرها؛ فهي لم تعد سعيدة كما كانت في البداية؛ لأنَّ كينج رجل اجتماعيٌّ أكثر من اللازم وهي صارتْ متوتِّرة لدرجة أنَّ ذلك انعكس على رسمها الذي أرسلتْ لي منه البعض.

راودتني فكرة الذّهاب لنيويورك، ولكنّي رفضتها لأنّي لا أريد أنْ أقابل كينج في المرَّة الأولى في نيويورك. وبالطَّبع كنَّا كأسرتين نخطِّط للسَّفر لنيويورك على حسب وعد سرِّي باشا، ولكن "سرِّي" في هذه الأيَّام لم يكن في حالة تتيح له الوفاء بوعده، فبدلًا من ذلك سافرتْ مدام سرِّي لنيويورك وقابلتْ سيرين وزوجها وعادتْ بانطباع أنَّ نيويورك غير متحضِّرة، فسألتها: "وكيف صحّة زوجها؟"، فقالتْ: "يبدو عليه المرض".

في عام ١٩٥٠ حدثتْ ثلاثة أحداث، فقد استقبلتْ في بضعة أيَّام ثلاث رسائل أوَّلها كانتْ من بروس كينج:

' عزيزي هولت مارك... رغم أنِّي لم أقابلك إلَّا أنِّي أشعر بأنّي أعرفك من عمر طويل لما تحكيه عنك سيرين، على الأقلّ أنت حارسها! على أيّ حال، فهذا خطاب عمل، فأنا أريد أنْ أدمج شركاتي المتناثرة في بقاع العالم في مظلَّة واحدة، في سويسرا، فلو كانت ظروفك تسمح أنْ تشاركنا في النَّواحى القانونيَّة فلنتقابل لنتكلَّم في التَّفاصيل. سوف أكونُ في مونت كارلو ومعي المحامون الأمريكيُّون، سيقيمون في فندق دي باريس، أمَّا أنت فيسعدني أنْ تقيم معنا أنا وزوجتي في الفيلَّا. إذا كنت ستحضر سأجعل السّكرتارية ترتّب لك كلَّ شيء. المخلص... بروس كينج".

أمَّا الخطاب الثَّاني فكان من سيرين:

"عزيزي مارك... بروس يريد أنْ يقابلكَ ولكن أنا أكثر، إنَّه يريدك لدمج شركاته. إنَّه يعرف أنّك تحبّني وما فعلناه في كاسكيس. إنَّه مريضٌ جدًّا جدًّا ولا يريد إلَّا صحبة زوجة. تعالَ من أجلي، أحبّك" .

مَن ذا يرفض مثل هذا الخطاب، ففكرة أنْ أقابل كينج أعجبتني وكذلك المقابل الذي يمكن أنْ أحصل عليه في مقابل ذلك. إنَّ خط سيرين في الخطاب وذكرياتي معها كان له أثر كبير على نفسى، ورحتُ أتخيّلها وهي

عارية على سرير في سقَّارة، إنَّها سيرين، ولربَّما هذا هو سبب عدم إقامة أيّ علاقة مع أخرى.

لأكثر من مرَّة أشارت سامية لوجود بنات جدد أضافتهنَّ لما تسمِّيه "الحريم". جرَّبتْ إحداهنَّ ذات مرَّة وكانت جميلة وممشوقة القوام وحركاتها تغري أيَّ رجل، فما أنْ هممتُ بها حتَّى رأيتُ خيال سيرين فتركتها. نظرتْ لي الفتاة بفزع كما لو أنَّها اعتبرتْ أنَّ فشلي معها هو إهانة لمهارتها، فحاولتْ معي بطرق مختلفة لتثيرني، أحسستُ بالخجل من نفسي وانتابني الخوف؛ فهل أصابني العجز في هذه السِّنِّ المبكِّرة، ٤١ سنة؟ بالطَّبع لم يكن الأمر هكذا، ورحتُ أعيد قراءة خطاب سيرين، يجب عليَّ أنْ أكون مسئولًا ولو أغوتني سيرين إذا ذهبت لمونت كارلو، أي نعم زوجها لا يمارس معها المتعة، ولكن هل أستطيع أنْ أقول لها "لا" إذا ابتسمتْ لي ابتسامتها المعتادة ولاسيَّما أنِّي ضيف على زوجها، ورغم أنِّي أعلم أنَّ القوانين التي تنظّم سلوك زوجات العملاء مع المحامين صارمة جدًّا.

أمَّا الخطاب الثَّالث فكان من بارمي والذي أخبرتني فيه بأنَّها موافقة على الطَّلاق؛ لأنَّها قرَّرت الالتحاق بالإرساليَّة الكاثوليكيَّة والتي تشترط عدم الزَّواج. إجراءات الطَّلاق في مصر تعتمد على التَّوقيع على استمارات معيَّنة وغير معقَّدة حسب القانون المصريّ المستمدّ من القانون الفرنسي منذ أيَّام المحاكم المختلطة، والذي يعتبر الزَّواج مدنيًّا لا دينيًّا، ولا يعتبر وجود بارمي في أمريكا عقبة، فالمهم أنَّ الطرفين كانا مقيمين في مصر وأنَّهما موافقان كلاهما على الطَّلاق. وفي الوقت نفسه أرسلتْ لبروس كينج برقيَّة أعرب فيها عن موافقتي وذهابي لمونت كارلو.

٣٩

لما استقرّيت على التَّاريخ سافرتُ أوَّلًا من القاهرة إلى باريس؛ لأنَّني كنتُ مديونًا بزيارة لشركة كنتُ أعمل لها بجوار السّفارة البريطانيَّة، ولأنَّ الرّحلات من القاهرة لـ"نيس" نادرة، بالإضافة إلى أنَّ القطار الأزرق من باريس للجنوب ممتع جدًّا.

كانتْ رحلة القطار، والتي تستغرق ليلة بطولها، ممتعة جدًّا، فلقد قضيت عمري بين القراءة والحديث مع الزَّبائن والآن الرِّحلة هادئة بدون حتَّى كتاب تنقلك من جوّ غير مستقرّ لشمس وزهور.

بدأت الرِّحلة لمونت كارلو تشغل فكري بكثير من التَّساؤلات، فأنا لم أقابل بروس كينج إلَّا من خلال الصُّور، وتخيّلتُ له شخصيَّة أمريكيَّة برسم ابتسامة مقنَّعة تخفي وراءها قسوة أو حبَّ الامتلاك والغيرة. هل يتَّخذني كينج رهنًا ليتأكَّد بأنَّه لن يفقد سيرين؟ وهلْ يأمن لي لأنّي لحدِّ علمه متزوِّج، وماذا سيكون الوضع لو أخبرته أنِّي في طريقي للطَّلاق. هلْ كينج صادق في استضافتي في الفيلَّا وهو يعلم ما حدث بيني وبين سيرين في كاسكيس؟

مرَّ القطار في طريقه على "كان" و"نيس" وبعض المحطَّات الصَّغيرة حتَّى توقّف القطار في محطَّة مونت كارلو التي في غاية الأناقة. عندما أطللتُ برأسي من النَّافذة رأيتُ سيرين تلوِّح لي وترمي بقبلات في الهواء، احتضنا بعضنا البعض وضممتها لي وهي تهمس لي: "افتقدتكَ كثيرًا"، وأخذتُ أتأمَّلها، لقد مرَّتْ سبع سنوات منذُ آخر مرَّة رأيتها فيها، منذُ أنْ مات جونوثان، سبع سنوات منذُ أنْ تزوَّجت الرَّجل الذي ظننا جميعًا أنَّه

لن يعيش أكثر من بضعة شهور. لقد كانت سيرين أنيقة وجميلة كالعادة وإنْ صارت أكثر نضجًا وثقة في النَّفس بحكم أنَّها زوجة رجل أعمال أمريكي مجامل، كانت ترتدي جونلة بيضاء مزركشة وبلوزة حرير مفتوحة عند الصَّدر وتطوق رسغها أساور من ذهب، وتفوح منها رائحة جذَّابة.

خرجنا من المحطَّة وركبنا سيَّارتها الاستايشن التي قادتها بنفسها تحت سماء مونت كارلو الزَّرقاء ببراعة في الطَّريق الرَّئيسي أعلى الهضاب، قالتْ لي: "بروس ينتظركَ في الفيلَّا، وخذ في بالك أنَّه أصيب بأزمتين في القلب قبل ذلك فهو يأخذ الأمور ببساطة"، فقلتُ لها: "أنا جئتُ هنا للعمل ولأمتِّع نفسي بشرط أنّكِ تتصرَّفي بمسئوليّة"، فضحكت قائلة: "وهل تضمن هذا؟".

الفيلَّا عبارة عن مبنى مربَّع أبيض بستائر برتقاليَّة تحيطه حديقة غنَّاء، وهي قريبة من الطَّريق الرئيسية واسمها فيلَّا فلور. بمجرَّد أنْ وصلنا للبوَّابة شغَّلت بوق السَّيَّارة ففتحت لنا البوَّابة عبر ممر ضيّق ودخلنا الجراج الذي به صينيَّة لدوران السَّيَّارة مثل صينيّة القطار، وصعدنا المصعد الذي كان في حالة ممتازة بدون صرير كالمصاعد الفرنسيَّة. عندما وصلنا الطَّابق الرَّابع فتحت لنا خادمة متوسّطة العمر، نادتها سيرين بأنطوانيت، الباب يؤدِّي لغرفة معيشة مشمسة تطلّ على البحر، نادتْ سيرين: "بروس"، فجاءنا صوت من الشّرفة: "حاضر"، كان صوته بشوشًا، وكان يجب عليَّ ألَّا أندهش عندما رأيته وكأنّه هيكل عظمي، وجهه نحيف وذو تجاعيد ووجناته متهدِّلة. صافحني بقوَّة مرحبًا بي: "سعيد لرؤياك، دعنا نتناول القهوة".

الشّيء الغريب أنَّه كان يبدو أنَّه لا يلاحظ أيَّ شيء، وأعتقد أنَّ الثَّروة إذا اجتمعتْ مع الشَّخصيَّة المكافحة التي كوَّنت ثروة طائلة تجعل صاحبها ينظر للحياة نظرة خاصَّة، ليستْ نظرة مستبدَّة ولكن غير مبالٍ لردّ فعل الآخرين.

في اليوم التَّالي لمحتُ كينج ونحن على الغداء ينظر لي نظرة متفحِّص كما لو أنَّه يدرسني، قلتُ له بطريقة مازحة: "هل هناك شيء يا بروس؟ هلْ ملابسي لا تناسب مونت كارلو؟"، فضحكَ ضحكة جعلته سلسًا: "هلْ كنتُ أنظر لك؟ آسف. لكن لو قلت لك فيما كنت أفكِّر فيه لاستغربت"، فصاحتْ سيرين: "قلْ، أخبرنا"، فاستدار لها وقال: "بصراحة، يا عزيزتي كنتُ أفكِّر كم كنتِ أنتِ غبيَّة"، فقالتْ: "أنا؟"، فردَّ: "نعم، كيف لم تخطفي رجلًا كمارك كزوج قبل أنْ أظهر على السَّاحة؟". هكذا قضينا الوقت في المزاح المحسوب والنّكت المؤدّبة، وكان يسيطر على تفكيري هلْ سنستطيع سيرين وأنا أن ننام معًا؟ وما هو تفكير بروس؟ هلْ لا يظنّ أنِّي أتوق لهذا، أو أنِّي لن أفعل ذلك مع زوجته، وماذا سيفعل لو أنَّه اكتشف أمرنا؟

كان هناك ضيف رابع معنا، الدّكتور سيفير، طبيب بروس الشَّخصي، وعلى حسب ما قالتْ سيرين، كان يسافر معه في كلِّ مكان. لما كنَّا أنا والطَّبيب لوحدنا للحظات أخبرني بتفاصيل مرض بروس: "كان من المتوقَّع أنْ يموت بروس من زمن طويل، ولكنّه ظلَّ حيًّا بفضل علاج جديد، دون الدُّخول في التَّفاصيل الفنيَّة، هناك علاج جعل جدران الشَّرايين أكثر مرونة تساعد في تدفُّق الدَّم، ولكن أخشى أنْ تدوب؛ مما يثير المخاوف، وبروس يعلم هذا". المفارقة التي رأيتها أنَّ سيرين كانت

مندفعة للحياة وكأنَّها تريد أنْ تحشر الأيَّام في بعضها، أمَّا بروس برغم أنَّه كان هو المريض لم يكن مندفعًا. في تلك الليلة الأولى ذهبنا نحن الأربعة لأحد الكازينوهات، وراحتْ سيرين تندفع لطاولة الرُّوليت لتلعب القمار بمبالغ كبيرة. سألتها مندهشًا: "إنَّها لن تفرق معك سواء كسبت أو خسرت"، فقالت: "بل تفرق، فالمسألة مسألة تحدٍّ وليستْ مسألة أموال"، وكانتْ قد كسبتْ بعض المال قبل أنْ يستأذن بروس للذّهاب للنّوم قائلًا: "يجب أنْ أنام السَّاعة العاشرة والدّكتور سيفير صارم في تعليماته، ويمكنكما يا مارك أنت وسيرين أنْ ترقصا وتقضيا السَّهرة وأيضًا تدفع لها ثمن العشاء لو أنَّها خسرتْ أموالها"، فقالت سيرين ضاحكة: "لن أقبل منه بنسًا واحدًا". وأخذ الدّكتور سيفير بروس بعد أنْ قبَّلَ سيرين وقبَّلته.

أخذتُ أفكِّر مرَّة ثانية في ماذا يفكِّر بروس، وشعرت بوخزة في الضَّمير، فهو زوجٌ كريم وطيّب بالنّسبة لسيرين، ورجل أنا ضيف عنده.

للحظة تملَّكتني رغبة شديدة في أنْ أترك الصَّالة بقعقعة الماركات، وصيحات مديري صالات القمار وتهليل الفائزين، وأتسحَّب بعيدًا من الكازينو، بعيدًا عن مونت كارلو، بعيدًا عن سيرين، ولكن لم يكن هذا إلَّا هراء.

بعد أنْ غادر بروس والدّكتور الكازينو، بقينا سيرين وأنا في سكون الكازينو المفاجئ، فقطعت الصَّمت: "المتعة بالنِّسبة لي شيء عظيم، وما أحلاها إذا كنتِ لا تزالينَ تحبينني"، فقالتْ: "وسأظلّ أحبّك للأبد"، ثمَّ دعتني لنشرب كاسًا في البار، واستأنفتْ: "بالنِّسبة لبروس فهو يعرف أنِّي أحبّك ويتوقَّع أن نمارس المتعة إذا تقابلنا وهو لا يمانع في ذلك، فلقد

وعدني أنْ أمتّع نفسي ما كان ذلك في طيّ الكتمان، وبالتَّالي وعدته ألَّا أتركه أبدًا، بروس أنقذني وقال لي حين تزوَّجنا إنَّه لن يستطيع ممارسة المتعة معي جسديًّا وصرَّح لي بإمتاع نفسي، فلا تقلق، إنَّ الرِّجال الأغنياء في أمريكا حظّهم سيِّئ".

جلسنا في ركن هادئ في البار ذي الضّوء الخافت، وجاء الجارسون ليخبر سيرين أنَّ بروس حاسب على زجاجة شامبانيا قبل مغادرته، فقلتُ لها فجأة: "هلْ أنتِ سعيدة يا سيرين؟"، فقالتْ هذا يعتمد على ما تريد من الحياة"، فقلتُ: "المال؟"، فقالتْ بنبرة حزن: "هي تساعد، ولكن لا تشتري كلّ ما تريد".

بينما كنَّا نحتسي الشَّامبانيا قلتُ لها: "لقد أصبحت حرًّا، لقد وافقت أخيرًا بارمي على الطَّلاق"، فصاحتْ وأسقطت الكاس من يدها وهي تضغط على يدي بقوَّة، ورأيتُ في عينها تلك النَّظرات التي تشتعل بالرَّغبة، وقامت: "هيَّا بنا، إلى السَّيَّارة".

انطلقتُ بالسَّيَّارة لمنطقة الشَّاليهات في شاطئ مونت كارلو، وأخرجت الكشَّاف من جيبها لنتَّجه للشَّاليه الخاصّ بها وهي تقول: "الآن، بعد أن التقينا مرَّة أخرى، أريد أنْ أمارس المتعة كما في سقَّارة"، وأخذتْ يدي بين أشجار الصّنوبر حتَّى وصلنا للشَّاليه، كان الشَّاليه مظلمًا إلَّا من ضوء القمر، أسرعتْ سيرين بخلع ملابسها وهي تحثّني لخلع ملابسي: "بسرعة يا مارك"، ركعتْ وهي تغرقني بالقبل وصدرها يهتزّ على ركبتي وأنا واقف أرتعش: "كفى، سأصل للقمَّة"، ولكنَّها لم تتوقَّف حتَّى وصلت للرَّعشة. فقلتُ لها: "لماذا فعلتِ ذلك؟"، فقالتْ لأنِّي أحبّك، ووقفت وأخذتني للسّرير، وهي تردّد: "لا أحد يستطيع أنْ يفعل ذلك إلَّا إذا كان

يحبّك، أو كنت في "الحريم" في مصر"، سألتها مرَّة أخرى: "لماذا فعلتِ ذلك، لم تفعليه من قبل، ولا أحد فعل معي ذلك"، فقالتْ: "كم وددت ذلك من قبل، وهذه المرَّة كنت مثارة جدًّا، ألا تروق لكَ يا سيّدي هذه الطَّريقة؟"، فقلتُ: "تروق أيَّتها الأمة!"، وضحكت، أخذت تقبّلني وتدلّك جسمي هامسة: "الآن مارس معي مرَّة أخرى بالطَّريقة التي تريدها"، فقلتُ: "العاديَّة"، وضحكت مرَّة أخرى، وضحكت بدورها: "فلَّاح"، وبدأتْ تدغدغ في جسمي لكي أستعيد حيويَّتي لمرَّة ثانية، وبعد أنْ أشبعتها قالت: "هيَّا نسبح في البحر"، فقلتُ: "ليس معي لباس بحر، وليس عندي طاقة"، فقالتْ: " لقد سبحتَ عاريًا قبل ذلك في كاسكيس، أم أنَّك خائف من قنديل البحر يعض جهازك الصَّغير!؟ بعد أنْ سبحنا أخذتْ تقهقه، وكأنَّ ممارسة المتعة أطلقتْ أرواحنا من كبتها وطلبتْ أن نتسابق فقلت: "لقد بذلتُ مجهودًا أكبر منكِ"، فقالتْ: "ولكنِّي شاركتك فيه وساعدتك عليه".

جاء الحارس بطريقة مؤدّبة ليتأكّد من شخصيَّتنا وحيَّانا وانصرف لمكانه في أدب، ورحنا نغطس في الماء ولم أستطع أنْ ألاحقها. تسلَّقت لقارب كان هناك، وسحبت نفسي بالكاد لكي أعتلي القارب وهي نائمة على ظهرها، جسمها يعكس نور القمر، وقالت: "إنَّكَ متعبٌ يا رجل يا عجوز"، فقلتُ: "لستُ عجوزًا"، فقالتْ: "لم أمارس المتعة على قارب من قبل، هلْ جرَّبتها؟"، فقلتُ: "لا"، فقالتْ: "إذًا هيَّا فهذه فرصتك"، فقلت: "مرهقٌ جدًّا وقد فعلتها مرَّتين"، فقالتْ ألم أقلْ لك إنَّكَ عجوز، هيَّا لقد جاء دورك"، وجذبتْ رأسي بين ساقيها وأخذتُ ألمس بشفتي وهي تشدّ شعري للدَّاخل حتَّى ارتعشتْ بشدَّة من اللذَّة. ثمَّ

كرَّرت ذلك وبعدها دفعت رأسي بعيدًا، وتقوّست على السَّطح ثمَّ افترشت الأرض كنجمة البحر: "ياهنَّ من مسكينات أخواتي المصريَّات"، فقلتُ: "لماذا؟"، فقالتْ: "معظمهنَّ قمنَ بالختان، فلا يعرفنَ معنى المتعة"، عدنا للشَّاليه وتنشَّفنا، وكانت السَّاعة الثَّالثة صباحًا حين وصلنا للفيلّا وكان الجميع نائمًا.

جلسنا في الصَّباح، بروس وأنا، لنتناقش في العمل، حاولتُ بقدر المستطاع التَّركيز رغم صور الليلة السَّابقة لم تفارق خيالي. طلب منِّي بروس أنْ أحوِّل كلَّ شيء لسيرين ولا يذهب بنس واحد لزوجاته الثَّلاثة السَّابقات اللاتي هجرنه، وبعد أنْ تكلَّمنا في تفاصيل العمل سألته: "لماذا اخترتني أنا لهذه المهمَّة؟"، فقال: "لأنِّي أثق فيكِ"، فقلتُ: "رغم أنَّك لم تقابلني إلَّا مرَّة واحدة، وتعلم ما كان بيني وبين..."، فقاطعني: "أعلم ما بينك وبين سيرين، ولكنِّي توقَّفت عن ممارسة المتعة منذ الأزمة الثَّانية، ولن أستطيع أنْ أمنعها من أيّ شيءٍ لو أرادتْ، فقط أريدها بجواري، فلم ولن أتجسّس عليها، ولكن لي طرقي الخاصَّة لمنعها إذا أردتُ"، وبعد أنْ أحضر النَّادل القهوة استأنفَ: "أعلمُ أنَّك تحبّها ولهذا اخترتك، وتركتك لأتأكَّد من حبّكما، لقد سمعتكما تأتيان السَّاعة الثَّالثة صباحًا ولا أتوقّع أنَّكما كنتما تجلسان تتأمَّلان الجوَّ"، فشعرتُ بالخجل وبالذَّنب وهو يستطرد: "أردتُ أنْ أعرف أنَّكما مازلتما تحبَّان بعضكما البعض، وليس كما يقول المثل "البعيد عن العين بعيد عن القلب"، والآن أريد منكَ شيئين، أنْ تظلَّ مع سيرين حتَّى لا تبدِّد الثَّروة التي سترثها، وأنْ تتزوّجها بعد موتي حتَّى لا تتزوَّج آخر يطمع في ثروتها، لقد وعدتني أنَّها ستظلّ معي حتَّى النِّهاية، وأعرف أنَّها ستفي بوعدها".

لقد أزال بروس بفعله هذا كلَّ مخاوفي، يالها من سعادة أن تتزوَّج سيرين مرَّتين ولا تزال تحبّني، ولكن هذه المرَّة بجواز مرور من زوجها. لم أستطع احتمال التَّسلّل ففكَّرت في فندق كان أبي ينزل فيه وذهبتُ وحجزتُ غرفة لنا، وكنَّا نجيء بين الوقت والآخر.

في إحدى المرَّات وهي جالسة عارية صدرها في صدري العاري قالتْ: "لكم الأمر عجيب، أحبّك وتزوّجت جريج، وبعد أنْ مات جريج كنتَ أنت متزوّج، والآن أنتَ حرّ وأنا متزوّجة، كأنَّه مكتوب علينا أنْ نمارس المتعة بهذا الشَّكل، ياللنَّحس"، واستأنفتْ بعد أن استدرتُ لها: "لا، ليس نحسًا فأنا أمتعت بروس ولم أخذله كما فعلت زوجاته السَّابقات، لو تركتُه سيموت، ولكنَّ الدّكتور سيفير قال المسألة ستنتهي في شهور، وبعد أنْ يموت سأبكي قليلًا، ولكن هلْ نستقرّ في بريطانيا بعد زواجنا أم نعود لمصر، وساعتها سأكون سيّدة بريطانيَّة؟"، فقلتُ: "لا أدري، دعينا لا نسبق الأحداث".

قبل موعد سفري بيوم عقدنا اجتماعًا في مكتب بروس مع كلٍّ محاميه لنستكمل الإجراءات، وطلب منِّي الذّهاب لنيويورك في غضون شهرين لاستكمال العمل. ودَّعت بروس في الفيلَّا، وطلب من سيرين أنْ توصلني للمحطَّة لألحق بالقطار الأزرق. وقفتْ سيرين على الرَّصيف تائهة وهي ترمي بالقبل في الهواء، بينما كنتُ أطلّ من نافذة القطار على أمل أنَّنا سنلتقي بعد شهرين.

٤٠

لقد مات بروس في يوليو ١٩٥١، بعد عام تقريبًا من لقائنا في مونت كارلو، وفي خلال هذا العام كنَّا قد انتهينا من ضمِّ الشّركات تحت مؤسّسة واحدة؛ لأَنَّه أصرَّ على أنْ يتمَّ كلُّ شيء قبل وفاته، وكنتُ قد تفرَّغتُ تمامًا لهذا العمل واحتفظتُ بسالم في المكتب ليكون همزة وصل بين الفروع.

بالطَّبع كنتُ أقابل سيرين بانتظام بعد ذلك رغم حزننا العميق على بروس لما وصلتْ حالته الصِّحيَّة من تدهور في الآونة الأخيرة.

بعد شهر من الحدث قابلتُ سيرين في نيويورك لنعرفَ ما علينا من عمل، وأنَّ علينا الانتظار لوقت معقول حتَّى نتزوَّج ولكي لا نثير الشّكوك من حولنا. عندما قلتُ لها ذلك قالتْ: "تزوّجت بروس ثمانية أعوام ولم أكن امرأة مستغِلَّة مثل زوجاته السَّابقات"، فقلتُ لها: "أعلم هذا ولكن الكلام سيكثر بين المكاتب والفروع إذا ارتبطنا معًا في هذه الفترة، ولا تنسى القاهرة وما يستغلّه فاروق وزوجة صادق، إنّنا بذلك نعطي الفرصة السَّانحة لأعدائنا"، فقالتْ والدّموع على أطراف عينيها: "إنِّي أحببتكَ، وأخذتكَ لي ولكن هذا لا يكفي"، فحاولتُ أنْ أداعبها فقلتُ: "أوه، هوِّني عليكِ لماذا الكلام بصيغة الماضي، أحببتك وأخذت... ماذا عن الحاضر والمستقبل، فأنا أحبّك وسأحبّك للأبد، كلّ ما أتمنَّاه أنْ أستيقظ من النّوم وأجدك جنبي زوجة، وسأفعل في الوقت المناسب".

طالما لا نستطيع الزَّواج في الوقت الحالي لماذا لا تنتقل سيرين لأوروبا، سويسرا مثلًا، وترجع لاسمها الأوَّل سيرين سرِّي، وهو الذي توقّع به على رسوماتها، وبذلك أستطيع أن أقضي معها نصف الوقت، فهي غير

معروفة في سويسرا وبالتَّالي نبعد عن القيل والقال، وفي الوقت نفسه يستطيع أبوها وأمّها زيارتها في أيّ وقت.

بعد عدَّة أسابيع استطعنا أن نجد مكانًا ممتازًا لتعيش فيه سيرين، وهو منزل جميل في قرية هادئة قريبة من جنيف، ويمكنها في الوقت نفسه أنْ تأتي لشقَّتي التي امتلكتُها في جنيف لتقضي بعض الأيَّام.

التَّاريخ في مصر يعيد نفسه، فالضّبَّاط الأحرار أوشكوا أنْ يمسكوا بزمام السُّلطة، فالمسألة كانتْ كيف ومتى وما هو ردّ فعل فاروق. كان الوضع كحلقات مسلسلة لم أشاهد بعضها، فالأحداث تنمّ عن النَّجاح للضّبَّاط الأحرار وخصوصًا عبد النَّاصر الذي كان يخطِّط للوضع في نادي الضّبَّاط أو في منزله.

كنتُ لا أزال أقابل عبد النَّاصر والسَّادات باستمرار، فهما لم يحملا أيَّ ضغينة رغم مشاركتي في القبض على السَّادات. كان عبد النَّاصر يستمتع بصحبتي، ولكنَّ أحلامه كانت كبيرة، وكنتُ أتخيَّل أحيانًا اللحظة التي ستقودهم للسُّلْطة. كانتْ هناك مظاهرات مستمرَّة ضدّ الانجليز، وتصاعد الوضع وأصبح شبيهًا لحرب العصابات، وكان السَّفَّاحون من الإخوان المسلمين ينفثون سمومهم ويشعلون النَّارَ في النّفوس، ويحرِّضون لمزيد من المظاهرات ضدّ الانجليز. كلّ ذلك وفاروق لازال ضعيفًا يحبّ المتعة، يتصرَّف وكأنَّه في حالة خمول ويبذل كلَّ ما في وسعه ليحتفظ بمظاهر السُّلْطة.

ولكي يساعد في هزِّ عرشه قرَّر فاروق أنْ يتزوَّج مرَّة ثانية من فتاة سمينة بليدة عمرها ستّة عشر عامًا، رتَّبَ لقاءه بها الجواهرجي أحمد نجيب الذي دبَّرَ مقابلة معها السَّاعة الثَّالثة لتشتري دبل الخطوبة وجعل "فاروق" ينظر من مكان قريب ليراها دون أنْ تحسَّ به. كانتْ ناريمان

كبيرة الصَّدر، غليظة الشَّفتين وواسعة الفم، النّوع الذي يحبّه فاروق من النِّساء، بعد نظرة واحدة دخل فاروق للمحل، فخجلت الفتاة لما رأت الملك وهو يسألها مَن خطيبكِ فقالتْ: "زكي هاشم جلالتك، يعمل في السِّلْك الدّبلوماسي"، فأمر فاروق الجواهرجيّ بإبعاد الدّبل التي أمام ناريمان وأنْ يحضر أغلى ما لديه ووجَّهَ كلامه لناريمان: "الآن اختاري دبلة تليقُ بجمالِك، فأنتِ الآن خطيبة مليكك".

كان الأمر بسيطًا فبسرعة تمَّ نقل خطيب ناريمان للخارج، وفي يوم ٦ مايو ١٩٥١ تمَّ زفاف ناريمان لفاروق في قصر عابدين.

كما قال سرِّي باشا أرسل فاروق قبل الزِّفاف لجميع الدّبلوماسيين وذوي النّفوذ على مستوى العالم الذين سيحضرون الزّفاف تلميحًا بأنَّ "فاروق" يفضِّل الهدايا التي من الذَّهب الخالص ولن ينظر بعين الاعتبار لمن يقدِّم هديَّة غير ذهبيَّة، ووصلت التَّلميحات لمعظم المدعوين. أخبر "فاروق" "سرِّي باشا": "أنتَ لا تعرف ماذا يحدث"، لقد كانَ فاروق يعرف عدم رضا الشَّارع عنه فأخذ احتياطياته، وصهر الذَّهب كلَّه في سبائك.

في يوم الجمعة ٢٥ يناير ١٩٥٢ ذهبتُ لزيارة سرِّي باشا لأقدِّمَ له هديَّة عيد ميلاده الرَّابع والسَّبعين، وكان يتمنَّى لو أنَّ سيرين هنا ولو أنَّنا تزوَّجنا وعادت للقاهرة، ولكن وجد بعض السّلوان في أنِّي أذهب وأراها بين الحين والآخر في سويسرا.

كنتُ متأكِّدًا أنَّ سيرين تحبّ أنْ تعودَ للقاهرة، ولكن هناك قلق، فالنَّاس لم يكرهوا فاروق لزواجه الثَّاني فحسب بل أعلنوا هذا، وظهرتْ في الأفق قوَّة جديدة لتضعضع عرشه.

"لالا صادق"، أرملة صادق عثمان لم تقنع بالمعاش الذي منحه لها فاروق واكتفتْ لتعيش في سلام ولكنَّها استغلَّتْ ذكاءها ودهاءها واتَّصلت بمجلس قيادة الضّبَّاط الأحرار، وأخبرتهم أنَّ "صادق" كان مؤيّدًا لثورة سلميَّة وأنَّه دفع حياته ثمنًا لتعاطفه هذا. بهذا جعلتْ أرملة صادق زوجها ضحيَّة مظلومة لفاروق ولسيرين عشيقته، على حدِّ ما أشاعت.

بعد أنْ سلّمت الهديَّة لسرِّي باشا، وهي علبة سيجار من الكوبي الفاخر، قلتُ له: "هناك بعض القلاقل وهناك إراقة دماء في الاسماعيليَّة".

كان ستيفنسون أخبرني في الصَّباح، وكان قد تمَّ تعيينه مساعدًا لجيفرسون جافري سفير أمريكا في مصر، بأنَّ هناك معركة في منطقة القناة بين الانجليز وثمانمائة من الشّرطة المصريَّة المعاونة التي هاجمت الثَّكنات البريطانيَّة في التَّلِّ الكبير والتي تعتبر أكبر مستودع للذَّخيرة في الشَّرْقِ الأوسط.

لقد أعطت القوَّات البريطانيَّة إنذارًا للشُّرطة المصريَّة بالانسحاب وإلَّا ستلجأ لإجراءات قمعيَّة، لقد كانت الشّرطة المصريَّة تقاتل بالبنادق بينما الانجليز دخلوا بالدّبابات ليحموا ترسانتهم في المنطقة.

كان عدد القتلى سبعين من الشّرطة المصريَّة، وأضاف ستيفنسون بأنَّ هناك جحيمًا سيكون في القاهرة غدًا.

عندما عدتُ للمنزل قابلني زولا وترجَّاني ألَّا أخرج من المنزل غدًا؛ لأنَّه ستكون هناك بعض القلاقل.

٤١

في الصَّباح الباكر ذهبتُ لأقابل أحد المديرين للشّركات التي في أوروبا، والذي كان مقيمًا في فندق شبرد . وبينما كنتُ أنتظره في البهو رأيتُ سيَّارة ينزل منها عمَّال يمسكون في أيديهم ببعض الأدوات التي تبدو وكأنَّها مكانس كهربيَّة، ولا شيء غير عادي في ذلك، ولكنَّ الذي أدهشني أنِّي رأيتُ "علي سرِّي" ينزل من سيَّارته ويعطي تعليمات للعمَّال. فلمَّا رآني بادرني وهو محرج: "أنا مدير الشّركة وأطمئنّ على سير العمل، فكلّنا نعمل الآن لنبني مصر الجديدة"، وقبل أنْ أكلّمه وأقول له خلِّي العمَّال ينظِّفون جيّدًا؛ لأنَّ أباك سيحتفل بعيد ميلاده هنا الليلة رأيت ستوري الذي أنتظره قادمًا فودَّعت عليًّا وداعًا عاديًّا واتجهت للمدير. تناقشنا في أمور العمل، وأثناء الحديث سألني عن التَّوتُّر الذي يشعر به بين المصريين، فقلتُ له: "ألم تقرأ صحف الصَّباح؟ كلّها تتحدَّث عن مجزرة الاسماعيليَّة، وربَّما يقومون بمسيرة ضخمة اليوم"، فضحك: "دائمًا ما يفعلون ذلك"، فقلتُ: "أتفق معكَ، ولكن اليوم مختلف فقد رأيتهم على كوبرى قصر النِّيل يحملون لافتات، ويهتفون بشعارات، ويسيرون كالجنود، والشَّيء اللافت أنَّ القادة ليسوا بشيوعيين ولا محرِّضين، ولكن بعض الجنود المسلّحين، والثَّاني أنَّ الشّرطة متصالحة مع المحتجّين، وفي بعض المناطق يسيرون معهم جنبًا إلى جنب وهم يهتفون "نريد أسلحة، نريد أنْ ندافع عن القناة".

تركتُ "ستوري" في شبرد لموعد آخر، وخرجتُ لأذهب لمكتبي فوجدتُ المئات يتجمَّعون في مناطق مختلفة، الأوبرا، الأزبكيَّة حتَّى التقوا

أمام الوزارة وهتفوا ليخرج لهم رئيس الوزراء ولكنَّه لم يفعل، ورأيت من بعيد وزير الشّئون الاجتماعيَّة، عبد الفتَّاح حسن، خرج للبلكونة وتكلَّم مع الجموع: "هذا يومكم، يوم ثأركم"، وأخذ الجميع يهتف بمقاطعة البضائع الانجليزيَّة، والبعض هتف مطالبين مساعدة الرُّوس ضدّ الانجليز. ما كدتُ أصعد لمكتبي حتَّى قالتْ لي مدام دي كلوزت: "مدام سامية على التّليفون". سمعت سامية في التّليفون وهي تلهث:" الحقني سيحرقون الكازينو".

لم يكن وضع الزّحام يسمح لأن آخذ السَّيَّارة فأخذتُ أجري مارًّا بشارع عدلي وبتمثال مصطفى كامل بقصر النِّيل وسليمان باشا حتَّى جروبي لأرى دوَّامات من النَّار تتصاعد تلتهم كازينو سفنكس، ولمحت سامية وهي تتلفَّظ بألفاظ سيِّئة وتضرب بيديها وتحوَّلت لفلَّاحة في تصرُّفاتها، واستغاثت بالمطافئ فوصلت على الفور وبدأوا يطفئون النَّارَ التي التهمتْ كلَّ شيءٍ حولها وانتشرت.

فيما بعد عرفتُ القصَّة بأنَّه أثناء مرور المسيرة رأى المتظاهرون ضابط شرطة يجلس في مقدِّمة الكازينو وعلى حجره إحدى فتيات الكازينو وهما يسكران ويتضاحكان، فقال له أحد المتظاهرين: "ألا تخجل من فعلكَ هذا وزملاؤك يُقتلون في الاسماعيليَّة؟"، فردَّ عليه الضَّابط بوقاحة وأخرج مسدّسًا من جيبه بينما الفتاة التي على حجره تضحك، وهنا انفجر المتظاهرون غيظًا وفعلوا ما فعلوا مستخدمين زجاجات المولوتوف، والبعض أخذ يقطع في خراطيم الإطفاء وعلت الهتافات: "احرقوا كلَّ المباني الانجليزيَّة".

طلبتُ من أحد رجال الشّرطة العون فنظر لي نظرة احتقار: أنتَ انجليزي؟"، وبصق على حذائي وانتظر أنْ أردَّ حتَّى يفعل بي ما يريد ولكن اتَّسمت بحسن التَّصرُّف وسكتُّ. واندفعتُ وسط اللهيب لأصل للبار ولكنَّ الشّرطيَّ نفسه حاول أنْ يمنعني فتاجهلته ومضيت.

راحتْ سامية تطوِّقني بذراعيها لتشكرني، وعندما لمحتُ ذلك الشُّرطيّ صاحت به: "أنتَ يا خنزير اخرج من هنا، لقد رأيتُ ما فعلته بهذا الرَّجل المحترم"، وراحت تسبّه بألفاظ لم أفهمها، وعندما حاول أنْ يرجع تعمّدت أنْ أجعله يتعثَّر فوقع بسرعة وسط الدّخان الكثيف، وهرولت خارجًا وأنا أمسح البصاق الذي علق في حذائي في زيّه الرَّسميّ.

لحسن الحظِّ كان المبنى من الحجر، فلم تصل النِّيران للملهى الدَّاخلي الذي فيه حجرات النّوم، فسألت سامية وهي تتوجَّع بشهقات جافَّة عن البنات، فقالتْ إنهنَّ خرجنَ من الباب الخلفي. وما ابتعدنا عن سفنكس حتَّى رأينا ألسنة اللهب في مبنى آخر، بنك باركليز، ثمَّ في جروبي والنَّاس يرمون بصواني الحلويات في الشَّارع، واشتعلت بعد ذلك سينما ريفولي وكأنَّ العملية كانت منظَّمة، فكل المنشآت والأماكن تحت النَّار ما عدا جاردن سيتي، حيثُ مكان السِّفارة التيي هدَّد حرَّاسها بإطلاق النَّار على أيّ شخص يقترب من المنطقة، فلذلك كانت الشّرطة المصريَّة حريصة ألَّا يدخل هناك أحد، في الوقت الذي كانت تتجاهل الشُّرطة أيّ نداء للاستغاثة.

أخذت سامية لمكتبي وتركتها لأقابل "ستوري" في نادي السِّباق كما وعدته وإن كنتُ غير متأكِّد من حضوره. كانت الغوغائيَّة تتَّجه من شارع عدلي لقصر عابدين حيثُ يجتمع الملك مع بعض الضّبَّاط المجنَّدين.

ما إنْ وصلتُ للنَّادي حتَّى رأيتُ ثلاثة رجال يحترقون، كان "ستورى" واحدًا منهم. وشعرتُ بعدها بيد على كتفي فتحسّبت أن أقاتل للنِّهاية، ولكنَّه اتَّضح أنَّه ضابط انجليزيّ ليأخذني بعيدًا عن الموقع.

فكّرت أنْ أذهب لفندق شبرد القريب من مكتبي والذي عرفتُ أنَّه لم يمس بالنَّار؛ لأنَّ الإخوان المسلمين يقومون بحمايته.

دخلتُ لأسأل عن حفل سرِّي باشا وهلْ ألغيت فأخبرني مدير الاستقبال بأنَّ الحفل لم يتم إلغاؤه قائلًا بفخر: "إنَّه شبرد"، ولكن بعد لحظات بعد أنْ رنَّ التِّليفون وتكلَّم فيه جاءت تعليمات للزَّبائن أن يتوجَّهوا لغرفهم.

ظهر حاملو اللهب ومشعلو النِّيران، فألقوا بالنَّار على السَّتائر في الوقت الذي ذهبتُ لأبحث عن سرِّي باشا الذي كان في الفندق من أجل الحفل. اندهشتُ متسائلًا لماذا أبقوا على شبرد للنِّهاية، واستغربتُ مصدومًا حينما رأيتُ رئيس هؤلاء الذين يلقون بالنَّار هو "علي سرِّي". سألتُ عليًّا بذهول عما يحدث فقال: "اخرج بسرعة قبل فوات الأوان، فالمادة التي رششنا بها السَّتائر والغرف لم تكن للتَّنظيف ولكنَّها مواد ملتهبة، اخرج بسرعة"، فقلتُ له مذعورًا: "أبوك في الفندق ليحتفل بعيد ميلاده"، فاندفع مذعورًا وأخذ يصرخ لأتباعه: "أوقفوا النَّار، أوقفوا النَّار"، واندفع لداخل الفندق ولم أره بعد ذلك.

اندفعتُ بدوري للأدوار العليا حيثُ غرف الحفلات والاجتماعات بحثًا عن سرِّي باشا. رحتُ أدخل غرفة بعد غرفة فأجد في واحدة منها امرأة شبه عارية تستغيث وأخرى عارية تمامًا، ولم يكن عندي وقت إلَّا أن

ألقي عليهنَّ بطاطين، وكنَّ يقفزنَ من النَّوافذ فيسقطنَ موتى حولهنَّ مجوهراتهنَّ.

أخيرًا دخلتُ الغرفة التي كان بها سرِّي باشا ولكن بعد فوات الأوان فقد كان جالسًا على الطَّاولة مختنقًا وآخرون كانوا معه أيضًا مختنقين، كلّهم موتى.

حاصرتني النَّار من كلِّ جانب فلم أجد بدًّا إلَّا القفز، وكانت النَّتيجة التواء وبعض الكدمات والحروق، ولكن استطعت الوصول للمنزل.

حكيتُ لأبي وشيفون بعضًا مما حدث، وكان الرَّاديو يذيع الأخبار: "أكثر من أربعمائة منشأة تمَّ حرقها بالكامل، واحترق تسعة أشخاص في نادى السِّباق وتفحَّموا، أمَّا فندق شبرد فالعدد مجهول لأنَّ الفندق بكلِّ سجلَّاته وكلّ مَن فيه احترق بالكامل...".

سألني أبي هل تخبر أنتَ سيرين أم أخبرها أنا، فقلتُ له: "جميع الصّحف في جنيف ستنشر الأخبار؛ لذلك سأخبرها أنا"، وبالفعل في اليوم نفسه متأخرًا أخبرتها بالتّليفون، فكانت على التّليفون منهارة وهي تبكي وقالت: "سأحضر فورًا"، بالطَّبع لم أخبرها عن "عليٍّ" أيَّ شيءٍ ولكن قلت: "وفاروق"، فقالتْ بصرخة مدوية: "فليذهب للجحيم، سآخذ أوَّل رحلة وأحضر". بالفعل في صباح اليوم التَّالي كنتُ أستقبلها في مطار القاهرة، حزينة ولكن متماسكة. لكم غيَّرت الأيَّام فينا كلّنا، لوّحت لها وهي تهبط من الطَّائرة وأنا أتساءل عمَّا سيحدث لنا جميعًا.

4

الفَصْلُ الرَّابعُ

١٩٥٢-١٩٥٣

٤٢

لن تعود الحياة في القاهرة كما كانتْ من قبل، ليس بعد أنْ تحوَّل الشِّتاء إلى صيف، ليس بعد الشّهور التي تحتاجها سيرين وأمّها لتجاوز صدمة موت سرِّي باشا.

لم أمتلك غير أنِّي أخفي ما فعله أخوها عليٌّ، فهو المسئول عن موت أبيه والعشرات في الفنادق الأخرى، حيثُ رشَّ على السَّتائر والأثاث موادًّا ملتهبة بدلًا من المنظِّفات.

كنتُ الوحيد الذي يعرف حقيقة ما حدث، ولم أقلْ كلمة واحدة لسيرين، ولكن عندما قابلتُ عليًّا وهو خارج من منزلهم، وقبل أنْ يركب سيَّارته بادرته: "لم أقل شيئًا عمَّا حدث، ليس من أجلك ولكن من أجل سيرين وأمّك. تذكَّر أنَّ عبد النَّاصر والسَّادات سيغضبان إذا عرفا ما حدث منك، فالضّبَّاط الأحرار لا يريدون أن يلطِّخوا يدهم بالدّم، وأنت تورطت مع الإخوان المسلمين الذين حاولوا قتل أبي من قبل، والآن تسبَّبوا في قتل أبيك، وأنتَ لازلتَ تتعاون مع هؤلاء الأوغاد. والآن إمَّا أنْ تتوقَّف عن التَّورّط معهم وإمَّا سأنفّذ تهديدي".

لقد فكَّرتُ في أنَّ العالم متغيّر وأنَّني من المحتمل أنْ أحتاج عبد النَّاصر وأنْ عليًّا سيكون الوسيلة، لذلك اكتفيت بتهديده.

لقد ازداد نشاط الإخوان المسلمين في الفترة التَّالية من حرق وتخريب، ولم يكن الضّبَّاط الأحرار متورّطين معهم في أيِّ شيءٍ، فعبد النَّاصر لم يكن اسمه مطروحًا رغم أنَّه المخطط للضّبّاط.

في أوائل يونيو أرادت مدام سرِّي أنْ تسافر لفرنسا وأنْ تأخذ معها سيرين، ولكنَّ سيرين فضَّلت البقاء في القاهرة لفترة، ولذلك اقترحت شيفون أنْ تقيم معنا سيرين حتَّى عودة أمّها. رحّبت بقرار أمِّي؛ لأنّني أردتُ أنْ أبعد سيرين عن الأنظار، ولاسيَّما أنَّ "فاروق" كان موقفه صعبًا، ولستُ أدري إذا كان يعرف بوجود سيرين أم لا.

بينما كانتْ شيفون تطلب من إيميل زولا أنْ يعدَّ غرفة لسيرين لمحت لي أنَّها تعرف ما بيننا، فعلى حدِّ تعبيرها "لها عيون"، وكانتْ مبسوطة لتلك العلاقة، ولكن تخفي ذلك بسبب صرامة أبي، فقلتُ لها: "نعم"، وتذكَّرت ليلة أبي في سفنكس.

في الليل بينما كنَّا نقلِّب في الصّحف أخذنا نداعب بعضنا البعض ببعض العناوين مثل "مطلّقة تتزوَّج من محام"، محامٍ متوسِّط العمر يصطحب فتاة جميلة، حتَّى توقَّفنا أمام عنوان أخافنا "مدام صادق ستكتب لو رغبتْ أسماء الذين تردَّدوا على فيلَّا زلفي".

فسألتُ سيرين هلْ رأتها منذ مجيئها؟ فأجابتْ بالنَّفي لعدم تردّدها على الحفلات من أيّ نوع.

تلقيتُ دعوة من تيدي بولوك لحفلة احتفاله بعيد زواجه السَّنويّ، والتي سيقيمها في نادي الجزيرة، ولكن رفضت الدَّعوة حتَّى لا يعرف أحدٌ بسيرين واكتفينا أنْ نتقابل في كازينو راندفو أمام المتحف المصري بشارع ميريت قبل حفلة الاحتفال.

في طريقنا للكازينو قالتْ سيرين: "الكازينو يظهر أنَّه الباقي الوحيد من ممتلكت الانجليز دون حريق، ولكنّك تستطيع أنْ تحرق المباني، ولكن لن تستطيع أنْ تحرق الذِّكريات".

كان تيدي وإنجي جالسين في الفرندا، فأشارا لنا فدخلنا وجلسنا معهما.

سألت إنجي سيرين مازحة: "ما شعورك وأنتِ مليونيرة؟"، فضحكتْ سيرين: "لا فرق، حقيقة، فأنتِ لا تستطيعين أنْ تفعلي كلَّ ما تريدين بالمال"، فسألتها إنجي: "مثل؟".

ـ كنتُ أفكِّر أنْ أستعيد النَّصراني، ولكن عرفتُ أنَّ الضّبَّاط الأحرار في طريقهم للحكم، وأنَّهم سيحدّدون عدد الأفدنة لكلِّ مالك.

فسألني تيدي: "صحيح؟"، فأجبته: "في خطّتهم فعلًا، أصدقاء عبد النَّاصر يخطّطون لتحديد ملكيّة الفرد لمائتي فدَّان، وبالتَّالي سينهون الملَّاك

المؤجّرين الذين يستغلّون الفلّاحين. قالتْ سيرين: "هذا كان حلمي لما ورثت المال، ولكنَّ أبي مات، فلا حاجة لشرائها الآن".

عندما جاء جيم ستيفونسن ليلحق بنا لمحتُ في شارع ميريت باشا مدام صادق تتَّجه لبار ريندفو، والذي أدهشني أنَّ معها السَّادات.

جلسا على مقربة منَّا وابتسم السَّادات وهو يشعل البايب، وجاء لنا: "أهلًا ستيفونسن، وأهلًا سيّد مارك، لا أظنّك كولونيل الآن، فهي رتبتكَ عندما قبضتم عليَّ"، وكان السَّادات متّسمًا بوهم العظمة، فاستطرد "انسَ، فكلّ القوَّاد يقضون فترة في السّجن، فها نهرو، وغاندي، إنَّها فترة تدريب للقيادة"، وقبل أنْ يتركنا قال له ستيفونسن: "لا أتوقَّع أنَّك ومدام صادق تتقابلان في مناسبات اجتماعيَّة"، فردَّ عليه السَّادات: "زوجها أحد شهداء الضّبّاط الأحرار، هو كان يعمل مع فاروق، ولكن سرًّا معنا".

ولما عاد السَّادات للطَّاولة التي عليها "لالا صادق" قالتْ للسَّادات بصوت مرتفع وهي تقوم: "من فضلك خذني من هنا يا كولونيل، لا أريد أنْ أجلس في مكان فيه هذه المرأة"، وأشارتْ تجاه سيرين.

حين تحرَّكت تجاه السّلّم توقّفت أمامنا وقالت وهي تواجه سيرين: "الملك طردك من مصر؛ لأنَّكِ تعرفين الكثير عن زوجي الغالي، انتظري عندما نأخذ الحكم فلن يكون هناك مكان لأمثالك"، وأوشكت سيرين أنْ ترد لولا أنّي لمستها لأمنعها، وكانتْ تشتاط غضبًا، وكانت "لالا صادق" قد توجهت للسّلّم فقالتْ سيرين: "لبؤة قذرة"، فقال لها ستيفونسن: "نعم، ولكنَّها لبؤة لها قوَّة، احترسي".

كلّ الصُّحف والمقالات التي تكلَّمت عن الحادثة لم تذكر اسم فاروق إطلاقًا، ولم تذكر اسم سيرين أيضًا صراحة، ولكن بالحروف الأولى.

أرادتْ سيرين أنْ ترفع قضيَّة ولكنّي نصحتها بالعدول، وذكّرتها بأوسكار وايلد عندما رفع قضيَّة فانتهى به الأمر في السّجن، وطلبتُ منها الابتعاد عن قراءة الصّحف.

الانقلاب الذي قد يغيّر التّاريخ انطلق في يوليو. عبد النَّاصر أعدَّ الأرضيَّة له ووجَّه الانتباه للضّبَّاط الخلصاء. ورأى أنَّه يجب أنْ يكون زعيم الانقلاب رتبة أعلى من الكولونيل، وأنْ يكون محبوبًا.

فكّر في بداية الأمر في عزيز المصري الذي كان يؤيّد روميل، ولكن كان كبيرًا جدًّا في السِّنّ. أخيرًا استقرَّ على محمَّد نجيب، وكان كالسَّادات شخصيَّة معروفة ويدخّن البايب، وكان له دور بارز في نكبة فلسطين.

وضع عبد النَّاصر شرطًا أمام زعماء الانقلاب وهو أنَّ "محمّد نجيب" لا يتوهَّم أنَّه يسيطر على الحكم، فالقرار والحكم الفعلي لعبد النَّاصر، وما هو إلَّا رئيس صوريّ. وافق محمَّد نجيب على هذا الشَّرط، وشعر بالغبطة بأن يكون أوَّل رئيس مصري.

في يوليو كانت الحرارة شديدة في القاهرة؛ لذلك ذهب فاروق لقصره الصّيفي خارج القاهرة، وكذلك فعل السّفير الأمريكي، فهو يحبّ أنْ يكونَ على مقربة من الملك. بينما ستيفنسون، مساعد السَّفير، ظلَّ في القاهرة ليكون بقرب عبد النَّاصر.

قال لي ستيفنسون: "لا ندَّعي أنَّنا نعرف كلَّ شيء يخطِّط له عبد النَّاصر، ولكنْ على الأقل لدينا فكرة، ببساطة لأنَّه نفعي، ويعلم أنَّه سيحتاج لأمريكا، وأنَّ أمريكا تريد "فاروق" خارج الحكم"، فسألته: "متى تعتقد البداية، لن تكون بعيدة".

قال ستيفنسون وهي يضحك: "لقد أخبرني النَّاصر أنَّ السَّبب وراء عدم القيام به الآن هو أنَّهم ينتظرون بعد أنْ يحصل الضّبَّاط على مستحقَّاتهم عن شهر يوليو؛ لذلك سيكون الموعد في أوائل أغسطس".

في الحقيقة لم يستطع الضّبَّاط الأحرار الانتظار لأغسطس؛ لأنَّ "فاروق" قرَّر أنْ يقبض على أربعة عشر ضابطًا من زعماء الفتنة. خشى عبد النَّاصر أنْ يتمَّ القبض عليهم؛ فقرَّر وضع ٢٢ يوليو يوم الانطلاق. ولكن لأنَّ السَّادات الذي يتنفَّس ثورة لم يكن موجودًا في مساء اليوم المحدّد حيثُ كان وزوجته في السّينما،

انطلقَ عبد النَّاصر بسيَّارته الأوستن السّوداء فلم يجد الضّبَّاط الأحرار المكلّفين بحراسة الأسلحة المعدَّة لهم في مكانٍ سِرِّيٍّ، فذهب لمقرِّ القيادة العامَّة للجيش، بجوار القصر الملكي في القبَّة، حيثُ يجتمع مع الباقين في الطَّابق الثَّاني، وكاد أنْ يقع في مشكلة ضخمة، حيثُ إنَّ الحرس هناك استوقفه وطلب منه الرّخص بسبب عدم إضاءة نور السّيَّارة مما يعدّ مخالفة عسكريَّة، ولكنَّه استطاع التَّخلُّص من هذه الورطة.

أرسلَ عبد النَّاصر لإحضار الأسلحة، فلمَّا أحضروها اندفع وبعض الضّبَّاط الأحرار للقيادة العامَّة، وكان السَّادات قد لحق بهم، واستولوا عليها دون مقاومة تذكر.

بعض الضّبَّاط الآخرين استولوا على محطَّة الإذاعة، والمطار، ومستودع الذَّخيرة الكبير في العباسيَّة. بحلول السَّاعة ١.٣٠ صباحًا يوم ٢٣ يوليو كانت كلّ المراكز الرئيسيَّة للجيش قد سقطت في قبضتهم. بعد ساعتين فقط تمَّ تحقيق ما كانوا يحلمون به أكثر من عشرة أعوام.

من الأوَّليَّات التي فعلها عبد النَّاصر، الذي يبلغ من العمر ٣٤ سنة أنَّه اتَّصل بستيفنسون ليبلغ السَّفير الأمريكيَّ إنذار فاروق. بالفعل اتَّصل جيفرسون بواشنطن.

لما أخبرتُ والدي بهذا قال: "طالما أمريكا مسئولة عن العلاقات العامَّة، فلن نستطيع أنْ نفعلَ أيَّ شيء، والمهمّ أنَّ القناة في يدنا".

أصبح محمَّد نجيب القائد الأعلى للقوَّات المسلَّحة، وأعلنَ في الرَّاديو كلَّ القرارات. بينما عبد النَّاصر هو صاحب القرارات ولكن مِنْ وراء السّتارة.

كان البعض يريد إعدام فاروق، فمثلًا المصري الذي ذهب لعبد النَّاصر طالبًا منه إعدام فاروق، ولكن عبد النَّاصر ردَّ عليه: "ستقتل الآلاف لو أردتَ أنْ تطهِّر البلد، ولو أنَّا قتلنا "فاروق" سيقوم الشَّعب بقتل المئات من حاشيته، ولن نستطيع وقف الدَّم بعد ذلك"، وكان عبد النَّاصر فطنًا، فقد رأى أنَّ سفر

"فاروق" ليستمتع في الرِّيفيرا سيبرِّر الثَّورة، وكان حريصًا ألَّا يغادر "فاروق" قبل أنْ يوقِّع بالتَّنازل عن العرش.

ذهبَ نجيب والسَّادات إلى الاسكندريَّة لمقابلة فاروق وليوقّع على التَّنازل، ولكي يغادر البلاد في مدّة لا تزيد عن ثمانٍ وأربعين ساعة.

طالب فاروق أن يغادر على سفينة المحروسة وأنْ يأخذ ممتلكاته الخاصَّة. وافق عبد النَّاصر على ذلك على أنْ تذهبَ بهم السَّفينة لنابولي وتعود.

عندما وصل السَّادات ونجيب الاسكندرية كانت ناريمان والأسرة المالكة مشغولة في إعداد الشنط التي بلغت ٢٠٤ شنطة كبيرة محمّلة بحاجيَّات الأسرة الخاصَّة بما فيها هدايا الزَّواج والذَّهب المسبوك.

لما قرَّر عبد النَّاصر أنْ يمشي فاروق مكرّمًا، ليس كما تفعل الدّول الشّيوعيَّة في ملوكها، ارتدى فاروق الزِّيَّ العسكريَّ البحريَّ، أدميرال، واصطحبه السَّفير الأمريكيّ لميناء الاسكندريَّة حيثُ عزفت القوّات ٢١ طلقة تحيَّة عسكريَّة له.

قال جيفرسون: "هؤلاء الشّبَّان يمكنهم أنْ ينقذوا مصر، سيقومون بإصلاحات، ويحسّنون مستوى المعيشة. إنَّنا سنساعدهم". قلتُ: "كلام فارغ" لما قرأتُ هذا، ولكنَّ ستيفنسون قال لي محتجًّا: "أنا راجعت الكلمة كلّها"، فقلتُ له: "مبروك، ولكن تذكَّر أنَّ روزفلت قال بعد أنْ انتصرنا في الحرب لن نعطي الفرصة كاملة لانجلترا في المنطقة، والآن يريد أنْ ينفذ ذلك عن طريق الثَّورات.

ما كاد أنْ يجفَّ حبر توقيع الملك على التَّنازل حتَّى عمَّت الفرحة "لالا صادق" للتَّخلُّص من الطَّاغية، ولكنَّ عبد النَّاصر أعلنها أنَّه لن يتسامح تحت أيّ ظروف في سفك الدِّماء.

نصحتُ سيرين بمغادرة البلاد لسويسرا، فوافقتْ ولاسيَّما أنَّها تحمل الجنسيَّة الأمريكيَّة بجانب المصريَّة. وحرصًا على عدم هروب أيّ مذنب فرضت على المسافرين أنْ يأخذوا تصريح سفر من الحكومة. كلَّمت ستيفنسون ليقوم بهذه المهمَّة، فوافق على استخراج التَّصريح والتَّأشيرة في أسرع وقت ممكن.

قبل أنْ تغادر سيرين في الوقت المحدَّد كنتُ في المنزل أرتِّب بعض الأوراق عندما جاء عليٌّ مذعورًا يسأل عن سيرين، وعرفتُ منه أنَّ سيرين مطلوب القبض عليها بتهمة قتل صادق. سألته عن مكان عبد النَّاصر أو السَّادات، فقال إنَّه يعرف أين السَّادات فطلبت منه أنْ يذهب إليه بسرعة حتَّى يقف بجوار سيرين لكي لا تذهب للسِّجن، وطلبت أنْ يفعل المستحيل في سبيل ذلك، فكلمة أيّ عضو من الثَّورة الآن أقوى من أيِّ نقود يمكن أنْ ندفعها كضمان أو كفالة.

٤٣

كان هناك ستَّة أشهر قبل مثول سيرين في المحكمة. وكان السَّادات صادقًا في كلمته، فقد تمَّ وضع سيرين تحت الإقامة الجبريَّة، وإنْ كان جواز السَّفر تمَّ سحبه منها. وقال السَّادات: "كنتُ أتمنَّى لو أنهي هذه المهزلة، ولكنْ ليس المطلوب إجراء التَّحقيق بل رؤيته أيضًا".

التفَّ الجميع حول سيرين، وقال جيم ستيفنسون: "هذه كوميديا، إنَّنا نستخدم كلَّ سلطاتنا في السّفارة، فأنتِ أرملة مليونير أمريكيّ، المفروض تكونين فوق الله، والقانون".

لقد كانتْ سيرين مذهولة، لا أنسى لحظة أنْ قلتُ لها الخبر عندما عادتْ وشيفون من التَّسوّق مساء اليوم الذي عرفت فيه الخبر، وقالتْ والعيون تترقرق في عيونها الخضراء: "ساعدني يا مارك"، ثمَّ أردفت بعد أنْ هدأت: "ليس هناك دليل فعليّ، ياليتني لم أعد للقاهرة".

فكَّرتُ عندما كنتُ أسير معها وقد أمسكتُ بيديها التي اعتادتْ أنْ تكون دافئة، فإذ بها باردة، لماذا لا تهرب! أي أنَّ الحدود كلّها مغلقة، ولكن بالمال يمكن أنْ يتمَّ كلُّ شيءٍ، عن طريق السّودان أو طرابلس، ويمكن الحصول على جواز سفر جديد، ولما عرضتُ الأمر على ستيفنسون أخبرني أنَّ الوضع متغيّر فنموّ الجامعة العربيَّة وكلّ الدّول المحيطة بمصر تعرف قصّة سيرين وسيرسلونها ويكون وضع السَّفير سيِّئًا. بدورها رفضتْ سيرين الفكرة برمّتها.

قال لي ستيفنسون عندما تلاقينا بمفردنا في مساءٍ ما: "إنَّ بعض الموظّفين معنا تورَّطوا مع صادق في أعماله؛ لأنَّه كان ذا تأثير على فاروق، وهذا التَّورّط يمكن أنْ تستغلّه بريطانيا ضدّنا، ولكن إذا استلزم الأمر سنبحث عن طريقة"، فقلتُ له: "شكرًا".

كنتُ لما قلتُ لسيرين سأوكّل أفضل محام لكِ نظرتْ لي باستغراب وقالتْ: "أنت أفضل محام"، فقلتُ لها: "مستحيل، من أجل حبّنا، ومن أجل ما بيننا من أسرار، وأخلاق المهنة".

فقالتْ: "للجحيم الأخلاق"، فتذكّرت نفس نظرتها ليلة تلاقينا في لشبونة.

واقترحتُ عليها "دونالد شيلدز" أحد محاميي المجموعة، والذي يتقن اللغة العربيَّة، فوافقت.

تساءلتُ بيني وبين نفسي لماذا لا آخذ هذه القضيَّة، وما المانع، وعندما فتحتُ الموضوع مع ستيفنسون قال لي: "المفروض تأخذها أنتَ، فأنتَ أكثر واحد يمكنه أنْ يدافع عن سيرين، وقد تأتي منعطفات بالصّدفة تغيّر كلَّ شيء".

كلام ستيفنسون شجَّعني وكان دافعًا أن آخذ القضيَّة، ورحتُ أفكِّر مَنْ يا ترى سيكون في الدَّعوة، وعرفتُ أنَّ عبد الفتَّاح عزَّام هو الذي سيقود الادِّعاء. تذكَّرت أيَّام كنَّا أنا وعزَّام نلقي محاضرات في الجامعة وقابلتُ حينها عبد النَّاصر، وكم كان عزَّام مراوغًا، وكان كالصّقر. اتَّصلت بعزَّام وأخبرته أنّي سأتولَّى القضيَّة، وسألته إنْ كان هناك أيُّ مانع فرحَّب بي وقال لا مانع طالما يدك نظيفة، ولكنَّ القضيَّة خاسرة، فقلتُ له: "سنرى".

كنتُ أقابل سيرين، ولكن بحرص كمحام، وذات مرَّة قلتُ لها: "أتمنَّى أن نجد شيئًا ما إيجابيًّا"، فابتسمت وقالتْ: "هناك، أنتَ بجواري هذا كلّ شيءٍ بالنِّسبة لي".

سرنا سالم وأنا، وكان سالم يحمل الملفَّات وأقلام الرّصاص، حتَّى وصلنا للمبنى الرّمادي الخاصّ بالمحكمة، دخلنا ولم يأبه بنا أحدٌ من الحرس الموجود على البوَّابة والذين كانوا يضعون أيديهم على وسطهم، ويمضغون اللبان، ذكّروني بالشّرطة الأمريكيَّة.

دخلنا المبنى وكان المبنى مهملًا جدًّا، وفي القاعة التي دخلناها كانت هناك صورة نجيب معلّقة بينما كانت صورة "فاروق" على الأرض جانبًا ومكتوب عليها عبارات مهينة له.

كان رئيس الجلسة القاضي عزيز عفيفي، في السّتينيَّات، ورجل جادٌّ في تعامله، ومعروف عنه النَّزاهة، وكثيرًا ما رفض قضايا مشبوهة من قبل فاروق قبل ذلك.

عرفتُ أنَّ عبد النَّاصر بذل مجهوده لكي يكون عزيز عفيفي رئيس الجلسة، وأنَّه يتمنَّى البراءة، ولكن هل القاضيان اللذان مع عفيفي سيكونان محايدين أم سيراعيان الضّبَّاط الآخرين في الانحياز لمدام صادق؟

القاضي مصطفى نسيم معروف عنه بابتسامته الخبيثة، أمَّا "توفيق ماليمود" فهو صديق لكثير من الضّبَّاط المناصرين لمدام صادق.

كانتْ قاعة المحاكمة مليئة بالعامَّة، فبالنِّسبة لهم يوم فسحة، وهذه المحاكمة محاكمة القرن، وليس هناك من أحد أعرفه، فسيرين أبلغتْ أصدقاءها بعدم الحضور، وكانتْ سيرين في ملابسها الأنيقة تجلس بجواري على كرسيٍّ دوَّار لكي تواجه القاضي أو تلفّ لي لتكلّمني، وكانتْ مدام صادق غير موجودة في القاعة، حيثُ إنَّها شاهدة في غرفة الانتظار.

كانت الأعلام المعلّقة ولمبات الكهرباء المكشوفة تسلب القاعة هيبتها، حتَّى دخل الحاجب معلنًا قدوم القضاة، فوقف الجميع حتَّى جلس القضاة، وجلس الجميع وساد الصَّمت والهدوء.

وقفَ ممثِّل الادّعاء: "سيّدي الرَّئيس، هذه القضيَّة ترفعها حكومة جمهوريّة مصر بالنِّيابة عن الشَّعب ضدّ السَّيّدة كنج، السَّيّدة هولت سابقًا، وكانتْ من قبل الآنسة سيرين سرِّي"، فوقفتُ: "أعترض سيّدي الرَّئيس، اسم موكّلتي الحالي هو المطلوب فقط"، فابتسم الرَّئيس: "سنكتفي باسم المتَّهمة الحالي فقط"، "ما التّهمة؟"، فقال المدَّعي: "التّهمة سيّدي الرَّئيس أنَّه في ١٠ يوليو ١٩٤٢ تسبَّبت السَّيّدة، وحدها أو متضامنة مع آخرين، في قتل الجنرال عثمان صادق، مساعد الملك حينئذٍ، باختصار التّهمة هي القتل"، واستطرد: "وأسأل المحكمة أن تضع في الاعتبار حالة السَّيّدة التي تجلس في مكان قريب كشاهدة،

السّيّدة "لالا صادق"، المحرومة من الزّوج والعون والبيت والأسرة"، فقال الرَّئيس: "دفاع المتَّهمة؟"، فوقفتْ سيرين قويَّة وبنبرة متماسكة: "غير مذنبة".

وبعد أنْ جاء عزَّام بالشّهود، ولم تكن شهادة أيّ منهم مؤثّرة فكلّهم تكلَّموا عن نبل أخلاق صادق وشجاعته، أمَّا الطَّبيب فقال إنَّ "صادق" لم يكن يعاني من أيِّ أزمات قلبيَّة، وهذا أمر مردود عليه بأنَّ الموت بالسَّكتة القلبيَّة معروفٌ وبدون مقدّمات. وسأل الرَّئيس عمَّا إذا كان هناك شهود آخرون، فأخبر عزَّام بأنَّه لم يتبقَّ إلَّا مدام صادق، وهنا أعلن الرَّئيس تأجيل القضيَّة لليوم التَّالي.

قبل أنْ يترك القضاة المنصَّة طلب عزَّام من الرَّئيس: "وأين ستقضي المتَّهمة ليلتها؟"، وكان ظاهر سؤاله الخوف عليها من العامَّة كما وضح ذلك. بعد مشاورات قرَّر الرَّئيس بقاء المتَّهمة في بيت هولت مع زيادة عدد الحرَّاس حول البيت.

في انصرافنا وضَّح لي عزَّام صحّة سؤاله عن مبيت المتَّهمة، وأنَّ القضيَّة سياسيَّة أكثر منها جريمة قتل.

عند وصولنا للبيت شرحتُ لأبي كلَّ ما حدث، وجلسنا في المكتب أنا وسيرين وسألتني: "هل أقلقك عزَّام بسؤاله هذا؟ فقلتُ لها: "لا، عزَّام صديق ويؤدِّي عمله كما أؤدِّي عملي".

فقالتْ لي: "هلْ أنتَ نادم لأنَّك أخذتَ القضيَّة"، فقلتُ لها مؤكِّدًا: "ولا لحظة"، فقالتْ: "كنتُ أتمنَّى لو أنَّا تزوَّجنا حتَّى لا تأخذ القضيَّة"، فقلتُ: "لا؛ لأنّنا ما كنَّا وجدنا أحدًا يدافع عنك"، فسألت: ترى ماذا ستقول مدام صادق؟"، فقلتُ: "لا أدري حقيقة، غير أنَّها فرصة لها لتقول إنَّ زوجها كان عظيمًا، ولكن لا أصدِّق ذلك".

٤٤

بدأت الجلسة السَّاعة العاشرة صباحًا بالضّبط، ووقف عزَّام مستعطفًا المحكمة بالنَّظر بعين الاعتبار لأرملة صادق ومعاناتها.

اتجهتْ "لالا صادق" لمنصَّة الشُّهود وهي تحاول أنْ تضفي جوًّا تراجيديًّا على الموقف بملابس الحداد السَّوداء، وكلّ ما ترتديه من حلق أو خلخال أو خواتم أو عقد أسود في أسود، وهي تمسك في يدها منديلًا وضعته على شفتيها.

بدأ عزَّام بسؤالها: "هلْ يمكنكِ يا مدام صادق أنْ تَصِفِي لنا حالة المرحوم زوجك الصّحيَّة؟"، فوضعتْ يديها على حجرها: "كانتْ ممتازة"، وراحتْ تسهب في الحديث عن ذلك، حتَّى قاطعها القاضي عفيفي: "مدام صادق، المحكمة تُعْنَى بالحقائق لا الأقاويل، التزمي بالموضوع". هنا طلب عزَّام من المحكمة التَّسامح، وطلب من مدام صادق أنْ تشرح كيف علمتْ بوفاة زوجها، فقالتْ إنَّ أحد سيَّارات الملك جاءتْ بالسَّائق وذهبتْ بها لقصر عابدين وهناك بلَّغها الملك بالخبر. وحينما سألها عزَّام عن ردِّ فعلها، أخبرت المحكمة كيف انهارتْ ولم تتمالك نفسها حتَّى إنَّ الملك شاركها الحزن فهو كان بمثابة أخيه. وكعادة المصريين في قدرتهم على اصطناع الحزن راحتْ مدام صادق تحكي وتولول حتَّى إنَّ القضاة على المنصَّة راحوا يستمعون لها باهتمام.

أجّلت الجلسة لآذان الظّهر لتستأنف السَّاعة الثَّانية.

كنتُ قد اتَّفقتُ مع زولا أنْ يجهِّز لنا غداءً خفيفًا نأخذه أثناء الرَّاحة، ولما كانت الخمور ممنوعة أحضر زجاجتين من الماء، وإنْ كانت إحداهما ماء في ظاهرها ولكنَّها عرق أبيض تشبه الماء ظاهريًّا.

عندما استأنفت الجلسة انحنى عزَّام لمدام صادق وراح يعبِّر عن أسفه؛ لأنَّه سبَّب لها إرهاقًا جمًّا في ذلك اليوم، ولكنَّ القاضي عفيفي قاطعه: "أستاذ عزَّام بالرَّغم من أنِّي متأكِّد من حسن نواياك، ولكن لم تقدّم أيّ دليل لتأكيد التّهمة، ولن أسمح بتضييع وقت المحكمة، آأمل أنْ تضع هذا في الاعتبار". اعتذر عزَّام بخنوع وقدَّم لي الشَّاهدة.

وقفتُ متروّيًا، وقلتُ لمدام صادق: "كلّ ما ذكرته عن زوجك محمود، وكلّ ما ذكره الشّهود عن صفاته الحميدة مقبول كذلك، ولكنَّ السّؤال أين دليلك على اتِّهام موكّلتي؟"، فقالتْ: "إنَّها معروفة بأنَّها شرِّيرة"، فقلتُ لها: "هذا لا يهمّ المحكمة، وسؤالي الآن هلْ كنتِ سعيدة مع زوجك؟"، فقالتْ: "طبعًا"، فقلتُ لها: "ليس هناك طبعًا، ورغم ذلك سأثبت لكِ بعد قليل خيانته الزَّوجيَّة"، فقالتْ: "لا تتكلَّم عن رجل محترم مات ولا يدافع عن نفسه مثل هذا الكلام، أنتَ رجل غير محترم"، فقلتُ لها: "ومع هذا التزمي بالموضوع ولا تذهبي بعيدًا عنه"، ورحتُ مسترسلًا: "هلْ لديك دليل على ما فعله زوجكِ لينال كلَّ هذه الأنواط؟ ولما كان زوجكِ وفيًّا للملك، هلْ كان يؤدِّي له كلَّ الخدمات؟".

فقالتْ: "نعم"، فقلتُ: "كلّ شيء؟ حتّى السّرير؟"، فأجابتْ: "نعم، فالملك له احتياجات للنّوم"، فقلت: "لا أقصد النّوم، ولكنَّ الكلَّ يعرف أنَّ الملك من أسباب إجباره على التَّنازل هي سمعته المعروفة عن شغفه بالنِّساء"، وهنا علا صوتها: "هلْ تتَّهم زوجي"، فقاطعتها: "أنا أسألكِ فأجيبي بنعم أو لا"، فراحتْ تنظر للرَّئيس: "هلْ من حقِّه أنْ أجيب على هذا؟"، فراح بدوره يتهامس مع مساعديه، وهنا توجَّه لي القاضي ماليمود بالحديث: "إنَّك أرهقت المدام بكلام جارح ليس له ضرورة، وأيّ واحد كان يعمل مع الملك كان يؤدِّي له كلّ الخدمات"، فقلتُ: "حتَّى القوَّادة؟"، وهنا ضجَّت القاعة بالصّياح والصّفافير، فهدَّد القاضي بطرد الجميع إنْ لم يهدأوا، وبالفعل التزموا الهدوء، وسأل القاضي إذا كان عزَّام معه شهود جدد أم لا، فأجابَ بأنَّ هناك شهادة، وأنَّه يريد أن تذهب موكّلته مدام صادق لغرفة الانتظار حتَّى تهدأ.

وافق القاضي على ذلك، وطلب من عزَّام إحضار الشَّاهد، فدخلت خادمة مدام صادق، وكانتْ هي الشَّاهدة.

سألها عزَّام: "هلْ رأيتَ هذا الرَّجل من قبل؟"، وأشار لي، فأجابتْ: "نعم رأيته، في الجرائد"، فأعاد سؤاله: "هل رأيته لحمًا ودمًا؟"، فقالتْ: "نعم، نظري قويّ"، وأخيرًا فهمت ما يقصده عزَّام فأجابتْ: "نعم، رأيته من قبل هو

والسّتّ سيرين". بلا شكّ لم يكن هذا دليلًا على أيِّ شيء فوقفتُ قائلًا للمنصَّة: "موكّلتي كانتْ زوجة أخي، وهي جارتنا منذ الطّفولة، فمن الطَّبيعي أنَّنا نتقابل ويرى بعضنا البعض، فيا سيِّدي القاضي أرجو عدم اعتبار شهادة الشَّاهدة دليلًا على أيِّ شيءٍ"، فتشاور القاضي مع مساعديه وقال: "لن نعتبرها أيّ شيءٍ".

عادت مدام صادق بعد ذلك بناء على طلب عزَّام للشَّهادة مرَّة أخرى، وفي هذه المرَّة قال عزَّام إنَّ هناك دليلًا ماديًّا، وأخرج من المستندات خطابًا قدَّمه للقاضي، ثمَّ بعد ذلك أرسله القاضي لي لأقرأه، كان الخطاب من فاروق لصادق مفاده: "ابعد عن عشيقتي"، ويقصد هنا سيرين. سأل عزَّام مدام صادق عن كيفيّة حصولها على الخطاب وأخبرت المحكمة أنَّه من خزانته التي حصلتْ على مفتاحها بعد موته.

وقفتُ وقلتُ: "لا يدلّ هذا على أيّ شيء، وليس له علاقة بالتّهمة الموجّهة لموكّلتي"، هنا توجَّه لي عزَّام وقال: "هناك أوراق أخرى تدلّ على وجود صادق مع الملك يوم ١٠ يوليو في فيلّا زلفي.

وهنا أجَّل القاضي الجلسة. وذهبنا لمنزل هولت، وبعد أنْ جلسنا قليلًا سألها أبي ماذا حدث، فقالتْ: "كلُّ شيء فظيع، العامَّة الذين يجلسون على المقاعد كأنَّهم في سيرك روماني يلقون بالمسيحيين للأسود، أو الأقباط للمسلمين"، فطلب أبي ألَّا نتكلَّم في هذا الموضوع إلَّا طلبًا لمشورة فعليَّة. وبعد أن تناولنا الغداء ذهبتْ سيرين لغرفتها.

رحتُ أفكِّر في أنَّ القضيَّة تدور على افتراض أنَّ "صادق" لم يقتل، ولكنَّ الحقيقة أنَّه قتل على يد سيرين وهذا ما كان يشغلني. وراحت صورتها وهي تمزّق فستانها أمام "صادق" تمرّ على ذهني ولم تفارقه، فهل كان في مقدورها أو مقدور أيِّ إنسان آخر أنْ يفعل غير الذي فعلته.

وامتلكني التَّفكير بأنِّي الشَّاهد الوحيد، فلم أستطع النّوم لبقيّة الليل. وأخذتْ صورتها تدور كالدَّوَّامة أمامي.

٤٥

في اليوم الثَّالث من المحاكمة ذهبنا سيرين وأنا للمحكمة في سيَّارة الشّرطة. كان الصَّحفيُّون في كلِّ مكان، ويحاولون بكلِّ الطُّرق أنْ يحصلوا على معلومة، ولكن لم ننبس بحرف، فالقضيَّة لا تزال قيد المحاكمة.

كانت القاعة تطنّ بالكلام، وبمجرَّد أنْ دخلنا تحوَّلت لهمس، ثمَّ لصمت عندما أعلنَ الحاجب دخول القضاة.

وقف عزَّام ببدلته الرَّديئة التي لم تنقص شيئًا من ثقته، واستأذنَ المحكمة في استدعاء مدام صادق، فسمح له القاضي عفيفي باختصار.

دخلتْ "لالا صادق" في أبّهتها ببطء واتجهت لمنصّة الشّهود، توجَّه لها عزَّام بالسّؤال: "مدام صادق إنَّ المحكمة تراعي مدى معاناتك، ولكنْ هل تستطيعين أنْ تتذكَّري هذا اليوم من عشرة سنين مضتْ؟"، فقالتْ وهي تمسح جانب شفتيها بمنديل: "ومَن ينسى ذلك اليوم، لن أنساه أبدًا"، فطلب منها أنْ تحكي ما حدث في الجنازة، فقالتْ إنَّ الجنازة كانت من قصر عابدين، وكانتْ ملائمة لمكانة صادق. وبعيدًا عن الرَّسميَّات قالتْ إنَّ بعض الضّبَّاط سلَّمها متعلّقات "صادق" الشَّخصيَّة كالخواتم والقلم الذَّهب ويوميَّاته. هنا تذكَّرتْ ما قاله "فاروق" بأنَّ "صادق" كان معه يوميَّات لم نعثر عليها.

سلَّم عزَّام كتيِّبًا للحاجب وسأل مدام صادق: "ها تعرفين هذا؟"، فقالتْ بصوت متحشرج: "إنّها يوميَّات صادق"، فطلب منها أنْ تقرأ ما كتب في يوم ١٠ يوليو ١٩٤٢.

قرأتْ مدام صادق بعض الرُّموز والتي تبدو شفرة أو اختصارات 'ز / ج / س هـ ٢٢٣٠'، بعد ذلك أعطى عزَّام اليوميَّات للقضاة، ثمَّ لي، فنظرت فيها نظرة سريعة، ولكنْ لفتَ انتباهي أنَّ يوم ١٣ سبتمبر ١٩٤١

لم يكنْ موجودًا، وهو سابق ليوم أنْ أرسل الملك إنذارًا لصادق. وهنا ضحك عزَّام ضحكة المنتصر بأنَّ هذا هو الدَّليل الماديّ على وجود "صادق" مع الملك في فيلَّا زلفي.

اعترضتُ على هذا الاستنتاج دون دليل حقيقيٍّ، وحتَّى إنْ كتبَ ذلك فهل تمَّ هذا فعلًا؟ فوافقني الرَّئيس على الاعتراض. طلب عزَّام من مدام صادق تفسير الرّموز فقالتْ: "ز يعني زلفي، فيلَّا زلفي، ج جلالته، وس هـ سيرين هولت، ٢٢٣٠ السَّاعة العاشرة مساءً ونصف.

وقفتُ أسأل الشَّاهدة: "أين يوميّة ١٣ سبتمبر؟ طبعًا لم تمزّقيها، ثمَّ إنَّ الرُّموز التي افترضتها ليست دليلًا، فحرف ز قد يكون زقازيق، زفتى، زيتون، أيّ مكان، وقد تكون الحروف كلّها ترمز لأشياء غير التي فسَّرتها".

وهنا توجَّهتُ للقضاء قائلًا: "ليست الحروف هي التي تهمّ، ولكنَّ المعاني التي وراء الحروف".

في أثناء ذلك دخل ضابط القاعة وفي يده مظروف، فاعترض عفيفي على هذا، ولكنَّ الحاجب أدخل الضَّابط مخبرًا القاضي أنَّ الضَّابط معه خطاب من الجنرال نجيب. أخذ القاضي عفيفي المظروف وفضَّه، وبعد أنْ قرأ ما فيه قال لنا: "إنَّهم يريدونني لأمرٍ مهمٍّ يخصّ الدُّستور، ولذلك سنؤجّل الجلسة لغد السَّاعة العاشرة صباحًا".

أخذتُ أفكِّر في حقيقة الأمر، هلْ ما قاله القاضي عفيفي حقيقة أم لأنَّ القضيَّة مشهورة، والبعض يعتبر أنَّ الجنرال "صادق" بطل، فسيكون هناك ضغط سياسيّ على القاضي، ولكنَّ القاضي عفيفي معروفٌ بنزاهته ولا يقبل الفساد، ولكن هو مصريّ، والحكومة العسكريَّة التي أخذت الحكم فجأة لا تستخدم دائمًا طرقًا بارعة.

٤٦

بفضل احتياج نجيب لاستشارة قانونيَّة في الدّستور تنفَّست بعض الرَّاحة، جلستُ مع سيرين، وقلتُ لها كيف استطعنا إبطال ما في اليوميَّات، ولكن قلتُ لها إنَّ الأمر يعتمد على مدى تأثيرها نفسيًّا على القضاء لاعتبار الدَّليل ينفع أم لا أو يوضع في الاعتبار. ومدام صادق تعتمد أيضًا على تشويه صورتك.

بعد أنْ صببتُ كاسين قلتُ: "لستُ أدري ما الطَّريقة التي تحوّل بها صادق إلى بطل"، فقالتْ: "وكلّنا نعلم أنَّه ليس كذلك"، وأضافت: "بدلًا من مهاجمة "لالا" لماذا لا تهاجم "صادق" مباشرة"، فقلتُ: "صعب أن نقلب الأمور إنْ لم يكن معنا دليلٌ قويٌّ"، ثمَّ فكَّرتُ قليلًا وكأنِّي وجدتها، إنَّها سامية فهي تعرف كلَّ كبيرة وصغيرة.

كانتْ قد أعادتْ بناء سفنكس، واستأجرتْ "كازينو" صغيرًا في شارع عدلي، بعد أن اتَّصلت بالكازينو عرفت أنَّها في منزلها. اتَّصلتُ بها في المنزل وأخذتُ موعدًا للقاء، فكان صوتها في التّليفون يدلّ على أنَّها تجوازت أزمة احتراق سفنكس وعلى حدِّ قولها: "تربية فلَّاحين!".

عندما قابلتُها كانتْ قد تغيَّرت قليلًا ولكن لاتزال محتفظة بجمالها. جلستُ أمامها وأنا أشرح لها الموضوع تفصيليًّا، وبعد أنْ شرحت قلتُ لها: "أريد أيَّ دليل ماديّ على أيّ عمل خسيس ومشين قام به صادق"، فقالتْ: "سأبحث في يوميَّاتي"، استغربتُ من احتفاظها بيوميَّات وهي التي تدير المواخير، كأنَّها قرأتْ أفكاري استطردتْ: "عندي يوميَّات بأسماء البنات والأماكن التي يذهبنَ لها والتَّواريخ والأجرة أيضًا، لربَّما حدث أيّ شيء فأعرف كلَّ شيء".

وهنا تذكّرت الصّفحة المنزوعة من أجندة صادق، ١٣ سبتمبر ١٩٤١ وسألتها: "هل تعرفين شيئًا عن هذا التّاريخ"، فقالتْ: "ومَنْ ذا ينسى ذلك اليوم، في تلك الليلة قتلت فتاة وضربت أخرى في سفنكس على يد صادق". طلبتُ من سامية الواقعة بالتّفاصيل فحكتْ لي بإسهاب، وأنَّ البنت كان اسمها دولوري والفتاة الأخرى التي شهدت الواقعة بالتّفصيل اسمها زينب، وهي تعمل حاليًا كراقصة شرقيَّة في أحد الملاهي، وأنَّ دكتور شهير اسمه خطّاب هو الذي عالجها من إصابات خطيرة لمت بها في الواقعة. سألت سامية إذا كان من الممكن أن نحضر زينب والدّكتور للإدلاء بالشّهادة أم لا. فأبدتْ سامية استعدادها لهذا بل وضمنتْ أنّها ستحضرهما بنفسها في المحكمة.

بعد أنْ غادرتُ منزل سامية كان عليَّ أنْ أذهب لمكان آخر. إنِّي أصبحتُ متيقّنًا أنَّ "لالا صادق" هي التي نزعتْ ورقة الأجندة؛ لذلك فكرتُ مليًّا أنْ أظهرها كاذبة أمام المحكمة.

فماذا عن خبير في الكيميائيّات يعمل في شركة صناعيَّة بشارع شامبليون، كنتُ قد تعاملتُ معه من قبل أيّام الحرب. ذهبتُ له في مصر القديمة شاقًّا طريقي بين الباعة الجائلين وضجيج التّرام، والجنود الشّريرين والأزقّة المظلمة، وشرحتُ له ما في تفكيري.

بعد أن انعقدت الجلسة استأذنتُ المحكمة في استدعاء شاهدي على المنصَّة. صعد الدّكتور برتي مان وكان قصير القامة بوجه بيضاويٍّ وأنف صغير ومحمرّ الخدّين وله صوت رفيع، فطلبتُ منه أنْ يقدِّم نفسه فقدَّم نفسه بأنَّه يعمل في شركة إمبريال الصّناعيَّة وهي شركة متخصّصة في الورق على مستوى العالم. طلبتُ من المحكمة أنْ أقدِّم للشّاهد أجندة

صادق، وبعد أنْ أعطاها له الحاجب سألته: "يا دكتور، هلْ تستطيع أنْ تحدّد لنا تاريخ نزع الورقة التي في الأجندة المؤرّخة بتاريخ ١٣ سبتمبر ١٩٤١".

وهنا أمسك الدّكتور بالأجندة وتفحَّصها قائلًا: "هذه من ورق قطنيّ، وهذه الورقة تمَّ نزعها تقريبًا من أسبوع"، فساد طنين في القاعة، فتقدَّم عزَّام للشَّاهد: "دكتور، أنا رجل بسيط، هلَّا شرحتَ لنا كيف تعرف هذا وتتأكَّد منه؟"، فأجاب الدّكتور: "كما قلت، هذا الورق مصنوع من القطن المعالج بمادَّة صمغيَّة من الرَّاتنج والشَّبَّة والجلاتين، وهذه المادَّة تتغلغل في أنسجة القطن فتصقله وتجعله قابلًا للكتابة بالحبر، فإذا حدث قطع في الورقة تبدأ الورقة في نشع هذه المادَّة لفترة، وهذا النَّشع في هذه الورقة بدأ من أسبوع تقريبًا"، حاول عزَّام أنْ يراوغ فقال: "أعتقد أنَّ العلماء يختلفون في هذا التَّقدير"، بدون أنْ يتأثَّر ردّ عليه الدّكتور: "هناك متخصّصان في هذا الوضع في شركتين أخريين فقط على مستوى العالم، واحد في ألمانيا والثَّاني في أمريكا".

هنا اتخذ عزَّام منحى آخر: "لا يحقّ لي الجدال مع الدّكتور في مسائل علميَّة، ولكن سيادة الرَّئيس ما علاقة هذا بالقضيَّة؟ نحن في قضيَّة لنثبت أنَّ السَّيّدة سيرين متورّطة في اغتيال الجنرال صادق، فبماذا يفيد أنَّ مدام صادق نسيت أنَّ هناك ورقة منزوعة من الأجندة أم لا؟"، هنا استأذن القاضي ماليمور من الرَّئيس ليوجّه لي الكلام: "أرى أنَّ السّيّد عزَّام له الحقّ، يا أستاذ هولت ما الدَّليل الذي تريده من هذا؟".

بالفعل كنتُ أريد أنْ أشوّه صورة صادق ومدام صادق، ولكن ليس على وجه صريح فهذا سلاح ذو حدّين؛ لذلك قلتُ: "لو تحتمل معي المحكمة أنْ أستدعي مدام سامية لمنصَّة الشُّهود.

عند سماع اسمها حدث هرج ومرج في القاعة، فهي لازالتْ شخصيَّة شهيرة، واسطوانات أغانيها وصلتْ تقريبًا للمليون.

سألتها: "أخبري المحكمة بمهنتكِ لو سمحتِ"، فقالتْ: "صاحبة ملهى ليليّ"، فقلتُ لها: "هلْ أخبرتنا مدام سامية عن ليلة ١٣ سبتمبر ١٩٤١؟"، فقالتْ: "طبعًا، فأنا أتذكّرها تمامًا". شعرتُ بأنَّ صوت سامية لما بدأتْ حديثها كان متوتِّرًا ومنفعلًا، ولاسيَّما لأنَّها أقرَّت بإدارتها لبيت دعارة فقالتْ: "في هذه الليلة كان جنرال صادق في سفنكس، فهو كان زبونًا دائمًا، وكان يعرف أين يذهب من أجل ما كان يسمِّيه بخصوصيَّاته، كان معه أجندة، وأنا أيضًا معي أجندة، ولكن غير منزوع منها صفحات".

هنا صرخ عزَّام: "أحتجّ بقوَّة"، فوافق الرَّئيس على اعتراضه وشطبه من المضبطة، وتوجَّه القاضي لسامية: "لا داعي لهذه العبارات مرَّة أخرى، والتزمي بالإجابة على الأسئلة"، والتفت لي: "تفضَّل أستاذ هولت، ولكن لا تحاول أن توجّه الشَّاهدة"، فتوجّهتُ لسامية: "من أجل الدَّليل الذي تنتظره المحكمة دعيني أزعم أنَّكِ لم تكوني مجبرة على السَّماح للرِّجال لزيارة كباريهك من أجل إشباعهم جنسيًّا"، فردَّتْ: "نعم، لم أكن مجبرة"، فقلتُ لها: "شكرًا، هلْ شرحتِ قصدكِ بنزوات جنرال صادق؟"، فقالتْ: "لقد كان رجلًا فحلًا"، فسألتها: "ماذا تقصدين؟"، فقالتْ: "يمكنه أنْ يقوم بثلاث أو أربع مرَّات، في مدّة قليلة، ولكنّه ضاق ذرعًا بالطّريقة العاديَّة في ممارسة المتعة، فكان يأخذ فتاتين أو أكثر معه في الوقت نفسه، بل عرضَ عليَّ مبلغًا كبيرًا إذا أنا

قدَّمتُ له غلمانًا، ولكنِّي رفضتُ"، فسألتها: "غلمان؟ كم عمرهم؟ ولماذا رفضتِ؟"، فأجابت: "نعم، غلمان ١٢ أو ١٣ سنة، ورفضتُ لأنَّ الفتيات كنَّ يمارسنَ برغبتهنَّ، أمَّا الغلمان فلا، وأنا لا أرضى بالفساد في الأبرياء"، فقلتُ: "شكرًا، استمرِّي، كنتِ تتكلَّمين عن خصوصيَّاته".

فقالت: "نعم يا أستاذ، من عاداته الجلد، كثيرٌ من الرِّجال الكبار يحبُّون ذلك؛ لذلك كنَّا نحتفظ ببعض الكرابيج والحبال المفتولة وغيرها لهذا الغرض، وكان جنرال صادق يحبّ ثلاث بنات أو أكثر في الوقت نفسه، واحدة للممارسة الشَّفويَّة، وأخرى لـ... لممارسة العادة السِّرِّيَّة"، فقلتُ: "وصلتْ لنا الصُّورة، فهو رجل فحل ومستعدّ أنْ يدفع بسخاء لتقدِّمي كلَّ ما يريد"، فقاطعتني: "ليس كلّ ما يريد"، فقلتُ: "أعرفُ، الغلمان لا"، فقالتْ: "أيضًا اللواط مع البنات، كنتُ أقول للبنات حسب الرَّغبة، مَن تريد ألَّا تفعل هذا فلا أحد يجبرها عليه"، فسألتها: "هل جنرال صادق كان واحدًا ممن يمارسون اللواط مع البنات؟".

فأجابت: "نعم، ففي تلك الليلة أخذ معه بنتين، زينب ودولوري، وكنتُ أنا تحت أتحدَّث مع دكتور "خطَّاب" الذي يعتني بالبنات طبيًّا، فجأة سمعنا صراخًا في الطَّابق العلويّ، ظننته في البداية صراخ دلع من البنات، ولكن بعد ذلك أدركتُ أنَّه صراخ حقيقيٌّ، فصعدنا إلى أعلى، وعرفنا أنَّه في الغرفة الزَّرقاء، كنتُ أميِّز الغرف بالألوان. كاد يُغْمَى عليَّ لما دخلت الغرفة، فقد وجدنا الكرسي الذي بجوار السّرير مقلوبًا، ووجدنا زينب ملقاة على الأرضيَّة بجواره عارية تمامًا ووجهها مغطًّى بالدَّم وهي تصرخ، كدت أتعثَّر في الكرباج الذي أخبرتني فيما بعد أنَّ "صادق" استخدمه ليضربها به على وجهها عندما أرادتْ أنْ تساعد دولوري".

فسألتُها: "ودولوري؟"، فاستأنفتْ: "كانت نائمة على السّرير عارية تمامًا، وكانت مربوطة بحبل حول رقبتها في طرف السّرير وكان صادق جاثمًا عليها يحاول أنْ يمارس معها المتعة، حاولنا أن نرفعه من فوقها إلَّا أنَّه كان عنيفًا، واكتشفنا أنَّ دولوري كانت ميّتة".

قلتُ لها: "هذا يعني أنَّكِ تركتِ بطل الجيش المصري في حالة ممارسة مع جثّة؟".

أجابت: "نعم"، سألتها: "ألم تطلبي البوليس؟"، فردَّتْ: "نعم طلبتُ البوليس، ولكنْ كان "صادق" قدْ بلَّغني قبلها أنَّ الملك سيزور الكباريه، وبالفعل قبل أنْ يأتي البوليس جاء جلالته، فأخبرتُه بما حدث، وصعد إلى أعلى، ولكنَّه طلب من الشّرطة عندما جاءتْ ألَّا تذكر حرفًا مما حدث".

قلتُ: "شكرًا"، وتوجَّهتُ لعزَّام: "شاهدتك".

اتجه عزَّام لسامية وسألها: "هلْ كنتِ عشيقة للملك"، فأجابتْ: "نعم ولا"، فطلب منها عزَّام أنْ تشرح ذلك فقالت: "أبدى الملك إعجابه بي أكثر من مرَّة، ولكنِّي رفضتُ، وبعد عدَّة مرَّات وافقتُ وذهبتُ له في القصر، وكان ينتظرني في غرفة النّوم وهو يرتدي روبًا مفتوحًا مبينًا أعضاءه التَّناسليَّة، وطلبَ منِّي أنْ أخلع ملابسي ففعلتُ، ونمتُ على السّرير، ولكنَّ عضوه لم يتحرَّك، أخذتُ أثيره بكلِّ الطُّرق ولكنْ بلا فائدة، فانتهى اللقاء دون أنْ يفعلَ شيئًا".

جاء دور الدّكتور خطَّاب ليدلي بشهادته، وأخبر المحكمة بأنَّ شهادة الوفاة لم تكنْ تتضمَّن السَّبب الحقيقيَّ للوفاة؛ لأنَّ الملك عندما دخل الغرفة ووجد "صادق" شبه عارٍ ويجلس واضعًا يده على رأسه، طلبَ منه الملك

أنْ ينتظر في السَّيَّارة، وبعدها طلب منه أنْ يكتب تقريرًا يتضمَّن أنَّ الوفاة من مرض مزمن.

شعرتُ بأنَّ كلَّ مجهودي راح هباءً، فلم أفلح في تشويه صادق، وبينما أفكِّر في الوضع تمامًا جاء رجلٌ وأخذ "سالم" للخارج، وجاءني بمظروف، فتحتُ المظروف الذي به خطاب يقول "الجيش يضغط لتكون سيرين مذنبة وتحاكم ، عليكَ أنْ تطلب استخراج الجثَّة، وَثِقْ فيَّ ولا تقلق".

طلبتُ من المحكمة في الحال بأنْ تصدر أمرًا باستخراج الجثَّة، رغم علمي بأنَّ "صادق" مات رميًا بالرّصاص، ووافقت المحكمة على ذلك وتمَّ تحديد الموعد السَّاعة السَّادسة صباح اليوم التَّالي.

كانت المقابر العسكريَّة في العباسيَّة بجوار أوَّل حامية انجليزيَّة نزلت مصر عام ١٨٨٢.

كان الجوّ باردًا، وجاءت السَّيَّارات، الأولى بها القضاة، والثَّانية الدّكتور والحاجب، والثَّالثة عزمي وأنا، وسيَّارة إسعاف، وسيَّارة بوليس في المقدِّمة ثمَّ أخرى في المؤخِّرة.

فتح الخفير البوَّابة الحديديَّة الخاصَّة بالمقابر، وكان هناك اثنان من الحفَّارين ينتظران الإذن لفتح التُّربة، وبالفعل أعطاهما القاضي عفيفي الإذن بالفتح.

بدأ الحفَّارون العمل في فتح المقبرة، ونزلوا لأسفل بسلّم صغير، وبعد أنْ أزاحوا التُّراب، نزل لهم ثلاثة آخرون ليساعدوهم في استخراج الجثَّة. بعد ذلك رفعوا الجثَّة وهي في التَّابوت لسيَّارة الإسعاف، وتحرَّكنا حيثُ الثَّـلَّاجة بجوار القضاء العالي، وبوجود القضاة تمَّ فتح التَّابوت وشدّ الجثَّة بكفنها لدرج من أدراج الثَّـلَّاجة.

التفَّ الجميع حول التَّابوت لاستخراج الكفن، ثمَّ الجثَّة من الكفن. فكَّ الحاجب طرف الكفن فسقط نصفه مرَّة أخرى للتَّابوت، وفجأة فزعنا جميعًا وتراجعنا للخلف، ليس لمنظر الجثَّة ولكنْ لما كان في داخل الكفن.

لم يجرؤ أحدٌ من الاقتراب من الكفن إلَّا الحاجب الذي كان معتادًا على ذلك، مدَّ يده للكفن لكي يقول لنا: "انظروا ها هي جثَّة الجنرال صادق"، فإذا بها ثلاثة أكياس من الرَّمل، ولا مكان لجثَّة آدميَّة، فاستطرد الحاجب: "إنَّها نكتة ملكيَّة".

وقف القاضي عفيفي ومَنْ معه صامتين في حالة ذهول، ووجوههم شاحبة كالكفن أو أكثر، وأخيرًا تكلَّم القاضي عفيفي: "ليس من أحدٍ يا أيُّها الحاجب للتَّعليق على ما رأينا إلَّا أنا، على العموم شكرًا".

تأكَّدَ لي بعد هذا الموقف أنَّه لا دليلَ ولا جثَّة، وبالتَّالي لا حكم على سيرين، وأيقنتُ أنَّ "ستيفنسون" يعرف ذلك تمامًا، وإلَّا ما أرسل لي الخطاب في المحكمة ليقولَ لي أطلب استخراج الجثَّة.

في حالات أخرى كان من الممكن إتمام المحاكمة من غير جثَّة، ولكن في هذه الحالة لا يمكن، ولذلك توجَّه القاضي عفيفي بكلامه لعزَّام ولي: "يا سادة، القضيَّة انتهتْ، غدًا الجمعة إجازة، سنلتقي يوم السَّبت السَّاعة العاشرة، النَّتيجة بلا شكّ معروفة مسبقًا، وقد ترغب يا أستاذ هولت في مناقشة المصروفات وما إلى ذلك. في الوقت نفسه أستطيع أنْ أقولَ لكَ أنَّ موكِّلتكَ ستنام بعمق".

٤٩

كان غداء يوم الخميس بمثابة احتفال، اتَّصلت سيرين بباريس لتخبر أمَّها، وجاء أبي بزجاجتين من الشَّامبانيا.

بعد الغداء رحتُ أتمشَّى مع سيرين في الحديقة، وأثناء تجوّلنا جاء زولا ليخبرني أنَّ "سالم" الذي يعمل معي في المكتب يريدني للضَّرورة، فأبلغتُه أنْ يحضرَ لي في الحديقة.

عندما جاء "سالم" سألتُه عمَّا يريد، فطلب منِّي أن نكونَ على انفراد، وهنا استأذنتُ سيرين لتتركنا وحدنا. سألته مرَّة أخرى فتلعثم متردِّدًا: "أستاذ هناك خبر مزعج، ولكنْ لازم تعرفه، هناك اتِّهام موجَّه لسيادتك لو أنَّه أثبتَ لتسبَّب في تركك للوظيفة"، فحاولتُ أنْ أرفعَ عنه الحرج، فابتسمتُ وتظاهرتُ بأنَّه ليس هناك شيء يهم، فتشجَّع قائلًا: "هناك رجل موكّل عن مدام صادق يزعم أنَّ السَّيِّدة سيرين وسيادتك على علاقة معًا حتَّى من قبل زواجها من السَّيِّد جريج"، فصحتُ: "ياللهراء، إنَّها امرأة فقدتْ عقلها"، وسرنا معًا قليلًا ونحن نعلم أنَّ هذا حقيقة، ثمَّ تردَّد ليضيف: "هناك أمر آخر يا سيّدي، لقد أبلغتني من خلال وسيط أنَّ سيادتك والد ابن السَّيّدة سيرين، وأنَّه تمَّ الحمل به في سقَّارة"، فقلتُ: "هذه أكاذيب وضعتها تلك المرأة المجنونة". أردف سالم: "أتمنّى أنْ يكون هذا كذبًا، ولكن أخشى أنَّها تمتلك الدَّليل على هذا"، وأخرج من جيب الجاكت قطعتين من الورق وسلَّمهما لي. أخذتُ أقرأ:

"الآن لا أطلب شيئًا من الحياة، فأنا في هذه الليلة أحتضن مارك بين ذراعيَّ، وأنَّه لما كان يتحرَّك بداخلي رحتُ أمطره بالقبل حتَّى وجدتُ نفسي أتجاوب معه إلى قمّة اللذَّة"، شعرتُ بالخجل ورحتُ أقرأ الورقة الثَّانية:

"لقد عملتُ شيئًا آخر في هذه الليلة الممتعة؛ لأنّي أحبّ مارك لم آخذ أيَّ موانع للحمل كما أفعل مع جريج".

صحتُ: "هذه أوراق مزيَّفة"، ولكنَّ "سالم" قال: "إنَّها نسخة من الأصل، وهي تحتفظ بالأصل". شعرت بالإحباط وتمشَّينا حتَّى شجرة الكاتدرائيَّة وتذكَّرت لما حملت سيرين وهي صغيرة، وشعرتُ بأنَّ فروع الشَّجرة قضبان لا يمكنني التَّخلُّص منها.

عدنا للمنزل وذهبتُ حيث أحتفظ بالكتب ومعها الأجندة لكي أعرف مَن سرقها، وشعرتُ أنَّ كلَّ ما فعلته تحطَّم. هل مدام صادق تبتزّني؟ فالقضيَّة ليس أنْ أفقد عملي فقط، بل سمعة سيرين وصدمة الكثيرين لو عرفوا أنِّي أبو جونوثان، مدام سرِّي، وعائلتي والكثير.

طلبتُ من سالم أنْ يذهب ويقابلني في المكتب بعد ساعتين، وبعد أن انصرف سمعتُ طرقًا على الباب فإذا بها سيرين. كنتُ متردِّدًا أأخبرها بالذي حدث أم لا، ولما رأتني متكدِّرًا أخبرتها بكلِّ شيء. بمجرَّد أنْ سمعت الخبر انهارتْ وسقطتْ على الكرسي وهي لا تصدِّق وتولول كالمصريين: "أهي تعرف عنِّي كلّ هذا؟ تعرف أنَّ جونوثان هو ابنك؟ مستحيل لا أصدق"، وجلستُ أنا أيضًا صامتًا لا أدري ماذا أفعل.

بعد فترة صمت قالتْ سيرين: "إذا أرادتْ أنْ تبتزّك ادفع لها ما تريد"، لم تكن المشكلة أنْ أدفع لها، ولكن فيما بعد لربَّما تحتفظ ببعض الأوراق أو نسخ منها وتعيد تهديدها لنا. وبينما أفكِّر مليًّا فاجأتني سيرين: "أنا عرفتُ مَن سرق الأجندة، إنَّه أبو بنت حكمت"، فقلتُ: "عاكف؟ ولماذا؟"، فقالتْ: "أنسيت ليلة حاول أنْ يقتل أباك؟ إنَّني بعد أنْ سافرت أمريكا وتركت حكمت في منزلكم لتعمل، وهنا ظهر هذا الرَّجل مرَّة ثانية".

فكَّرتُ في ذلك الأمر وكيف يعمل عاكف مع مدام صادق، فاتَّصلتُ بستيفنسون ليقابلني في المكتب، واتَّصلت بعليٍّ في شقَّته بالزَّمالك ليأتيني السَّاعة العاشرة.

ذهبتُ للمكتب وكان ستيفنسون ينتظرني في المكتب، فطلبتُ من سالم البقاء خارجًا حتَّى ألخص ما حدث لستيفنسون وبعدها يلحق بنا. حكيتُ لستيفنسون ما حدث.

طلبتُ من سالم أنْ يدخل، وجلس معنا نتنقاش في الأمر وسألته: "كم يريد عاكف؟"، فنظر مستغربًا: "سيّدي، عاكف هو مَن أحضر هذا، ولكن هناك محام لبناني هو الذي يمتلك الدَّليل، وهو يطلب ربع مليون دولار"، فصحتُ: "هراء"، وبدأتُ أفقد أعصابي.

طلب منِّي ستيفنسون أنْ أرجع للمنزل، وأتركه في المكتب مع سالم ليتدبَّرا الأمر معًا، وقبل أنْ أغادر المكتب سألته عن استخراج الجثَّة، فقال لي: "غدًا سأخبرك".

عندما جاء ستيفنسون لم نجد أمامنا إلَّا أنْ ندفع المبلغ المطلوب، ولكن المشكلة أنَّ غدًا هو يوم الجمعة وهو راحة في مصر، وبالتَّالي لا نستطيع أن نفعل شيئًا. بعد فترة صمت قال ستيفنسون: "نستطيع أن نتجاوز هذا إذا اتصلتْ سيرين بالبنك في سويسرا وحوَّلت المبلغ لحساب مدام صادق وربطته بتاريخ استلامنا الأجندة التي لديها.

كان الفكرة جيّدة، وعليه اتَّصل ستيفنسون بالمحامي اللبنانيّ ورتَّب معه كلَّ شيء، ولكن فاجأنا ستيفنسون بأنَّ مدام صادق لها شرط ألا وهو أنَّ سيرين تذهب لها في مسكنها وتسلّمها مستندات البنك بنفسها. صرختْ سيرين: "استحالة، لن أذلَّ نفسي"، ولكنَّ ستيفنسون أقنعها لابدَّ من هذا؛ لأنَّ مدام صادق تعلم أنَّ المال لا يعني لسيرين شيئًا، وبالتَّالي مكسبها الحقيقيّ في هذا الموقف؛ إذلال سيرين.

تجرَّعتْ سيرين كاسًا من الويسكي: "سأضطر أنْ أفعل هذا من أجلك يا مارك، لقد أنقذت حياتي، والآن جاء دوري لأضحِّي من أجلك؛ حتَّى لا تفقد مهنتكَ".

٥٠

كان يومًا سيئًا، يوم الجمعة هذا. سيرين كانت شاحبة الوجه وكذلك كنتُ أنا متوترًا وغاضبًا. ففي ليلة أمس بعد أنْ تركنا ستيفنسون جاء عليٌّ وأخبرته بما حدث من عاكف، وطلبتُ منه أنْ يخبر أصدقاءه من الإخوان المسلمين بأنَّ "عاكف" لم يحاول فقط قتلَ أبي، بل سرقَ ممتلكات أخته.

تركنا عليٌّ دون أنْ يتكلَّم.

اتَّصل بي ستيفنسون لأذهب لمكتبه لكي أوقِّع للمحامي اللبنانيِّ على بعض الأوراق كضامن. بعد أنْ وقَّعتُ وذهبَ المحامي شرح لي ستيفنسون موضوع الكفن الفارغ. لقد كانتْ هناك خدمات متبادلة بين الأمريكان وفاروق لغرض تقليص وجود بريطانيا في المنطقة، فلمَّا ألقى بولي وأصدقاء فاروق جثَّة صادق في النِّيل في الليلة إيَّاها كان لابدَّ من جنازة وهميَّة، وبالتَّالي تَمَّ ما تَمَّ في السِّرِّ.

لم أكن موجودًا في المساء عندما ذهبت سيرين مع ستيفنسون لمنزل مدام صادق في الزَّمالك والذي يطلّ على نادي الجزيرة، ولكن كنتُ عندما عادتْ سيرين والدّموع في عينيها: "سأحرق كلَّ شيءٍ أرتديه حتَّى الحذاء، ولن ألمسكَ حتَّى أنظِّفَ نفسي تمامًا بالصَّابون الكاربوليك، إنَّني أشعر بأنَّني في منتهى القذارة".

بعد أنْ صعدت لأعلى حكى لي ستيفنسون ما حدث في شقَّة مدام صادق، عندما وصلا للشَّقَّة ودخلا غرفة الجلوس الفلَّاحي في ذوقها

تعمَّدتْ "لالا صادق" ألَّا تأتي إلَّا بعد عشر دقائق، ولما دخلت تجاهلت سيرين تمامًا ومدَّت يدها لستيفنسون، ولكنَّه تجاهلها وسألها عن الأجندة، فسألته عن المستندات فأخرجها لها لكي يعطيها لها طالبًا منها الأجندة، فبعد أنْ أخذت المستند طلبت من المحامي اللبنانيّ الذي جاء خلفها بأنْ يعطيها الأجندة وألقتْ بها على الأرض.

وعندما حاول ستيفنسون أنْ ينحني ليأخذها صاحتْ "لالا صادق" بأنَّ سيرين هي التي يجب أنْ تنحني وتأخذها، وبالفعل انحنتْ سيرين وأخذت الأجندة، وهنا قالتْ "لالا صادق": "عاهر وقاتلة"، ثمَّ بصقت على فستان سيرين وخرجتْ.

لقد كانت البراءة كما توقّع كلّ واحد مضمونة، وأصدر القاضي عفيفي الحكم بذلك.

ولقد كنَّا دائمًا نخطِّط بأنَّنا نعيش في سويسرا بعد أنْ تنتهي الأزمة، وأنِّي آخذ أبي الذي بلغ السَّابعة والسَّبعين وأمِّي معي وأعطيهما الشَّقَّة التي أمتلكها هناك، ولكنَّ أبي في النِّهاية رفض أنْ يترك مصر وفضَّل البقاء فيها معلِّلًا أنَّ عبد النَّاصر يعرفه وأنَّه سيبقى في المنزل نفسه مقابل إيجار رمزيّ.

أمَّا سيرين فأرادتْ أنْ تبقى لفترة تودِّع فيها كلَّ شيء في القاهرة التي تغيَّرتْ كثيرًا، وعادتْ للرَّسم، وإنْ كان بابيست قد ماتَ، ولكن هناك معارض أخرى طلبت منها لوحاتها، لذلك أرادتْ أنْ تستعيد ذلك، وأن ترسم البعض في الفترة قبل أن نغادر.

كانت مدام صادق أيضًا غادرتْ مصر بعد الثَّروة التي لم تحلمْ بها، وذهبت لروما بجوار المزعج فاروق على حدِّ تعبير ستيفنسون.

أمَّا عاكف فقد وُجدَ قتيلًا، طافية جثّته في النِّيل، لم أحد يعرف مَن الذي قتله، ولكنَّ ستيفنسون أيضًا قال إنَّ عليًّا كفَّرَ عن ذنوبه وفعلها.

قبل أنْ نغادر أيضًا دعانا تيدي وزوجته لحفل احتفال بعيد الزَّواج، ولكن لم يقرّر لإقامته في نادي الجزيرة الذي تغيَّر كثيرًا، ولكنَّه أراد لنا جميعًا أن نستعيد أيَّام زمان؛ ولذلك قرَّر أنْ يحتفل به في سقَّارة، هذه المرَّة كأزواج، وأنَّ ركوب الخيل ممنوع لأنَّ بعض الزَّواجات حوامل.

كان الجوّ في سقَّارة جميلًا، وذكَّرنا فعلًا بالماضي الجميل، وبعد أنْ تناولنا وجبة دسمة على ضوء القمر، بالخبز البلدي، وتحت ظلال النَّخيل على أنَّنا سنذهب في الصَّباح لمينا هاوس لكي نقضي وقتًا في حمَّام السِّباحة؛ لذلك دخل الجميع وناموا في الخيمة إلَّا سيرين، فقد همستْ في أذني فخرجنا وهي تحمل معها سجَّادة كشمير وشنطة بها بعض زجاجات الشَّامبانيا وقالتْ لي: "هيَّا نمارس كليلة الرِّست هاوس ونعيد جمالها"، رقدنا على السِّجَّادة عرايا تمامًا وهي تجذبني لها: "هيَّا نبدأ في أوَّل طفل من الأربعة الذين تريدهم، وتذكَّر أنَّ مَن يمارس المتعة عند سقَّارة يعيش في سعادة أبديَّة".

رجعنا بعد ذلك للخيمة يدًا في يد كعاشقين شابّين. خلال ظلال النَّخيل التي يعكسها القمر على مياه النِّيل السَّاكنة، كلانا مشغول بالأفكار نفسها دون أن ننطقَ بكلمة واحدة.

كيف تجرَّأنا وبكلِّ غطرسة أن ننظرَ لهذا الصَّرْح الحجريّ العظيم، ودرجاته التي ترمز للتَّاريخ، ونعلن بازدراء أنَّ "القاهرة تغيَّرت!" لقد كنَّا نخطو على أرض يتزاحم فيها التَّاريخ المرئيّ، بحجارته، ومعابده، ومقابره، والمياه الخالدة لنيلها الذي يشقّ طريقه في أخصب أرض في الكون، يذكّرنا في كلِّ لحظة أنَّه لا يمكن لأيٍّ واحد أنْ يغيّر في عشرين سنة تاريخًا يمتدّ منذ خمسة آلاف سنة.

بعد أنْ مررنا بهرم سقَّارة نفسه، ذلك الهرم الرَّائع للملك مضى من زمن. رأيتُ في نقطة التقاء النِّيل بالأرض، خيالًا لقارب مربوط به ثور يقوده صاحبه خلال الأرض المغمورة بالفيضان لواحة ببقعة أرض عالية.

توقَّفنا، قبَّلتها، إنَّه جميل، مازالنا لا نحتاج لكلمات، فنحن لا نحتاج لكلمات تعبِّر عن اتخاذ القرار.

عند رفعنا باب الخيمة سألتُها: "تقولينَ أنتِ لهم، أم أقول أنا؟"، وكان الجميع يقظًا يضحكون ويشربون.

سألنا تيدي: "أين كنتما"، وأضاف: "في سنِّكَ هذه يا مارك!"، وكأنَّه يعرف ما فعلنا جيّدًا.

صاحتْ سيرين: "هدوء من فضلكم، إنَّكم تعرفون أنَّنا مارك وأنا تزوَّجنا توًّا، ولكن لدينا إعلان آخر يجب أن نخبركم به"، وصمت الجميع وقلت: "سيّداتي سادتي إنَّني وسيرين توصَّلنا للقرار نفسه وهو أنَّنا قرَّرنا ألَّا نذهب ونعيش في جنيف أو أيّ مكان آخر، نحن قاهريُّون، وسنعيش في القاهرة".

فَعَلَت الهتافات، وصفَّق البعض، وابتسم الخدم الذين كانوا معنا لمدحنا في بلدهم، وشرحتُ أنَّه يمكنني أن أذهب ليومين في الأسبوع لجنيف وهلمَّ جرًّا. وطرق ستيفنسون على كأسه بالملعقة لكي نصمت صائحًا: "في صحّتكم، سأكون أشبين الزِّفاف"، وطرقتُ بدوري على الكاس ليصمتوا قائلًا آخر كلمات قبل أن نركبَ سيَّاراتنا ذاهبين لمينا هاوس للسِّباحة، بينما الشَّمس تشرق على النِّيل: "في صحَّة سحر سقَّارة العظيم".

***

المؤلِّف

نويل باربر

هو مؤلِّف لأكثر من ثلاثين كتابًا، كثير منها من أحسن المبيعات في العالم، مثل رواية تاناميرا (وهي عن سنغافورة) ووداعًا فرنسا.

ونويل باربر كان يعمل مراسلًا صحفيًّا لجريدة الدّايلي ميل، ولقد عاش فترة في فرنسا، وفي القاهرة، حيثُ التقى بعبد النَّاصر والسَّادات والملك فاروق.

ويعدُّ نويل باربر أوَّل بريطانيٍّ يصل للقطب الجنوبيّ منذ سكوت، وتعرَّض نويل لمحاولة القتل حوالي خمس مرَّات حين كان في المغرب عندما كان يغطِّي أحداث الحرب المغربيَّة، وأثناء الثَّورة المجريَّة تَمَّ إطلاق الرّصاص علي رأسه مما تسبَّب في وفاته عام ١٩٨٨.

المـتـرجـم

الاسم: **شرقاوي حافظ**

عضو في (اتحاد الكتاب/ دار الأدباء/ أتليه القاهرة/ نادي أدب مصر الجديدة).

المؤهِّل: هندسة/ آداب (لغة عربية)/ ترجمة (آداب- ألسن- جامعة أمريكيَّة).

أعمال أدبيَّة وعلميَّة ومترجمة

الشِّعر

(راقصات في معبدي/ ارتعاش البرونز/ أحلام البنفسج/ وعربد الماء/ عندها اشتعل الجليد/ هكذا فاض الظمأ/ ثم/ ولكن/ قلب مؤقَّت/ اللاتناهي/ ثرثرة فوق ضفاف الصَّمت/ هي الدَّهشة).

النثر:

(همس الرّحى (رواية) - نفق الصَّمت (خيال علمي) – صياح الدِّيك (قصة قصيرة).

المسرح:

(عودة المعرِّي (شعريَّة) – مدار الشّرقاويزم (خيال علميّ)).

الترجمة:

- **للعربيَّة:**

عندما تسقط هالة (قصص قصيرة) – فنّ الرَّسم– أبناء قابيل (رواية) – امرأة من القاهرة (رواية) – خرافة الصّهيونيَّة (سياسي)– سرّ الهرم الأكبر (كتاب علمي)– مختارات شعريَّة- العرب بين الانتصار والانكسار– قوّة إسرائيل في أمريكا- هل للشّعر أهميَّة (نقد)– قصيدة النَّثر– مبكّرًا في الصّباح (ديوان للشّاعرة اللتوانيَّة سالوميا نيريس، مترجم شعرًا)- جوع (رواية للأديب النّرويجي كنوت هامسون) ـ الشّيء الذي حول عنقك (للكاتبة النّيجيريَّة شيماماندا نجوزي) ـ أصابع صغيرة (رواية رومانيَّة للكاتب فيليب فلوريان) ـ رسائل جامعيَّة وغيره.

- **للانجليزيَّة:**

(ونحن نغنّي أيضًا (قصائد عاميَّة مصريَّة) – زئير الصَّمت (قصائد عاميَّة مصريَّة)– قصائدي (قصائد للمترجم)– قصائد عربيَّة (لبعض شعراء الفصحى)– الحبُّ في عيون الشُّعراء (كتاب نقدي) – قصص قصيرة – وغيره.